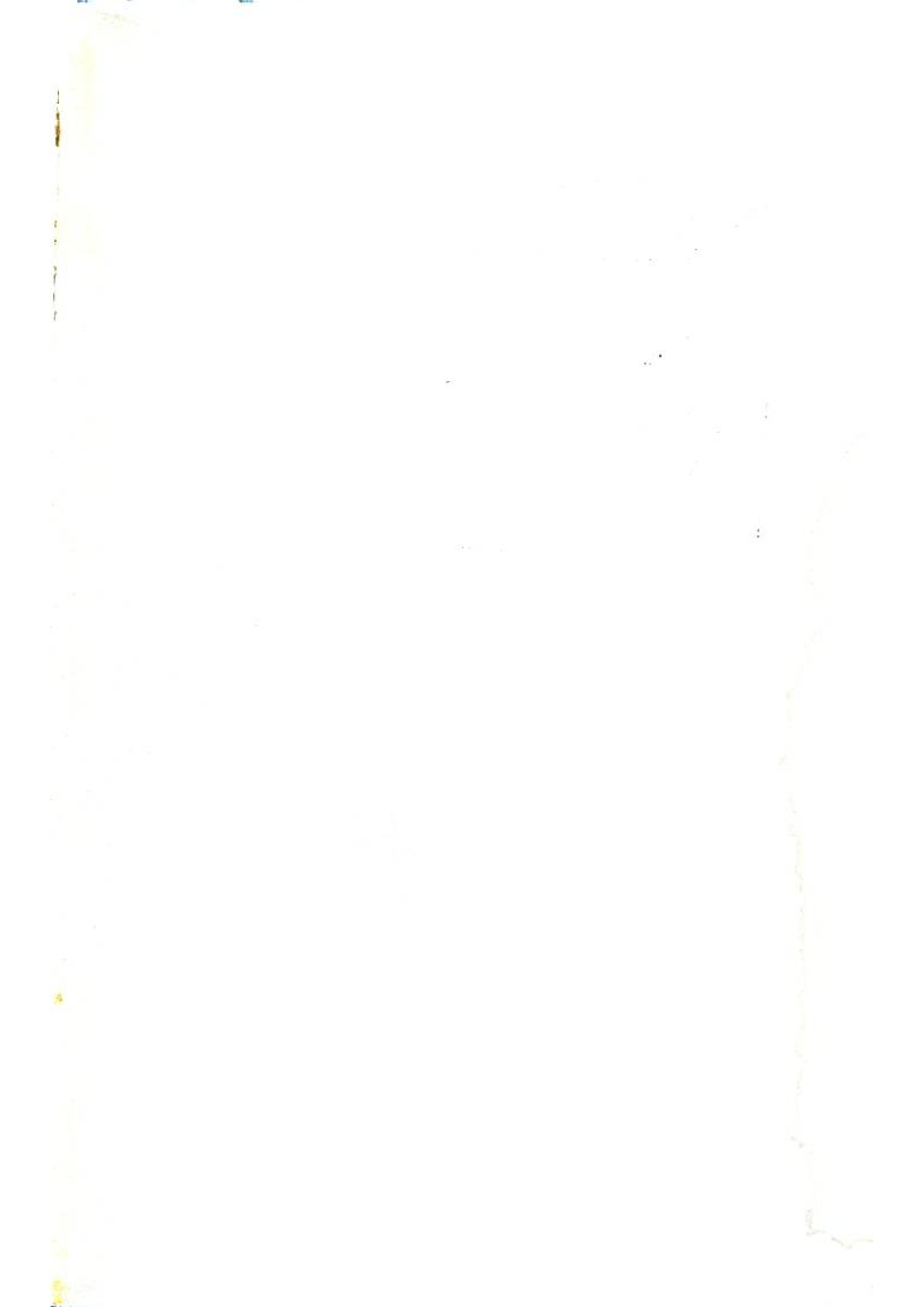
المهندس الدكتور
أحمد سوسة
عضو المجمع العلمي العراقي

حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور



حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور

تقـــديم

قبل ان أبدأ بتقديم هذا العرض الوثائقي حول « تطـور حضارة العرب عبر العصور » أود ان اسجل هنا بان الذى اوحى الي بوضع هذا البحث هو الخطاب التاريخي الرائع الذى القـاه الاستاذ صدام حسين الامين العام المساعد لحـزب البعث العربي الاشتراكي في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام بتاريخ ١٩/٩/١٩٧٧ حول كتابة تاريخ الامة العربية ، حين اكد « ان تاريخ الامة العربية لا يبدأ من الاسلام بل يمتد الى عصور سحيقة في القدم ، هذا ما يعمق الايمان بان كل الحضارات الاساسية التي نشأت في الوطن العربي ، انما هي تعبير عن شخصية ابناء الامة الذين نبعوا من اصل المنبع الواحد ، وذلك ما يعطي لتاريخنا القومي بعـده الحضاري المتسع وانجازاته الكبرى والعميقة في حياة البشرية عبر مختلف اطوارها » • ثم يضيف الى ذلك قوله : « انه من الخطـأ ان ينظر الى تاريخنا وكأنه كان فراغا او مخجلا قبل الاسلام كما

ان من الخطأ المقابل ، بالمقابل ، ان يحلل تاريخنا وكانه صراع طبقي ، لان في النظريتين اختلافا لا تقبله حقائق التاريخ ... يجب ان ندعم نظريتنا بالتاريخ القديم مؤكدين ان تاريخ الامة العربية يمتد الى عصور سحيقه في القدم » .

والحق ان هذا الخطاب قد جمع بين الجغرافيا والسياسة والتاريخ ، ويعد اول اسهام من نوعه في علم الجغرافيا السياسية الحديث العهد . فقد كشف عن عبقرية قيادية عربية فذة ، تعبر باجلى بيان عن الدور الذى لعبته البلاد العربية في مختلف الميادين الحضارية وعنمدى اسهام حضارة العرب في تقدم المدنية الانسانية منذ اقدم العصور . فقد نبهنا هذا الخطاب الى نقطة رئيسة مهمة ، ألا وهي ان للامة العربية تاريخا سحيقا في القدموعلينا ان لا نبخس الدور الذي لعبته في نشوء وتطور الحضارة البشرية ، فقد تحملت اثقل عبء في نقل مشعل الحضارة الى العالم . وقد اثبتت لنا الوقائع هذه الحقيقة ذاتها كما هو واضح في العرض الوثائقي الذي اقدمه . واذا اغفل بعض المؤرخين وفي مقدمتهم الصهاينة ومن سار في ركابهم لعدائهم ضد العرب هذا الدور ، فهناك بالمقابل جمهرة من العلماء الذين اوقفوا حياتهم من اجل خدمة العلم والكشف عن الحقيقة لا يتأثرون باية تاثيرات مهما كانت مغرية ، فكان جل اعتمادي على آرائهم العلمية المحايدة . والثابت من الاراء التي توصل اليها هؤلاء العلماء ان بلاد العرب هي مهد الحضارات البشرية القديمة ، فقد كانت جزيرة العرب في العصور

الحجرية غير ما هي عليه اليوم من الجدب الذى تسوده الصحارى القاحلة ، اذ كانت تتمتع في هذه العصور بجو رطيب معتدل تكثر فيه الامطار دائمة السقوط وتجرى فيها الانهار الدائمة المجـرى من كل صوب ، فازدهرت في جزيرة العرب أول حضـارة نهريـة معروفة في تاريخ العالم تعتمد في زراعتها على الري • وفي هـذه الفترة انتقل سكان الجزيرة العربية من طور القنص والصيد الى طور الفلاحـة والزراعة التي تعتمـد على الـري • والمعلوم ان الحضارات القديمة نشأت اول ــ ما نشأت على الانهر الدائمـة المجرى وعلى الزراعة التي تعتمد على الري ، فبدأت اول ما بدأت عندما بدأ الانسان القديم يكتشف سبل ايصال الماء الى الارض الزراعية ومن تجاربه في تنظيم الري وشق الجداول وانشـاء السدود والبزول والخزانات كان منشأ علم الري في التاريخ ومعه كان ازدهار الحضارة النهرية التي تعتمد على الري في زراعتها • وفي ذلك يقول الاستاذ سميث في كتابه « اصل الحضـارة » : « ان الحضارة اكتسبت طابعها المتميز الواضح بعد ان شـرع شخص بتنظيم الحياة على اساس الري والزراعة حتى اصبح هذا الشخص أول ملك في تاريخ العالم ، ثم بعد وفاته رفع الى درجة الاله فكان اول الالهة » • ثم حل عصر الجفاف في اعقاب العصر الجليدي الاخير فقامت الهجرات تتوالى من جزيرة العـرب الى الهلال الخصيب ، وكانت نتيجة هذا الجفاف ان نقل المهاجرون الى مستوطناتهم الجديدة حضارتهم النهرية معهم واسسـوا في وادي الرافدين اقدم واعظم الامبراطوريات ممـا عرفـه تاريخ

البشرية ، أي الامبراطوريات الساميات الاربع : (الاكدية والبابلية والآشورية والكلدانية) وكان ذلك في المرحلة الثانية من تطور حضارة العرب .

اما المرحلة الثالثة فهي الحضارة القديمة التي حافظ عليها أهل اليمن الذين بقوا في اراضيهم في جنوبي جزيرة العرب بعد الجفاف واستمروا يمارسون الزراعة على الري واسسوا هناك ممالك عربية ذات حضارة راقية كمعين وقتبان واوسان وسبأ وحضرموت وحمير ، وكان اهم المخلفات التي حافظوا عليها وبقيت معهم هي لغتهم العربية الفصحى التي كانت مقدسة بين عرب الجزيرة العربية قبل الاسلام .

واخيرا فمن الواضح ان ماورد في خطاب الاستاذ صدام حسين يدور حول كتابة تاريخ الامة العربية وفق النهج الذى رسمه له ، والموضوع هو موضوع الساعة اوجبته الحاجة الملحة والحاجة هي ام الاختراع وهي التي تخلق عظماء الرجال لكي يؤدوا رسالتهم ، والاستاذ صدام حسين هو اول زعيم عربي يتقدم بهذه الفكرة في تاريخ العرب المعاصر . وما من اعمال جسيمة الا وتبدأ عادة بفكرة ثم تبذل المساعي لتحقيقها ، والامم والشعوب قاطبة هي التي تكتب تاريخها ، لان تاريخ الامه جزء لا يتجزأ من تراثها وكيانها الحضارى . لذلك لا يصح ان يكتب تاريخ الامة العربية على ايدى غير ايدى اهلها . وكم نحن بحاجة الى توضيح وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة التي فرضها المؤرخون بقصد او

بغير قصد • واذا كان العذر في كتابة تاريخ الامة العربية من غير العرب مقبولا فيما مضى على اعتبار ان الامم الغربية قد سبقتنا في ميادين العلم الحديث ، فلا يوجد لهذا العذر أي مبرر بعد ان اصبحت الامة العربية زاخرة بعلمائها ومؤرخيها • لذلك تتمنى ان يتم تحقيق هذا المشروع العظيم على يد الاستاذ صدام حسين نفسه لانه هو صاحب الفكرة ويقع العبء الاكبر على عاتقه وعلى توجيهاته الشخصية •

هذا وقد رأيت ان اضع في فاتحة هذا البحث الذى اقدمه عن مراحل حضارة العرب ملخصا له لتسهيل مراجعته لدى القراء ارجو ان تحصل الفائدة المتوخاة من ذلك •

الدكتور احمد سوسة

محتويات البحث

ج – رأي توينبي في كتابه « دراسة في التاريخ » ٠

د – رأي جايلد في كتابه « تاريخ الشرق القديم » ٠

هـ – رأي ليون كايتاني العالم الايطالي في كتابه « تاريخ الاسلام »

و – رأي الدكتور مورتكات في كتابه « تاريخ الشـرق الادنى القديم »

ز – رأي وول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة »

ح – تعليق ولفنسون في كتابه « تاريخ اللغات السامية »

١٢ – الجفاف والبداوة اساس الحضارة والتمدن

١٣ – أقدم وجود للساميين في وادي الرافدين

١٤ – حضارة العرب تنتقل في مرحلتها الثانية من جزيرة العرب وتستقر في وادي الرافدين وتؤسس حضارتها الكبرى فيه

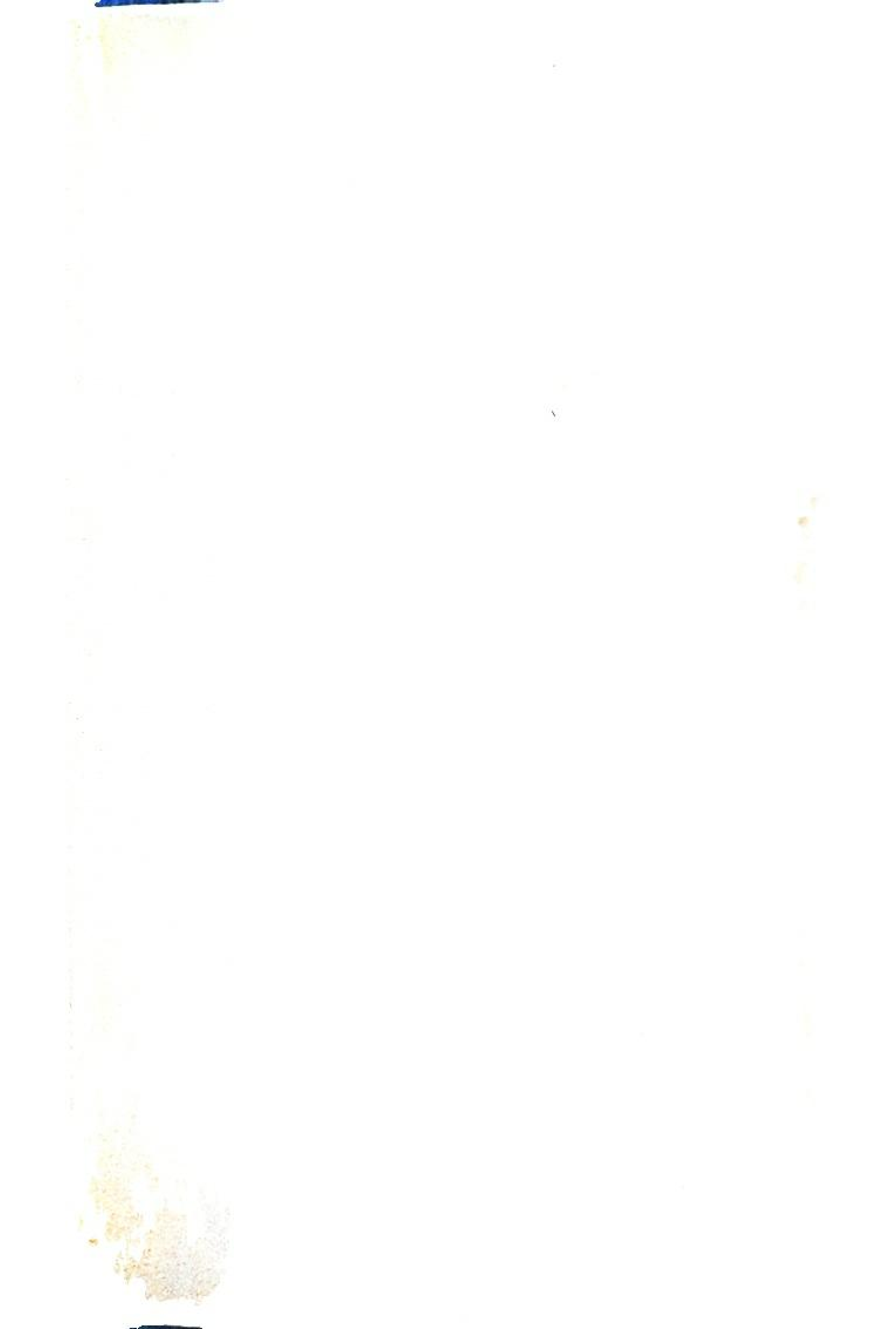
١٥ – اول امبراطوريــة عربية تؤســس في وادى الرافدين – الدولة الاكدية (٢٣٥٠ – ٢١٥٩ ق ٠ م ٠)

١٦ – المملكة البابلية الاولى (١٨٩٤ – ١٥٩٤ ق ٠ م ٠)

١٧ – الامبراطورية الاشورية (١٥٩٥ – ٦١٢ ق ٠ م ٠)

١٨ – المملكة البابلية الثانية او الدولة الكلدانية (٦٢٦ – ٥٣٥ ق ٠ م ٠)

١٩ – حضارة وادى الرافدين – حضـارة سـامية ام حضارة سومرية ؟



حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور

الخلاصة

١ ـ ان حضارة العرب القديمة مرت بثلاث مراحل في خلال تطورها عبر التاريخ ، المرحلة الاولى وهي اقدمها تبدأ في حوالي سنة ٤٠,٠٠٠ قبل الميلاد وتنتهي في حوالي سنة ١٨٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب . ففي هذه الفترة التي دامت حوالي عشرين الف سنة (الدورة الجليدية الرابعة) كانت اوربا مغطاة بالثلوج في حين كانت الجزيرة العربية تتمتع بجو معتدل رطب تكثر فيه الامطار في كل المواسم شتاءا وصيفا مما ساعد على نمو الغابات الكثيفة في المنطقة تحولت فيما بعد عصر الجفاف نتيجة للضغط الى طبقات نفطية ، كما ساعدت هذه الظروف الملائمة الى تكوين حضارة نهرية لا تقل شانا عن حضارة وادي النيل وحضارة وادي الرافدين على الرغم من امكاناتها المحدودة آنذاك ، اذ كانت الاودية الحالية

انهرا جارية تبعث عناصر الحياة وتنشر الخير والبركة في البلاد ، وكان هناك نهران كبيران يخترقان جزيرة العرب من اقصاها الى اقصاها تقوم عليهما الزراعة التي تعتمد على الري الدائم • لذلك فلا سامية ولا جاهلية ولكن هناك عروبة وحضارة عاشتا فيجزيرة العرب منذ ان عرف الانسان القومية والتمدن قبل عشرين الف سنة • وفي هذه الفترة انتقل سكان الجزيرة العربية من طور القنص والصيد الى طور الفلاحة والزراعة التي تعتمد على الري للحصول على قوتهم اليومي • والمعلوم ان ممارسة الري في الزراعة هو الذى خلق الحضارة القديمة فالري والحضارة صنوان لا يفترقان ، فحيثما وجدت الحضارة وظهر التمدن ازدهرت معهما الزراعة التي تعتمد على الري ، وحيثما وجد نظام الري ازدهرت معه الحضارة ، والماء مصدر الحياة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (قرآن كريم) • فما قامت حضارة ذات شأن في تاريخ الانسان القديم الا كانت تنظيمات الري ومشاريعها الزراعية تحتضن الحضارة فتسير معها جنبا الى جنب في مسيرة تطورها وتقدمها •

وقد يقال ان اقتصار الجهود على الزراعة فينشؤ الحضارات القديمة واغفال الصناعة هما من علامات التخلف ، ولكن نسي اصحاب هذه النظرية انظهور الزراعة الاصطناعية في نشوء الحضارات القديمة يعد اسهاما مهما في تقدم الحضارة البشرية ، لان الانسان

القديم استطاع بدافع الغريزة ان يكتشف اول مرة البذور الوحشية في الطبيعة ويعيد زراعتها ويتعهدها بالرعاية بتامين اروائها ونقل المياه اليها حتى انبتت نباتا حسنا يختلف عن الثمر الوحشي ، ومن هنا تغيرت نظرة الانسان القديم للطبيعة ، فصار يزرع كميات تزيد عن حاجته المعاشية ثم صار يخزن الغلة ويحافظ عليها باعتبارها مصدر ثروة واخذ بعد ذلك يتاجر بالغلة الفائضة عن حاجته المعاشية لشراء ما يحتاجه من المؤون بطريق المقايضة ، ومن هنا نشأت اول مرة في التاريخ فكرة التجارة ومعها الاضطلاع بمهمة نقل البضائع التجارية من مكان الى اخر . ويدلنا التاريخ ان الحروب والفتوحات بدأت اول ما بدأت للاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التي اصبحت اهم مصدر للقوة والثروة حتى صار الملوك يتنافسون فيما بينهم في انشاء المشاريع الزراعية التي تعتمد على الري .

وهناك دلائل تشير الى ان الماشية بما فيها الجاموس والمعز والضأن دجنت واستخدمت اقتصاديا في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل ان تدجن في مصر والعراق ، كما ان القمح والشعير كان ينبت فيها بشكل طبيعي دون ان يزرع .

لذلك فقد اجمع العلماء على ان شبه جزيرة العرب هي مهد الحضارة العربية ، لان قرائن عديدة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح الى ان جزيرة العرب هي مهد الحضارات السامية ووطن الساميين الاوائل . فالاكديون والعموريون

والكنعانيون والفينيقيون والاراميون والاشوريون والعمونيون والادوميون والنبطيون والعرب والصابئة والاحباش يعدون من الاقوام السامية التي تشترك في اسرة اللهجات السامية • وقد اعتبر البعض المصريين من الاقوام السامية في الاصل وان وطنهم الاصلي انما هوجزيرة العرب هاجروا منها واختلطوا هناك بزنوج وادي النيل فنتج منهم ومن السكان الاصليين المصريين كما نعرفهم في التاريخ •

وقد استند العلماء في دعم النظرية القائلة بان الجزيرة هي مهد الحضارة السامية العربية الى البيانات التالية :

١ ـ ان البداوة عادة تسبق حياة التمدن والحضارة ، اذ لا يعقل أن ينتقل سكنة الريف والمزارعون من حياة التمدن الى البداوة بل يحدث العكس • ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في اطوارها الاولى حياة بدوية فلابد ان يكون وطنها وطنا صحراويا • وجزيرة العرب هي اصلح المواقع لكي تكون ذلك الوطن السامي الاول •

٢ ـ ان معظم المدن والقرى التى اسست في مناطق الهلال الخصيب على اطراف الجزيرة العربية هي عناصر بدوية وطنها الاصلي جزيرة العرب استقرت فيها واخذت تمارس الزراعة والتجارة ، ولا يوجد هناك محل غير جزيرة العرب بامكانه ان يحتوى هذه العناصر ، لذلك وبالقياس تكون الجزيرة العربية هي التى غذت الشرق الادنى بالساميين على موجات متتالية •

٣ ـ ان اللغة العربية (لغة جزيرة العـرب الام) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الاصلية اكثر من اية لهجة من اللهجات السامية الاخرى لان بلاد العرب لم تخضع يوما من الايام للاجنبي وسلطانه •

ان تسمية « سامية اطلقت على الشعوب التي زعم انهـا انحدرت من صلب سام بن نوح ، وكان اول من اطلقها بهذا المعنى العالم النمساوى « شلوتزر » عام ١٧٨١ للميلاد فشاعت منذ ذلك الحين واصبحت عند علماء الغرب علماً لهذه المجموعة من الشعوب وسرت الى المؤرخين العرب وباحثيهم بطريق الاقتباس والتقليد ، على الرغم من ان هذه التسمية لا تستند الى واقع تاريخي او الى اسس علمية عنصرية صحيحة او وجهـة نظر لغوية • لذلك يرى بعض الاختصاصيين وجوب تسمية هذه الاقوام بالاقوام العربية لتشمل كل من سكن الجزيرة العربية وخرج منها • لان العرب والساميين شيء واحد •

ومعلوماتنا عن هذا الدور الحضارى القديم في تاريخ حياة العرب في جزيرتهم محدودة جدا لا نعلم عنها الا النزر اليسير ، لان عصر التدوين لم يكن قد ظهر بعد ، ولكن الشيء الذى نعرفه جيدا هو ان سكان الجزيرة كيفوا أنفسـهم في هـذه الظروف الملائمـة مناخياً واسـتفادوا مـن هـذه المعطيات والامكانات واستخدموها في تكوين وتنمية اقدم مرحلة مـن مراحل حضارة العرب القديمة وذلك بفضل ما اكتسبوه من خبرة هندسـية في

الاعمال الزراعية التي تعتمد على الري ، والا ماكان بامكانهم لولا هذه الخبرة ان ينشئوا اقدم واعظم الامبراطوريات فيمستوطناتهم الجديدة التي استقروا فيها بعد هجرتهم من الجزيرة اثر حدوث الجفاف في المنطقة ، وبوقت قصير نسبيا ، كما سنرى في المرحلة الثانية من مراحل تطور حضارة العرب . وقبل البحث في هـذه المرحلة يحسن بنا عرض شرح مقتضب للعوامل الاقليمية والبشرية والدور الذي لعبته في احداث تغيرات مناخية عبر العصور أدت الى ازدهار مناطق واضمحلال مناطق أخرى وبالتالي انتقال اقوام من مناطقهم وهجرتهم الى مستوطنات جديدة ،وهذه هي الدورات الجليدية كما ياتي :

لقد توصل العلماء الجيولوجيون الى ان سطح الارض قد تعرض في الماضي البعيد لعدة تغيرات مناخية في مختلف العصور، فقد مر باربع دورات جليدية تفصل بينها دورات او فترات دفيئة ذات مناخ جاف لايختلف عما هو سائد اليوم . وقد ميزوا الدورة الجليدية الاولى بزحف جليدي من الشمال الى الجنوب غطى معظم سطح الارض الشمالي ، كذلك بقية المناطق من نصف الكرة الشمالي من كل من اسيا واميريكا . اما منطقة جنوب شرقي اسيا بما فيها بلاد العرب والعراق وسورية فقد تميزت في هذه الدورة الجليدية بامطار غزيرة دائمة السقوط احالت أوديتها انهارا جارية ومستنقعات وبحيرات . كما ميزوا الدورات الدفيئة بين الدورات الجليدية بتراجع الجليد الى الشمال بحيث تسود فيها حرارة

مرتفعة وجفاف يجعل اكثر المناطق في جنوب شرقي اسيا صحارى واراضي قاحلة غير قابلة للاستيطان •

وقد تمكن علماء الجيولوجيا من تحديد اربع دورات جليدية تفصل بينها ثلاث دورات دفيئة وقد اطلقوا عليها الاسماء الاربعة التالية :

دورة جليد جنز ((Gunz) ٦٠٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

دورة جليد مندل ((Mindel) ٤٣٠٫٠٠٠ — ٣٧٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

الدورة الدفيئة الاولى ٣٧٠٫٠٠٠ — ١٣٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

دورة جليد رس ((Riss)) ١٣٠٫٠٠٠ — ١٠٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

الدورة الدفيئة الثانية ١٠٠٫٠٠٠ — ٤٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

دورة جليد فرم ((Wûrm) ٤٠٫٠٠٠ — ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد

الدورة الدفيئة الثالثة ١٨٫٠٠٠ — ٠٠٠ ؟

هذا مع العلم ان التحول من الدورات الجليدية الى الدورات الدفيئة والتحول العكسي كانا بطيئين على شكل تدريجي ، اذ كان الجليد يستغرق زمنا طويلا في حركته نحو الجنوب او تراجعه باتجاه الشمال •

يتضح مما تقدم ان العالم يجتاز اليوم الدورة الدفيئة الثالثة التي بدأت في اعقاب دورة جليد فرم منذ سنة ١٨٠٠٠ قبل الميلاد، فبدخول الدورة الدفيئة الثالثة عادت اوربا الى حالتها الطبيعية التي كانت عليه في الدورة الدفيئة السابقة وانقلبت ارض الجزيرة الى صحارى • ويرى توينبي وجايلد ان عامل الجفاف الذي حل في اعقاب العصر الجليدي الاخير كان حافزا في قيام الهجرات المتواصلة من جزيرة العرب وبالتالي نشوء الحضارات المهمة في وادي النيل ووادي الرافدين ، ويعد تونبي هذا الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الاخذة في الجفاف ، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة الى طور انتاج القوت أي الزراعة وتدجين الحيوان والى طور الحضارة أيضا •

وهذا ما ينطبق ايضا على النظرية القائلة بان البداوة اساس الحضارة •

٢ ـ هذا ما يتعلق بالمرحلة الاولى من مراحل حضارة العرب القديمة ، فقد اوضحنا فيها كيف ان جزيرة العرب كانت في العصر الجليدي الاخير الذى دام حوالي عشرين الف سنة تتمتع بجو رطب تكثر فيه الامطار وكانت اوديتها الحالية انهرا جارية ، فكون سكان الجزيرة في هذه الفترة أقدم حضارة نهرية عرفها تاريخ البشرية تعتمد على الزراعة والري ، الا ان هذا الازدهار لم يدم ، فبانتهاء الدورة الجليدية الاخيرة حلت محلها الدورة

الدفيئة التي يجتازها العالم اليوم وهي المتسمة بالجفاف وحرارة المناخ وانحباس الامطار واندراس الانهر . فاضطر الانسان والحيوان الى الهجرة الى اماكن ذات موارد مائية دائمة ، فكان ان توجه السكان الى شمالي الجزيرة ومن هناك توزعوا على أطراف الهلال الخصيب المجاورة للجزيرة في موجات متتالية ، فمنهم من توجه شرقا نحو بلاد الرافدين وبصورة خاصة نحو نهر الفرات ، ومنهم من استقر في فلسطين وفي سورية وفي لبنان ، وهناك من توجه غربا نحو طور سيناء واطراف وادي النيل الاسفل الشرقي . فهجروا انهرهم المندرسة واستقروا على ضفاف الانهر في الهلال الخصيب وبخاصة في بلاد الرافدين على ضفاف نهر الفرات المجاورة للبادية ، فنقلوا معهم الى عالمهم الجديد الحضارة التي كونوها في موطنهم الاصلي وهي خبرتهم الهندسية في الري والزراعة واستغلوا الامكانات التي وفرتها لهم البيئة النهرية الجديدة في تكوين حضارتهم من جديد في مستقراتهم الجديدة وتأسيس الامبراطوريات العظيمة التي استطاعت ان تفرض سلطانها على جميع انحاء الشرقين الادنى والاوسط ، كما استطاعوا ان يواصلوا نشاطهم الحضاري .

ويرى الخبراء الاختصاصيون في شؤون البلاد العربية ان الهجرة من جزيرة العرب تمت في الاصل من منطقة جنوبي الجزيرة ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب الى الشمال ثم توزعوا على اطراف الهلال الخصيب في فلسطين وفي سورية وفي مصر وفي العراق . وبهذا يكون هؤلاء المهاجرون قد دخلوا

العراق من الجهة الشمالية الغربيـة بعد ان انتقلوا الى شمالي الجزيرة • اما سبب اختيار المهاجرين المنطقة الجنوبية من الجزيرة من دون بقية المناطق هو ان جنوبي الجزيرة كانت ارقى مناطق الجزيرة تمدنا واكثرها كثافة •

وفي هذه المرحلة الثانية من مراحل حضارة العرب استطاعت القبائل العربيـة النازحة من جزيرة العـرب ، بفضل الحضارة والخبرة في شؤون الري والزراعة اللتين اكتسبتهما في وطنهـا الاصلي في خلال فترة الازدهار الذي شهدته بلاد الشرق الادنى في العصر الجليدى الاخير ، من تاسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة ، أي الكنعانية والعمورية والبابلية والاشورية والارامية الكلدانية ، فاسست هذه القبائل في مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة (في الفترة الممتدة بين منتصف الالف الثالثـة والقـرن السادس قبل الميـلاد) اقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم في تاريـخ البشرية ، اى الامبراطوريات الساميات الاربع :

الاكدية ، والبابلية ، والاشورية ، والكلدانية الارامية •

يتضح مما تقدم ان الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب وانتشرت في مختلف الهلال الخصيب في هذه المرحلـة الثانية من تطور الحضارة العربية كانت من اهم العوامل في تقدم الكيان الحضارى في الشرق الادنى والسـير به نحو التطور في مختلف الميادين : الزراعية ، والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية،

والاجتماعية والثقافية ، والدينية ـ ذلك الكيان الذى انبعثت منه اقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه التاريخ ، فالجزيرة العربية اذن هي بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بابنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى بحكم سنة تنازع البقاء لايجاد حياة افضل فهي والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية في الهلال الخصيب •

وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية (الام) وابناءها في بلاد المهجر (وادي الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين الى مصر السفلى) ، وهو عالم متصل مفتوح السبل لاهله ، مرتبط بعضه ببعض بوشائج الاصل السامي العربي ، قائم بذاته ، يتكلم أهله لغة واحدة ، هي اللغة العربية الام : منهم اهل السواحل خبروا البحار ، ومنهم أهل البوادي (اهل الوبر) احتضنوا الصحارى ، ومنهم اهل المدن والقرى (اهل المدر) احترفوا الزراعة والتجارة، ومنهم الرعاة اصحاب المواشي فقد صهرتهم الوحدة الجغرافية في بوتقة المصير الواحد المشترك ، فتعاونوا على الرغم من اختلاف نزعاتهم ، على وضع اسس الحضارة السامية العربية الكبرى •

وقد شمل هذا العالم الجديد حضارة ساحل البحر الاحمر والخليج العربي وخليج عمان من الشرق ، وبحر العرب وخليج عدن من الجنوب ، والبحر الاحمر والبحر المتوسط من الغرب ،

وجبال طوروس من الشمال ، فسيطر هذا العالم بجماله على طرق المواصلات الصحراوية ، كما سيطر بسفنه على طرق المواصلات البحرية • وكان كل ذلك قبل ان يشهد الشرق الادنى غزوات الاقوام الارية غير الساميةوكان قد تجمع معظم المهاجرين اول الامر على ضفاف نهر الفرات الغربيـة المجاورة للبادية (باديـة الشام) واسسوا اولى مستوطناتهم في سورية وصاروا يعرفون هناك بالعموريين فاقاموا في سورية مملكة واسعة اطلق عليهـا البابليون تسمية «عمورو» كما اطلقوها على البحر المتوسط فقالوا « بحر عمورو العظيم » • واتخذ العموريون مدينـة « ماري » عاصمة لهم ، وهي تقع خرائبها اليوم على الضفة الغربيـة لنهـر الفرات على بعد حوالي ١٥ كيلو مترا الى الشـمال مـن بلدة البوكمال • ويشاهد اليوم مقابل بلدة ماري على الجانب الشرقي لنهر الفرات تل اثري يسمى « تل باغوز » يرجع تاريخه الى الالف السادسة قبل الميلاد . وتمثل خرائب هـذا التل بقايا احـد اقدم المستوطنات التي اقامها العموريون على ضفاف الفرات بعـد نزوحهم من شبه جزيرة العرب • وكانت هذه المستعمرة تمارس الزراعة على الري مستمدة مياه الارواء من الضفة اليسرى لنهر الخابور • وتوجد اثار سد قديم على نهر الخابور في نقطة عـلى بعد خمسة عشر كيلومترا شمالي قرقيسيا يدعى « السكير » ، أي تصغير السد ، يتفرع من امامه نهر قديم يدعى « نهر دورين » يمتد بموازاة نهر الفرات مسافة ١١٢ كيلومترا منتهيا عند « تل باغوز » ثم يصب في الفرات . هذا مايدل على ان الزراعة والري كانت تمارس

في هذه المنطقة الواقعة بين الجانب الايسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ اقدم الازمنة .

ويبدو ان الجماعات التى استقرت في سورية قد ازداد عددها بعد مرور مدة من الزمن نتيجة لنزوح جماعات اخرى اليها بالاضافة الى تكاثر عدد النازحين الاصليين ، هذا عدا تقلص مساحة الاراضي التي كانت تسقى سيحا نتيجة هبوط مستوى مياه نهر الفرات في هذه المنطقة ، فانتقلت جنوبا على طول نهر الفرات حتى استقرت في شمالي المنطقة السومرية في السهل الخصيب الممتد بين نهرى دجلة والفرات حيث أسست مستوطناتها على ضفتي مجرى الفرات القديم غربي وجنوب مدينة بغداد الحالية ، حيث تقع حاليا شبكة جداول الصقلاوية وابي غريب واليوسفية واللطيفية . ولم تكن هذه الجماعات عندما اسست مستوطناتها في هذه المنطقة الخصيبة يخطر في بالها ان قومها سيصبحون بناة اعظم واقدم امبراطورية سامية مما عرفه تاريخ الانسانية ، اي الامبراطورية الأكدية التي اسسها سرجون في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي سميت بالأكدية نسبة الى عاصمته اكد التي اسسها . ولا غرابة ان تصبح هذه البقعة مركزاً لامبراطورية عظيمة ، فكما تؤلف اليوم قلب العراق النابض بمشاريع الري العديدة والمزارع المتشابكة ، كذلك كانت في العصر الأكدى السامي المحور الذي تدور عليه أهم مشاريع الري في دلتا الرافدين واخصب مزارعها . وهكذا استقرت الحضارة

السامية في العراق فازدهرت فيـه سلسـلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا رئيسا في تقدم الحضارة الانسانية •

لقد ازدهرت الحضارة السامية أول مرة في مرحلتها الثانية على يد الاكديين في وادي الرافدين وعاشت دولتهم فيه حوالي مائتي سـنة (٢٣٥٠ ــ ٢١٥٩ ق• م•) ، ثم خفتت مدة من الزمـن ولكنها لم تلبث حتى بعثت من جديد على يد العموريين والبابليين بعد حوالي خمسة قرون في هيئـة المملكة البابليـة الأولى التي عاشت حضارتها حوالي ثلاثة قرون بين سنة ١٨٩٤ و ١٥٩٥ قبل الميلاد • ثم اعتراها الوهن والذبول ، ولكنها لم يكد ينتهي دورها حتى ظهرت الدولة الآشورية على المسرح التي امتدت حضارتها حوالي الف سنة بين سـنة ١٥٩٥ وسـنة ٦١٢ ق • م ، ثم زالت الدولة الآشورية لتخلفها الدولة البابليـة عندما كون الاراميون الدولة الكلدانية التي عاشت حضارتها حوالي قرن واحد بين سنة ٦٢٦ وسنة ٥٣٩ قبل الميلاد • ثم بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجـزر كونت في خلالها دولا عربيـة كدولـة الغساسنة في سورية والمناذرة في العراق والانباط والتدمريين وغيرها من الامارات العربية كامارة كندة وامارة الحضر وامارة الرها وامارة حمص وسنجار وغيرها في اثر الضعف الذي حل بالسلوقيين حتى ظهر الاسلام فانبعثت الحضارة العربية من جديد على مستوى اوسع واعم ، وعادت فانبعثت من منبعها الاصلي (جزيرة العرب) واسسـت دولة عظمى فاقت جميع الدول التي سـبقتها ، بحيث

شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوربة) ، وفي القارة الاخيرة عاشت الحضارة العربية في الاندلس حوالي ٨٠٠ سنة (٧١٢ ــ ١٤٩٢م) • وقد حاولت اوربا المسيحية قهر الحضارة العربية في مهدها وابادتها ، ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالي ١٥٠ سنة •

وكانت كل هذه الحضارات التي غذتها جزيرة العرب بالطاقة البشرية عربية الأصل لغتها اللغة العربية (الام) « وكانت الارض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة » (تك ١١ : ١) • ثم تفرع من هذه اللغة عدة فروع انطبع كل منها بطابع المكان والبيئة الجديدة على مقتضى ناموس الارتقاء • وهكذا تطورت اللغة الاصلية بتطور لهجات الاقوام الناطقة بها في مستوطناتها الجديدة حتى اصبحت هذه اللهجات مغايرة لاصلها ، ولكنها مهما تباعدت بالفاظهـا وتشعبت تراكيبها فانها بقيت محتفظة بالخصائص التي تتميز بها لانها ترجع الى أصل واحد مشترك • وقد سمى العلماء هـذه اللهجات باللهجات السامية او اللغات السامية نسبة الى سام بن نوح تمييزا لها عن اللغات الآريـة والطورانية • وتتميز اللغـة السامية في كونها مؤلفة من أصول ثلاثية الأحـرف ثابتة وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وعلى هـذه الحركات يتوقف نوع الدلالة • ولما كان العلماء صاروا يعتمدون على اصل اللغات في تعيين صلات الاقوام بعضها ببعض ، فقد قسم بعض علماء الساميات اللغات السامية الى اربع مجموعات ، هـي المجموعة السامية الشرقية ، ومنها الاكدية والبابلية والآشورية ،

والمجموعة الشمالية ، ومنها العمورية والارامية ، والمجموعة الغربية ،ومنها الكنعانية والفينيقية والموابية والعبرانية ،والمجموعة الجنوبية ، ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والامهرية •

ويرجّح عدد من الخبراء ان اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية حاليا هي اقرب جميع اللهجات الى اللغة العربية الاصلية التي كان يتكلم بها ابناء الجزيرة قبل ان تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة ، وذلك على اساس ان هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون ان يختلطوا بالأقوام الاخرى الغريبة في لغاتها وقومياتها •

يتضح مما تقدم ان الحضارة التي سميت بالسامية خطأ انما هي حضارة عربية منبعها ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب لا غيرها • وقد ازدهرت هذه الحضارة في وادي الرافدين فاستقرت فيه اكثر من الفي سنة وهي قائمة على الزراعة تندثر حينا ثم تنبعث من جديد حينا آخر عدة مرات، وكان كل ذلك يتم في المكان نفسه الذي اسست فيه أول مرة وهو وادي الرافدين مما اضفى عليها صفة الاستمرارية والاصالة بخلاف الحضارة المصرية القديمة التي وقفت عند حدها وانتهت بانتهاء عهدها القديم ، وينطبق عليها ايضا ما حل بمصير الحضارة السومرية التي انقرضت اثر تغلب الساميين على زمام الحكم في وادي الرافدين • وهذا ما يبرهن على ان حضارة الامة العربية أم الحضارات القديمة وهي من الامم

الحيـة التي لا تموت ولابد ان تعود الى الازدهار كما حدث في الماضي .

وقد اعتاد الباحثون واكثرهم من الاجانب مثل بريستد وغيره ان يعتبروا الحضارة السومرية التي نشأت في جنوبي العراق أقدم حضارة وجدت في العراق ، بل هي حضارة وادي الرافدين الاساسية ، واخذوا يركزون اهتماماتهم بالحضـارة السـومرية مهملين الحضارة السامية التي هي اساس حضارة وادي الرافدين وقد اندفعوا في هذا الاتجاه لان الحضارة السومرية حضارة غير سامية . والحقيقة هي ان الحضارة السومرية الرئيسة ظهـرت متأخرة أي في عصر الانبعاث السومرى (المملكة السومرية الثانية) (٢١١٦ ـ ٢٠٠٣ ق . م .) وهذه لم تزدهر وتبلغ أوج تقدمها الا بعد أن اتصل السومريون (سـكان الأهوار) بالسـاميين (سكان الريف) وأخذوا يمارسون مع الساميين الزراعة التـي تعتمد على مشاريع الري فاقتبسوا منهم الخبرة الفنية التي تتطلبها هذه المشاريع وانتقلوا من ممارسة الزراعة البطائحية المقتصـرة على تجفيف الأهوار الى طريقة الزراعة على جداول الري السيحية التي كان يمارسها السـاميون في السـهول ، أي ان الحضارة السومرية الرئيسة لم تكتمل في تطـورها الا بعـد أن واكب السومريون حياة الساميين وبعد ان عاش السـومريون حوالي مائتي سنة تحت حكم السـاميين (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق . م) ، فكونوا نتيجة اتصالهم بالساميين المملكة السومرية الثانية (٢١١٦ ـ ٢٠٠٣ ق . م .) التي ظهرت فيها سلالة اور الثالثة (٢١١١ ـ

٢٠٠٣ ق ٠ م ٠) واشهر ملوكها الملك « اورنمو » الدي حكم في أور سبعة عشر عاماً بين سنة ٢١١١ وسنة ٢٠٩٤ قبل الميلاد ، وسلالة لجش الثانية (٢٢٨٠ ــ ٢١٠٩ ق٠ م٠) وأشهر ملوكها الملك كوديا الذى حكم عشرين سنة بين سنة ٢١٤٤ وسنة ٢١٢٤ قبل الميلاد ٠ وهذه الحضارة لم تدم أكثر من ١١٣ سنة عاش السومريون فيها مع الساميين ، ثم كانت نهاية السومريين وانقراضهم سنة ٢٠٠٣ ق ٠ م ٠ بعد تغلب الساميين عليهم ٠

وأهم ما تركه العرب في هذه المرحلة الثانية من تطور الحضارة العربية القديمة بعد هجرتهم من جزيرة العرب اختراع الحروف الهجائية (الابجدية) وهي من أعظم المخترعات التي أوجدها العقل البشرى ، ثم تاتي بعدها الناحية الروحية في الدعوة لعقيدة التوحيد والاهتداء الى عبادة الاله الواحد ٠ والفضل في كلا الحادثين كما ثبت تاريخيا يرجع الى الحضارة العربية القديمة التي نمت وازدهرت على يد الاقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في الهلال الخصيب ٠ ومن المتفق عليه اذ الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب واستقروا في فلسطين كانوا أول من استعمل الحروف الأبجدية في الكتابة ، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء ويعود تاريخها الى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد ، ومن الكنعانيين انتقلت الى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة ٨٥٠ و ٧٥٠ قبل الميلاد الى الاغريقية واللاتينية وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي الأصلي (الالف باء) ٠ وبانتشار الابجدية بطل استعمال الكتابة

المسمارية ذات المقاطع التي كانت شائعة آنذاك وحلت محلهـــا الابجدية الكنعانية ٠

٣ ـ اما المرحلة الثالثة من مراحل حضارة العرب القديمة، فعلى الرغم من نزوح سكان جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حل بها واندثار حضارتهم القديمة التي كانت قد ازدهرت في خـلال فترة الدورة الجليدية الرابعة والاخيرة ، فالذين بقوا في أرضهم بعد الجفاف تركوا من مخلفات حضارتهم القديمـة في جنـوبي الجزيرة بعد ان هاجر معظمهم منها واســوا ممالك عربية ذات حضارة راقية هي حضارة اليمن المشـهورة ٠ وهذه الحضـارة العربية في مرحلتها الثالثـة لعبت دورا مهما في دوام واسـتمرار حضارة جزيرة العرب القديمة ٠

وفي دول جنوبي الجزيرة هذه يقول الدكتور احمد فخرى في كتابه « دراسات في تاريخ الشرق القديم » (ص١٢٧ ـ ١٢٨) : « فقد كانت هناك عدة دويلات يعاصر بعضها البعض في جنوبي بلاد العرب وبخاصة في البلاد التى اطلق عليها فيما بعد اسم (بلاد العرب السعيدة) ، وكان اهم هذه الدويلات سبأ ومعين وقتبان وحضرموت ٠ ومنذ زمن واحد من الزمان كانت معلومات عـن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام تعتمد فقط على ما جاء في التوراة وما كتبه كتاب اليونان والرومان عنهم ٠ وكان هذا كله شيئا قليلا لايشفي غليل العلماء حتى لو اضفنا اليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الاسلام ، اوما نستطيع ان نحصل عليه من معلومات

اذا درسنا الشعر الجاهلي . ولكن الامر اخذ يتغير منـــذ بدأت النقوش اليمنية تصل الى ايدى العلماء واصبح عددها الان اكثر من ٥٠٠٠ نقش فيها معلومات كثيرة عن ممالك الجزيرة العربية في الجنوب ، كما وصل ايضا الى ايدى العلماء عشرات الالاف من النقوش القصيرة على واجهات الصخور في شمالي بلاد العرب من ثمودية ومعينية ولحيانية وغيرها ، جعلتنا نعرف الشيء الكثير عن شعوب الشمال .

ويضيف الدكتور فخرى الى ذلك قوله عن اهل اليمن : فان هؤلاء كانوا التجار الذين اعتادوا على نقل البخور من بلادهم الى اسواق البحر الابيض المتوسط بل انهم كانوا في الحقيقة همزة الوصل بين افريقيا والهند من ناحية والعراق وسورية ومصر من ناحية اخرى ، اذ ان البخور كانت مادة اساسية للعبادة في جميع الديانات القديمة .

واهم المخلفات التي حافظ اهل اليمن عليها وقد بقيت معهم هي لغتهم القديمة المقدسة ، وهذا يفسر لنا القدســـية التي كانت للعربية الفصحى بين عرب الجاهلية ، كما يفسر لنا اجماع علماء النحو المقارن للغات السامية ، من امثال بروكلمان ووبليم رايت وادوارد دورم ودافيد يلين ، على ان اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع اقدم صورة حية من اللغة السامية الام ، واقرب هذه الصور الى تلك اللغة التى تفرعت منها بقية اللغات السامية .
مما يؤيد ان الجماعات التى نزحت من جنوبي الجزيرة العربية اثر

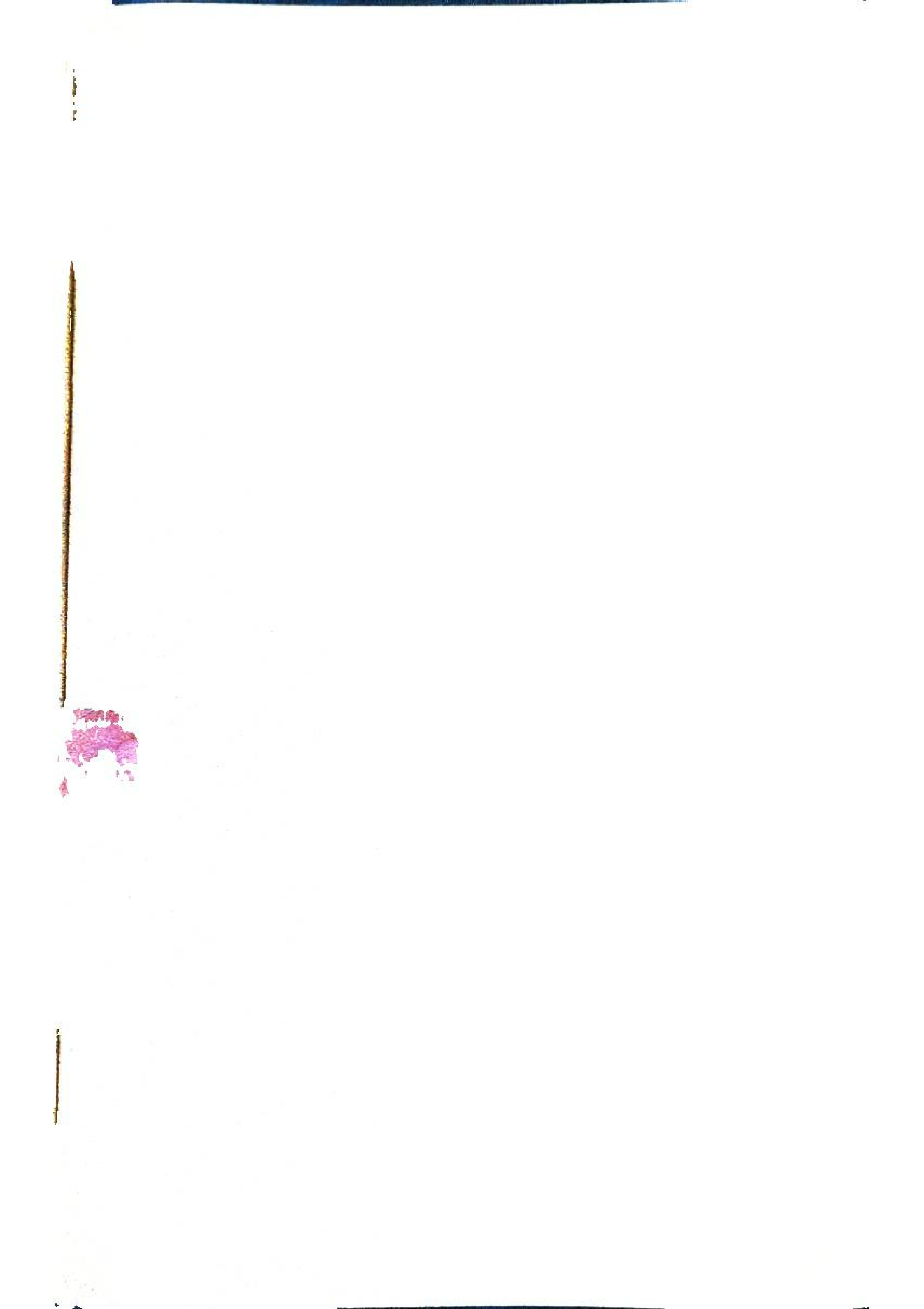
الجفاف الذى حل ببلادهم كانوا مزودين بتراث حضارى عربي قديم ورثوه عن أجدادهم وقد جاؤا به معهم من مناطق سكناهم، وهذا التراث هو الخبرة الهندسية التي اكتسبوها من ممارسة الزراعة على مشاريع الري • ولما كانت الزراعة عماد الحضارات القديمة فهذا هو تفسير السر الكامن في مقدرة المهاجرين الجدد ان يؤسسوا في وادى الرافدين أعظم الامبراطوريات مما عرفه عالم ذلك الزمان في مدة تعد قصيرة نسبياً • يؤيد ذلك العقاد اذ يقول : « وتدل المعلومات التي جمعها الخبراء من مختلف انحاء جزيرة العرب على قدم حضارة العرب ، ومما يمكن ان يقال تاييدا لذلك ان الجماعات التي نزحت من جنوبي جزيرة العرب الى وادي النيل وحوض دجلة والفرات واستقرت فيهما قبل أكثر من أربعين أو خمسين قرناً قبل الميلاد كانت على شيء غير يسير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ووسائلها ، ومن المعقول انها كانت مزودة بها من منشئها الأول • وقد لاحظ الرحالة الالماني شوينفرت « ان القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشيه وجدت في حالتها لابدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستانس في مصر والعراق ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك •

ومما ساعد اهل اليمن على تكوين الممالك العربية واستمرار حضارة العرب القديمة استخدامهم مياه السيول بانشاء الاسداد والخزانات حتى بعد الجفاف ،وهذا مكنهم من استمرار ممارستهم الزراعة التي تعتمد على الرى الدائم ، ولما كانت أودية الجزيرة الحالية تؤلف انهاراً جارية في العصر الجليدى الأخير ، وذلك قبل

نزوح سكان الجزيرة الى الهلال الخصيب فقد كون اهل اليمن في هذه الفترة حضارة نهرية لاتقل تقدما عن حضارة وادى النيـل وحضارة وادى الرافدين ، اذ كانوا قد اكتسبوا خبرة في أعمال الري كانشاء السدود والخزانات والاستفادة منها في الزراعة التي تعتمد على الري . وما سد مأرب الذى كان قد اقامه قدماء أهل اليمن الا نموذج من هذه الاعمال التي لاتزال اثارها ماثلة للعيان. كما استفاد اليمنيون من موقع بلادهم الجغرافي . فاحتكروا نقل البضائع والسلع بين الهند والحبشة ومصر الى شواطىء جزيرة العرب فينقلها اليمنيون على قوافلهم الى مصر والشام والعراق ، كما احتكروا الملاحة في البحر الأحمر . وكان اليمنيون فوق ذلك أهم شعوب العالم المنتجة والمصدرة للبخور التي كانت تؤلف مادة ثمينة في تلك الازمان اذ كانت تقدم الى الملوك والى الالهة .

وختاما نخلص مما تقدم ان حضارة العـرب تميزت في كل الادوار التي مرت بها بالاستمرارية والديمومـة . فقد بدأت في جزيرة العرب قبل اكثر من عشرين الف سنة ثم توقف نشاطهـا موقتا بعد ان حل الجفاف في البـلاد ، ولكنها واصلت نشـاطها فكونت امبراطورياتها في وادى الرافدين ، ثم عادت فظهـرت في جزيرة العرب ايضا بظهور الامبراطورية العربية الاسلامية بعـد القرن السادس الميلادى ، وهي لم تزل حية لم تمت تمارس نشاطها الحضارى حتى هذا اليوم . لذلك فحضارة العرب هي الفريدة من نوعها في العالم من حيث استمرارها وديمومتها آلاف السنين دون ان تندثر في حين ان عشرات الحضارات ازدهرت ثم انقرضت

واختفت . وكما ازدهرت حضارة العرب ثم اختفت عدة مرات عبر التاريخ كذلك ستنبعث من جديد في المستقبل والتاريخ يعيد نفسه، ومن يدري فقد تحتل مكانة حضارة الغرب التي تسير في طريقها الى الانهيار كما يتنبأ العلماء .



١ ـ السامية والساميون

ان الدور البارز الذى لعبه الساميون في تقدم الحضارة بوجه عام وفي تطور الحضارة السومرية بوجه خاص يستلزم عرض نبذة عن اصل الساميين وموطنهم الاصلي :

ان تسمية « سامية » اطلقت على الشعوب التي زعم انها من صلب « سام بن نوح » الوارد ذكره في التوراة[1] وكان أول من أطلقها بهذا المعنى العالم النمساوى « شلوتزر » (Shlotzer) عام ١٧٨١ م . فشاع استعمالها منذ ذلك الحين واصبحت عند الباحثين علما لهذه المجموعة من الشعوب ، وسرت الى المؤرخين العرب وباحثيهم بطريق الاقتباس والتقليد .

وقد ذهب المعنيون بلغات الشرق الادنى الى ان هناك وجه شبه ظاهر بين البابلية والآشورية والاكدية والكنعانية الفينيقية والعربية والعبرية والارامية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وامثالها ، فهي بذلك تؤلف وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الاقوام ، فأطلق على الجنس المنبثق من هذه الوحدة الجنس السامي وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الشعوب اللغات السامية .

وقد اعترض العلماء المتخصصون بعلم اللغات على هذه التسمية لانها لا تستند الى واقع تاريخي او سند علمي او الى أسس عنصرية صحيحة او وجهة نظر لغوية ، اذ تعتبر اكثر ما تعتبر النسب والحدود الجغرافية والعلائق السياسية[٢] لذلك « ان الرأي الحديث اتجه الى البحث في هؤلاء الاقوام من الناحية اللغوية وليس من الناحية العرقية او الرسية والنسبية »[٣] .

ومن الواضح ان تسمية « سامية » لا مبرر لها سوى الرواية التوراتية والاصطلاح الشائع[٤] فكتبة التوراة مثلا حشروا في السامية شعوبا لا يعدها العلم الحديث من أسرة الساميين مثل العيلاميين واللوديين[٥] واقصوا جماعة كان ينبغي ادخالها في زمرة الساميين مثل الفينيقيين والكنعانيين والسبئيين فتعمّد مدونو التوراة اقصاءهم من الدوحة السامية لعداء اليهود الشديد لهم فعدوهم من الكوشيين كما ورد ذلك في العهد القديم[٦] وقد صب كتبة التوراة حقدهم على الكنعانيين فنعتوا كنعان بالملعون « وعبد العبيد يكون لاخوته وعبداليافت »[٧] . ويقول بروكلمان في ذلك « ان العبرانيين (اليهود) كانوا قد تعمدوا اقصاء الكنعانيين من جدول أبناء سام بسبب العداء الذى كان بينهم وبين الكنعانيين والذى يتمثل في قصص الحروب التي نشبت بين الطرفين ودونت اخبارها في اسفار التوراة ، فحملهم عداءوهم وحقدهم عليهم على التنصل منهم ، وعلى التبرؤ من الحاق نسبهم بشجرة انساب سام بن نوح وكذلك اعتبرت التوراة الحيثيين من ذرية كنعان »[٨] في حين انهم من الاقوام الهندو اوربية . ومثل ذلك اعتبرت العموريين من صلب

حام[٩] لذلك نجد ان التقليد التوراتي يحاول بخس الدور الذي لعبه الكنعانيون العرب في تقدم الحضارة الانسانية ، وقد سار على هذا المنوال الباحثون متأثرين بهذا التقليد ، فلم يبحثوا في الحضارة الكنعانية الا بصورة عرضية وعلى الهامش ، في حين ان الكنعانيين كان لهم اكبر دور في تطور الثقافة العالمية ، فهم مخترعو الحروف الابجدية قبل حوالي اربعة الاف سنة ، كما كانوا اول من دعا الى عقيدة التوحيد (وحدانية الاله وعبادة الاله الواحد) • كما سيتضح لنا ذلك في مطاوىء هذا البحث •

وتتميز اللغات السامية بخصائص مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات البشرية الأخرى في الامور التالية :

١ ــ ان اللغات السامية تتميز في تصريف الافعال وهي لا تتضمن الا صيغتين اثنتين ، احداهما تدل على تمام وقوع الحدث وهي التي تسمى بصيغة الفعل الماضي ، والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه وهي التي تسمى المضارع •

٢ ــ ترجع الغالبية الكبرى من المفردات في اللغات السامية الى اصل او جذر ذي ثلاثة حروف ساكنة ويشتق من هذا الاصل الثلاثي صيغا وابنية مختلفة كثيرة بتحوير حركات ذلك الاصل الثلاثي او باضافة زوائد الى اوله او وسطه أو آخره • وبهذه الوسيلة من الاشتقاقات صارت في اللغات السامية ثروة كبيرة من المفردات والمشتقات ، وكان هذا مصدر نمو وحيوية فيها •

٣ ـ ليس في اللغات السامية سوى جنسين هما المذكر والمؤنث.

٤ ـ وتتميز اللغات السامية بظاهرة غريبة في العلاقة العكسية بين العدد والمعدود من حيث التذكير والتأنيث من الثلاثة الى العشرة . وشمول ذلك الاعداد المركبة بشيء من التحوير على نحو ما هو معروف في اللغة العربية .

٥ ـ ويعتقد ان اقرب شبه بعائلة اللغات السامية هي عائلة اللغات الحامية .

٦ ـ وتندر في اللغات السامية ظاهرة التركيب في الكلمات اي دمج كلمة مع اخرى لتصبح كلمة واحدة على غرار الالصاق في اللغة السومرية[١٠] .

وقد قسم علماء الساميات اللغات السامية الى اربع مجموعات هي:

١ ـ المجموعة السامية الشرقية ، وتتألف بالدرجة الاولى من اللغات واللهجات الاكدية في العراق القديم ، وقد بدأ تدوينها بالخط المسماري منذ ٢٥٠٠ سنة ق . م . وتفرعت الاكدية منذ مطلع الالف الثانية ق . م . الى اللهجات الرئيسية البابلية والاشورية في حدود ٢٠٠٠ـ٦٠٠ق.م.

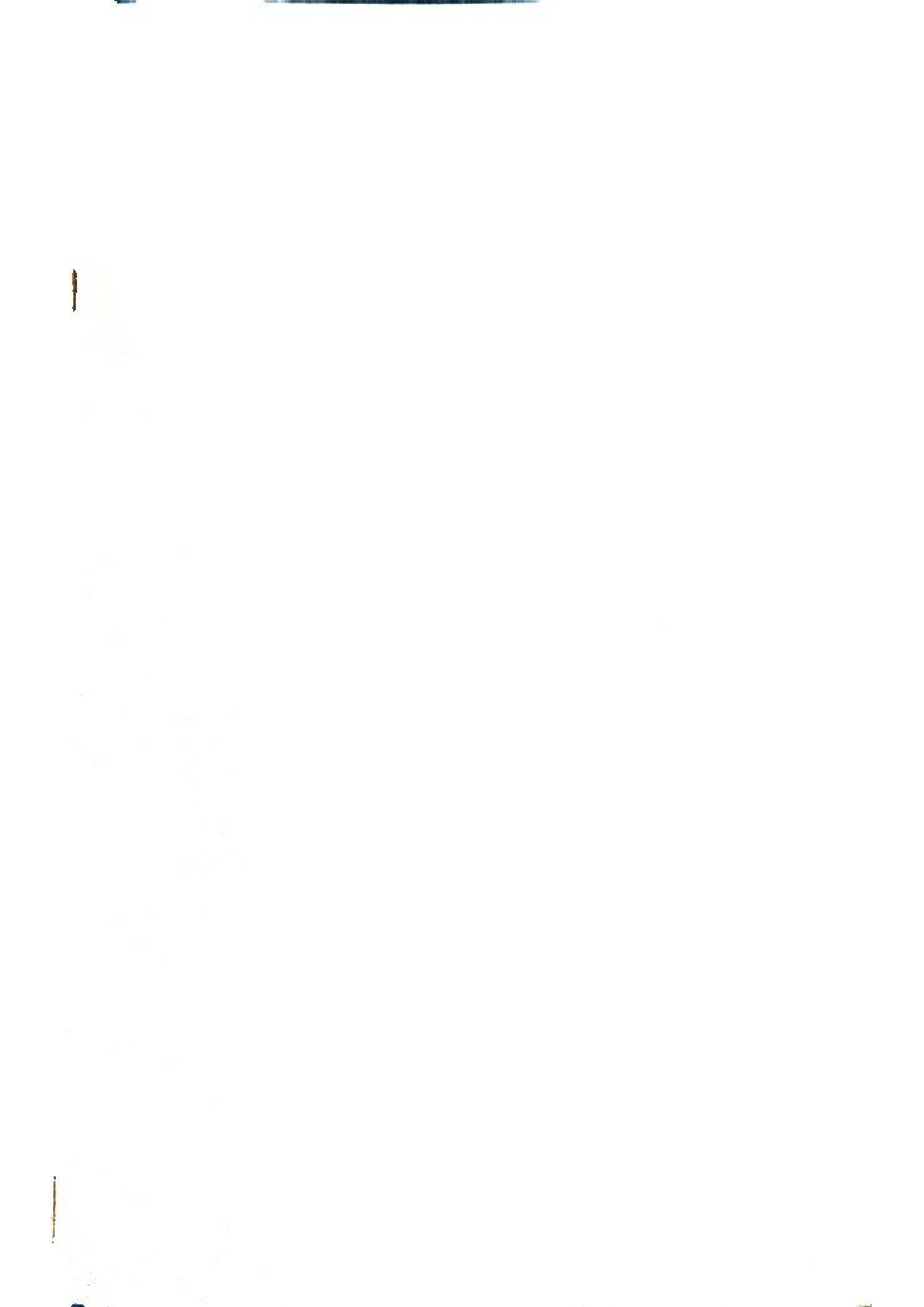
٢ ـ المجموعة الشمالية . ومنها العمورية والارامية .

٣ ـ المجموعة السامية الغربية ، وموطن هذه الكتلة في بلاد الشام بمفهوميها الجغرافي والتاريخي العام ، أي سورية

وفلسطين ولبنان وشرقي الاردن وتنقسم بدورها الى اللغات الكنعانية والارامية .

٤ ـ المجموعة السامية الجنوبية (الجنوبية الغربية) وهي لغات الجزيرة العربية واللغة الحبشية ، واللغة العربية الشمالية (الحجازية) التي تسود فروعها ولهجاتها المختلفة الان جميع الاقطار العربية ومنها اللغات العربية الجنوبية التاريخية مثل المعينيـة والسـبئية والحميريـة والقتبانيـة واللهجـات الحبشية .

وقد انتشرت اللغات السامية منذ أقدم العصور التاريخية في مناطق آسيا الغربية ، وهي ابتداءا من الشرق الى الغرب : بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين (أي بلاد الشام جميعها) وشبه الجزيرة العربية وفي السواحل المقابلة للاجزاء الجنوبية من الجزيرة ولا سيما بلاد الحبشة ، وانتقلت هذه المناطق الاصلية اما بالهجرة والاستيطان والفتوح الى وادي النيل وشمالي افريقيا وغيرها[١١] .



٢ ـ وطن الساميين الأول

وقد اختلف العلماء بعد اقرارهم بوجود الجنس السامي في تعيين المنطقة التي سكنها الساميون ، فذهب بعضهم الى ان أرض بابل كانت الموطن الأول للساميين ، وذهب آخرون الى أن جزيرة العرب ولاسيما نجد او منطقة جنوبي الجزيرة هي المهد الأول لابناء سام ومن هذا الوطن خرج الساميون الى الهلال الخصيب فطبعوه بالطابع السامي ومن هذا الهلال انتشروا الى أماكن أخرى . وذهب فريق آخر الى ان افريقيا وطن الساميين الأول لما لاحظه هذا الفريق من وجود صلة بين اللغات السامية والحامية . كما ذهب البعض الى ان الوطن الاصلي للساميين هو قفقاسية اذ كان البشر يتألف من ثلاثة اجناس اساسية هي : الجنس القفقاسي والجنس المغولي والجنس الزنجي . وذهب آخرون الى ان ارض العموريين هي الوطن الصالح لان تكون ارض الساميين . وقد ذهب نفر من القائلين بان العروض ولاسيما البحرين والسواحل المقابلة لها هي الوطن السامي القديم[١٢] . الا ان النظرية القائلة بان الجزيرة العربية هي مهد الساميين ومهد الحضارات السامية حازت تأييد اكثرية العلماء والباحثين والمؤرخين حتى اصبحت هي المقبولة والمعول عليها لديهم واصبح شبه اجماع على اقرارها.[١٣]

اما البينات التي استند اليها هؤلاء العلماء لدعم نظريتهم فتتلخص في الامور التالية :

١ ــ لايعقل ان ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار الى البداوة بل يحدث العكس ، ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلابد أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً .

٢ ــ ثبت ان معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق او الشام انما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها ، واشتغلت باصلاح اراضيها وعمرانها ، واشتغلت بالتجارة فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى ، ولما كانت هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب ، فتكون الجزيرة قياسا على ذلك الموطن الذى غذى العراق وبادية الشام بالساميين ، وارسل عليها موجات متوالية منها .

٣ ــ هناك ادلة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية ، تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين[١٤].

٤ ــ ان اللغة العربية (لغة جزيرة العرب الام) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الاصيلة اكثر من اية لهجة من اللهجات السامية الاخرى[١٥] . لان بلاد العرب لم تخضع يوما من الايام الى الاجنبي[١٦] .

٣ ـ سامية ام عربية ؟

سبق ان ذكرنا ان الرأي الحديث قد اتجـه الى البحث في الاقوام السامية من الناحية اللغوية وليس من الناحية العرقيـة والرسية كما ذهب اليه « شلوتزر » قبل حوالي مائة عام ، وذلك لان هذه التسمية (تسمية سامية) لا تمثل المعنى الصحيح لهذه الاقوام كما انها لاتستند الى واقع تاريخي أو الى اسس علمية صحيحة، وقد سبق ان نوهنا بان هذه التسمية لامبرر لها في رأى الباحثين سوى الرواية التوراتية وشيوع استعمال الاصطلاح بطريـق التقليد (انظر الفقرة الاولى من هذا البحث) . لذلك فهناك شبه اجماع بين العلماء ان أصح تسمية لهذه الأقـوام هي تسميـة « الشعوب العربية » لان هذه الأقوام من اصل عربي هاجرت من جزيرة العرب واستقرت في الهلال الخصيب وكونت الحضارات التي سميت بالسامية خطأ لان « اسم العرب ورد منذ القديم في الاثار البابلية والاشورية والعبريـة كما اطلق الفرس واليونان والرومان على سكان جزيرة العرب اسم العرب منذ الالف الاولى قبل المسيح[١٧] .

واحسن من عبر عن الرأي القائل بوجوب تسمية الاقـوام الذين تسموا بالسامية وكل من سكن الجزيرة العربية وخرج منها

بالعرب . الباحث والمؤرخ المعروف الدكتور جواد علي ، قال في بحثه عن تاريخ العرب قبل الاسلام ما نصه :

« اني سأطلق لفظة عرب على جميع سكان الجزيرة بغض النظر عن الزمان الذى عاشوا فيه والمكان الذى وجدوا فيه ، سواء اكانوا سكنوا في الاقسام الشمالية ام في الاقسام الوسطى من جزيرة العرب ام في الاقسام الجنوبية منها . فكل هؤلاء في نظري (عرب) وعرب علم لقومية خاصة ومصطلح ظهر متأخرا في النصف الاخير من الالف الاولى قبل الميلاد ، وتركز وتثبت بعد الميلاد خاصة ، وقبيل ظهور الاسلام على الاخص . وعلى هذا فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبالوف السنين ، هم (عرب) بالطبع وان لم يدعوا (عربا) ، لان هذه الكلمة لم تكن معروفة بهذا المعنى في ايامهم ولكنهم عرب اصالة ومن احق واجدر بان تطلق عليه هذه اللفظة منهم ، هم سكان الجزيرة واصحابها الشرعيون مهما اختلفت لهجاتهم وتباينت لغاتهم ، وتعددت اماكنهم ، هم الاصل ، ومن جاء بعدهم الفرع ، ليس الفرع كالاصل .

« ولعلني لا اكون مخطئا او مبالغا اذا قلت ان الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و (سامية) بـ (عربي) و (عربية) ، فقد رأينا انتلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على اساس التقارب في اللهجات وعلى اساس فكرة الانساب الواردة في التوراة ، وهي كما قلت انها ، فكرة لا تستند الى اسس علمية ،

وانما قامت على بواعث عاطفية ، على اساس حب الاسرائيليين او بغضهم لمن عرفوا من الشعوب • اما مصطلحنا (العرب) الذى يقابل السامية ، فهو اقرب في نظري — الى العلم ••• ففي العرب لهجات ولغات ، كما ان بين السامية لهجات ولغات •• وليس ببعيد ولا بغريب عن العلم والمنطق ان نعد السامية عربية لكونها ظهرت في جزيرة العرب ونحن نعلم ان كثيرا من العلماء يرون ان جزيرة العرب هي مهد الساميين •

« ولما كان العلماء قديما وحديثا قد اطلقوا على هذه الارض التي ظهرت فيها شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم (جزيرة العرب) او (شبه جزيرة العرب) غير مراعين في ذلك بعدد المواضع او اللغات واللهجات او القبائل ، ولا تاريخ ظهور لفظة (العرب) الى عالم الوجود ، جاز لنا بل وجب علينا الان — على ما ارى — ان نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح (العربية) فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمين : عامل القرابة اللغوية والاصل اللغوي ، وعامل وحدة المكان • فسواء أظهرت السامية في اليمن أم في موضع آخر من جزيرة العرب أم في العراق ، فان كل هذه المواضع هي من شبه جزيرة العرب ، لان البادية والهلال الخصيب هما من الأقسام التي تعد اليوم من بلاد العرب ، وثقافة سكانها ثقافة عربية ، ولغتهم السائدة هي اللغة العربية ، وهي أوسع لغة سامية باقية على وجه الارض • ولذلك فهي اللغة الكبرى التي تمثل المجموعة اللغوية

السامية سواء اكانت قديمة أم حديثة ، ويجدر ان لا نتحدث باسم السامية في القرن العشرين .. واذا وافقنا على اقرار هذا الاصطلاح . نكون قد تقربنا نحو العلم ، وابتعدنا عن الاساطير، اسطورة انحدار الساميين من صلب رجل هو سام ، وحري بالعلم ان تبنى احكامه على حقائق علمية ، وان يبتعد عن القصص والاساطير(١٨) .

ويقول الاستاذ دروزة في موضوع تسمية السامية ما نصه : « هي تسمية ليس لها سند من تاريخ وعلم واثار ، ومن العجيب انها انتشرت بين علماء الغرب وسرت الى مؤرخي العرب وكتابهم بطريق العدوى والاقتباسية المعتادة ، مع ان تسمية الجنس العربي واللغات العربية هي على كل حال أصح منها ، لان موطن الاقوام التي سميت بها اى الكلدانيين والعموريين والاشوريين والاكديين والاراميين والكنعانيين والمصريين والاثيوبيين والعرب القدماء والمتأخرون في جنوبي الجزيرة وشماليها والاقطار المتاخمة لها التي نوهنا بتشاركها اللغوى والاجتماعي والفكرى والديني ولان جزيرة العرب اخذت تذكر باسم العروبة الصريح في كتب اليونان والرومان واسفار العهد القديم منذ الفين وخمسمائة سنة ، بل وقبل ذلك ولان اسم العرب الصريح اخذ يطلق على اهلها المستقرين في داخلها وتخومها ، ولان اللغة التي تكلم بها سكان الجزيرة العرب ومواطن العرب الثانية وخارجها منذ اكثر من الفي سنة هي اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا وكثيرا عن اللغة القرانية الفصحى على ماتدل عليه

اثار واسماء واعلام ونقوش السبئيين والحميريين والنبطيين والتدمريين الذين برزوا في مجال الحضارة والحكم والسلطان داخل الجزيرة وخارجها قبل الميلاد .. واستمرارا على ذلك الخطأ في التسمية او نتيجة له فرقوا بين تاريخ جزيرة العرب وسكانها وبين تاريخ الموجات التي نزحت منا في القديم ، وجعلوا تاريخ كل موجة بمثابة تاريخ امة مستقلة قائمة بذاتها[١٩] .

ويؤيد الاستاذ طه باقر نظرية تسمية الساميين بالعرب مع بعض التحفظ فيقول ما نصه : «وقبل ان نعدد اشهر الأقوام السامية التي استوطنت وادي الرافدين يجدر أن نبين أن هذه التسمية الشائعة، أي الساميين واللغات السامية ، غير موفقة ولا صحيحة في رأيي رغم شيوعها في الاستعمال . ولو اننا سمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة او اللغات العربية والاقوام السامية بالأقوام العربية او أقوام الجزيرة لكان ذلك أقرب الى الصواب ، ولكن اختصاص اولئك الأقوام السامية كل منهم باسم خاص مثل الاكديين والبابليين والعرب والعبرانيين وغيرهم يجعل اطلاق تسمية عرب على كل منهم لا يعبر عن المدلول التاريخي الدقيق[١٩أ] .

ويذهب اكثر المؤرخين الفرنج الى ان العرب والساميين شيء واحد ، فهذا « سبرنجر على سبيل المثال يقول ان جميع الاقوام التي تنتسب الى العرق السامي كالاشوريين والبابليين والفينيقيين والعبرانيين والادوميين وغيرهم من الاقوام التي كانت تضطر الى النزوح والهجرة من الجزيرة العربية كلما امتلاءت بهم جزيرتهم

او اجدبت بسبب انحباس المطر او كلما تشوقت تلك الأقوام لايجاد أرض تكون أخصب من أرض جزيرتهم العربية هم عرب[٢٠] .

وفي تعليق له على نظرية شلوتزر يقول الاستاذ اوليئاري :

« ان نظرية شلوتزر تقوم على اساس من التعاقب الدوري كما هو منصوص عنه في جـدول الامم الذي يجعـل من ارام وارفكشار ولدين لسام[٢١] . ومـن ثم يجعـل ارفكشار جـداً لابراهيم[٢٢] بحيث يصـبح الاسرائيليـون ساميين باعتبارهـم انحدروا من صلب ابراهيم ومثلهم العرب الذى يدعون انهم اولاد اسماعيل واذا تفحصنا هذه الانساب بدقة تبين لنا ربط هــذه الجماعات بارومة واحدة جاء طبقا لعلائق سياسية ، وعلى هـذا الاساس اعتبر جدول الامم عيلاما ولودا اخوين لاشور من ابناء سام[٢٣] . ومما لا شك فيـه ان تعريف تلك الجماعات بالرموز (كالاحرف والارقام) هو الافضل وذلك لتجنب بعض التسميات كالسامية والهندو ـ اوروبية وغيرها . ونحن وان كنا لا نستطيع تبرير اطلاق السامية على تلك الجماعات بصورة مطلقة الا ان هذه التسمية تبقى مصطلحاً شائعاً ومقبولا[٢٤] .ويقول العالم الفرنسي الاب هنرى فليش[٢٥] انه ينبغي ان لانفهم من استعمال كلمـة (السامية) اي شيء اكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الامـر على الباحثين دون ان نعتقد ان له دلالة عنصرية .

ولابد من التنويه في هذا الصدد بان الصهاينة قد استغلوا تسمية « سامية » لشعوب الجزيرة العربية وشـجعوا اسـتمرار

استعمالها . وذلك لربط تاريخهم القديم بالعرب لما للعرب من حضارات قديمة وتراث ثقافي عريق على اعتبار ان الساميين واليهود من عنصر واحد ، وقد وجدوا في ابراز السامية وتداولها بين الناس أقرب طريق لطمس معالم الوجود العربي ، وهكذا جعلوا الحركة « اللاسامية » تشمل العرب واليهود بحكم ارتباط كليهما بالسامية .

وهناك اجماع بين العلماء المعنيين بشؤون تاريخ الشرق الادنى القديم على ان تسمية « ساميين » للشعوب العربية النازحة من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب لا يؤدى المعنى الحقيقي لهذه الشعوب . لذلك اكدوا ضرورة تغيير مصطلح « الساميين » واختيار مصطلح اخر يفي بالمعنى المطلوب . ولما كان هناك اجماع ايضا على ان صانعي الحضارات السامية القديمة بمفهوم السامية الشائع هم اهل جزيرة العرب وقد نزحوا منها الى الهلال الخصيب فهناك اقتراح يرمي الى اختيار كلمة « جزيريين » بدلا من الساميين ، أو « العربية القديمة » بدلا من السامية ، فاذا تم الاتفاق على تغيير السامية بمصطلح آخر يفي بالمرام بين المعنيين بشؤون تاريخ الشرق الادنى القديم سأكون أول من يضم صوته الى صوتهم . وعليه سوف استمر في اطلاق كلمة « ساميين » اينما وردت في هذا البحث بمفهومها الشائع وبخاصة عند الاقتباس من

مصادر اجنبية وعربية تستعمل كلمة « ساميين » بمفهومها الشائع، على الرغم من اعتقادي بان هذا المدلول لايؤدي الى المعنى المطلوب .

٤ ـ اصل تسمية عرب

ان أقدم ذكر للفظة (عرب) ورد في الكتابات الاشورية ، حيث كانت علماً منذ اقدم العصور لقبائل البادية العربية المتاخمة لحدود بلاد اشور ، فاقدم اشارة الى العرب وصلت الينا من المدونات القديمة في نقش للملك الاشوري شلمنصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق ٠ م)[٢٦] وصفت فيه حملته على مملكة حماة التي اتحدت مع مملكة دمشق ومملكة اسرائيل ودويلات اخرى مجاورة لتاليف كتلة ضد الغزو الاشوري ، منها دويلة عربية جهز ملكها العربي « جندبو » الف جمل ٠ وقد عرفت هذه المعركة التي نشبت عام ٨٥٣ ق ٠ م او ٨٥٤ ق ٠ م على نهر العاصي في سورية بموقعة « القرقار » ، ويلاحظ ان هذه التسمية القديمة للعرب جاءت مقرونة مع الجمل ٠ ولم تكن كلمة عربي تعني عند الاشوريين ما تعنيه عندنا من معنى ، بل كانوا يقصدون بها مشيخة من المشيخات التي كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الاشورية وكان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعا للظروف السياسية ولقوة شخصية الشيخ ٠ وكان يحكم الدويلة العربية ملك يقال له « جندبو » او « جندب » ، وكانت صلاته سيئة بالآشوريين ٠ ولما كان من الصعب ضبط كيفية النطق بهذه الكلمة

من النصوص الآشورية التي لم تحرك المقاطع ، فقد اختلف العلماء في كيفية النطق بهذه الكلمة ، فقرئت عروب وعريبي و عريبو و عَرْبي وعَرَبي وعِرْبي الى غير ذلك[٢٧] . ومما ورد في اخبار شلمنصر الثالث ايضا انه زحف نحو جنوبي الجزيرة العربية واتصل بقبائل عربية تسكن ساحل الخليج العربي .

وقد تكرر ذكر العرب في سياق وصف الغزوات التي قام بها اخلاف شلمنصر الثالث فاورد الملك سنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق . م .) ذكر العرب في وصف الحملة العسكرية التي قام بها على بلاد العرب بين سنة ٦٨٨ و ٦٨١ ق. م ، حيث قال انه استولى على الف جمل من الملكة العربية المسماة « تلخونو » في وسط الصحراء ، ويدعي ايضا انه غزا الملك العريبي (العربي) المدعو (حزائيل) فهرب هو والملكة « تلخونو » من مخيميهما ولجئا الى « اودوماتو » (ادوم) الكائنة على طرف الصحراء . كما ذكر الملك اسرحدون (٦٨١ — ٦٦٩ ق . م) انه استولى على حصن « ادومو » العربي الذى كان قد احتله والده سنحاريب ،ويضيف الى ذلك قوله ان الملك العريبي (العربي حزائيل) جاء الى مقره في نينوى ومعه هدايا ضخمة معبرا بذلك عن خضوعه وطاعته ، وكان في جملة هذه الهدايا عدد من الجمال[٢٨] .

وقد وردت عدة تسميات للعرب في التوراة : العرب[٢٩] الاعرابي[٣٠] كما ورد فيها ذكر ملوك العرب[٣١] وديار العرب[٣٢] وبلاد العرب[٣٣] وجشم العربي[٣٤] وكانت لفظة عرب في التوراة

تدل على البداوة ، اى انها تعطي معنى بدو او اعراب او البادية او ساكن البادية ، وهو المعنى الاصلي لهذه الكلمة في جميع فروع اللغات السامية . ولم تتخصص الكلمة عند العبرانيين الا في العهود المتأخرة . حيث صارت بعد احتكاكهم بالقبائل التي كانت تقيم بالبادية تعني سكان الجزيرة واصبحت علما على سكان البادية وشبه الجزيرة ، وما اقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صارت لفظة عرب تطلق على ساكن شبه الجزيرة كائنا من كان في الشمال وفي الجنوب عند العبرانيين(٣٥) .

وقد وردت كلمة « عربة » في التوراة وهي تعني الصحراء او القفر وقد استعملت لتشمل الوادي الذي يجري فيه نهر الاردن وتتسع فيه بحيرة طبرية والبحر الميت ، وفي بعض الاماكن قصد بالاسم المنطقة بين البحر الميت والبحر الاحمر(٣٦) وفي البعض الاخر قصد به من شمال البحر الميت الى خليج العقبة(٣٧) وطوله ١٠٠ ميل(٣٨) .

وفي التلمود اريد بالعرب الاعراب كذلك ، اي المعنى نفسه الذى ورد في الاسفار القديمة من التوراة ، وجعل العربي في بعض المواضع مرادفا لكلمة (اسماعيلي) . وكان ، يقصد بها في الغالب القبائل العربية الشمالية(٣٩) وكذلك وردت معلومات مهمة عن تاريخ العرب في مؤلفات يوسفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش بين سنتي ٣٧ و ١٠٠ للميلاد في تاريخ عاديات اليهود الذى تنتهي حوادثه سنة ٦٦ للميلاد ، وكتاب تاريخ حروب اليهود من استيلاء

انطيوخس على القدس سنة ١٧٠ ق ٠ م الى الاستيلاء عليها ثانية في عهد طيطس عام ٧٠م ، فورد في هذه المؤلفات اخبار مفصلة عن عرب الانباط وعلاقتهم باليهود ٠

وقد ورد في نص بابلي جملة « ماتو — اربي » ومعنى « ماتو » ارض في الاشورية والبابلية ، فيكون المعنى ارض اربي، اى ارض العرب او العربية ، كما وردت كلمة « اربابة » (عربابة) في نص فارسي باللغة الاخمينية يعود الى زمن دارا الكبير (٥٢١ — ٤٨٦ ق ٠ م ٠)[٤٠] ٠ ثم ذكرت ارض العرب بعد ذلك في الكتابات العيلامية والبهلاوية والمسمارية التي تعود الى منتصف القرن الخامس ق ٠ م ٠ باسم عربابة واربابة نقلا عن المصادر الكلدانية المعاصرة لها فالكلمة في الكلدانية تعني بلاد العرب[٤١]٠

وقد ورد ذكر العرب في آداب اليونان ، واول ذكر لهم جاء على لسان اسكيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق ٠ م ٠) عند الاشارة الى ضابط عربي اشتهر في جيش احشويرش الاول (٤٨٦ — ٤٦٥ ق٠ م ٠) ثم تلاه هيرودتس (نحو ٤٨٤ — ٤٢٥ ق ٠ م ٠) فسمى شبه جزيرة العرب كلها بعربة (Arabae) وقد ادخل فيها جزءا من الارضين المصرية التي هي في شرقي وادي النيل ٠ وقد اطلق زينوفون (٤٠١ ق ٠ م ٠) لفظة « عربة » ايضا على منطقة بادية الشام وبخاصة تلك البادية الواسعة التي تتصل حدودها الشرقية بحدود الامبراطورية البارتية الغربية عند الاشارة الى تعيين ملك الفرس حاكما عليها وقد عرفت هذه المنطقة عند الكتاب السريان باسم عرب منذ القرن الثالث للمسيح فيما بعد ، وكان

يعرف القسم الشرقي الخاضع لنفوذ الفرس باسم بيت عرباية او باعربابة ومعناها ارض العرب .[٤٢] .

وقد وردت لفظة عرب في عدد من كتابات الحضـر ولم ترد علما على قوم او جنـس بالمعنى المفهوم من اللفظـة في الوقت الحاضر[٤٣] . فكانت تعرف بلاد مملكة الحضر باسم « عربايا » اى بلاد العرب ، وقد ورد ذكر هذه التسمية في كتابة بهستون من ضمن اسماء الاقاليم لامبراطوريـة الملك الاخميني دارا الاول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق . م .) ، ثم صار حكام بلاد الحضر في القرنين الثاني والثالث الميلاديين يلقبون في الكتابات الحضـرية بملوك العرب[٤٥] .

اما استعمال كلمة « عرب » في النصوص العربية فقد وردت كلمة اعرب بمعنى اعراب كما وردت كلمة « عرب » في النصوص علما لاشخاص . واطلق الاراميون والايرانيون على العرب اسـم تايوى (Tayayo, Taiy) وهو من اسم طي القبيلة العربيـة الشهيرة ، وكانت هذه القبيلـة تسكن على مقربة من الايرانيين واحتكت بهم كثيرا ، لذلك صار اسمها مرادفاً لكلمة « عرب » . وقد اخذ العبرانيون كلمة طيعة من طي فاطلقوها في عهد التلمود على العرب . والكتابة الوحيدة التي فيها اسم العرب هي تلـك

التي عثر عليها في الكتابات العربية الشمالية وهي ترجع الى زمن امرؤ القيس حيث ورد ذكر امروء القيس مقرونا بجملة « ملك العرب كلهم » والارجح ان المقصود بذلك « ملك الاعراب » ، أي الذين كانوا يتنقلون والذين كانوا يقطنون في البادية • ويرى مولر ان النص الوحيد الذى استعمل فيه اسم العرب علما عليهم، بدوهم وحضرهم ، والذى لا يمكن ان يشك في صحته انسان هو النص الوارد في القرآن الكريم ، فهو اول من خصص الكلمة وجعلها علما لقومية سكان شبه الجزيرة[٤٦] •

٥ ـ العصور الجليدية

وقد توصل العلماء الجيولوجيون الى ان سطح الارض قد تعرض في الماضي البعيد لعدة تغيرات مناخية في مختلف العصور، فقد مر باربع دورات (Cycles) جليدية تفصل بينها دورات او فترات دفيئة ذات مناخ جاف لا يختلف عما هو سائد اليوم . وقد ميزوا الدورة الجليدية الأولى بزحف جليدي من الشمال الى الجنوب غطى معظم سطح الأرض الشمالي كذلك بقية المناطق من نصف الكرة الشمالي من كل من آسيا واميركا . اما منطقة جنوب شرقي آسيا بما فيها بلاد العرب والعراق وسورية فقد تميزت في هذه الدورة الجليدية بامطار غزيرة دائمة السقوط احالت اوديتها انهارا جارية ومستنقعات وبحيرات . كما ميزوا الدورات الدفيئة بتراجع الجليد الى الشمال بحيث سادت فيها حرارة مرتفعة وجفاف احال اكثر المناطق في جنوب شرقي آسيا الى صحارى واراضي قاحلة غير قابلة للاستيطان واستقرار الحياة الثابتة .

وقد تمكن علماء الجيولوجيا من تحديد اربع دورات جليدية تفصل بينها ثلاث دورات دفيئة وقد اطلقوا عليها الاسماء الاربعة التالية :

١ ـ دورة جليد جنز ((Günz)) ٦٠٠،٠٠٠ ق ٠ م ٠

٢ ـ دورة جليـد منـدل ((Mindel)) ٤٣٠،٠٠٠ ـ ٣٧٠،٠٠٠ ق ٠ م

الدورة الدفيئة الاولى ٣٧٠،٠٠٠ ـ ١٣٠،٠٠٠ ق ٠ م ٠

٣ ـ دورة جليد رس ((Riss) ١٣٠،٠٠٠ ـ ١٠٠،٠٠٠ ق ٠ م ٠

الدورة الدفيئة الثانية ١٠٠،٠٠٠ ـ ٤٠،٠٠٠ ق ٠ م ٠

٤ ـ دورة جليد فرم ((Würm)) ٤٠،٠٠٠ ـ ١٨٠٠٠ ق٠م٠

الدورة الدفيئة الثالثة ١٨،٠٠٠ ـ ٠٠٠٠٠٠

هذا مع العلم ان التحول مـن الدورات الجليدية الى الدورات الدفيئة والتحول العكسي كانا بطيئين على شكل تدريجي ، اذ كان الجليد يستغرق زمناً طويلا في حركته نحو الجنوب او تراجعه باتجاه الشمال ٠

ويتضح مما تقدم ان الدورة الدفيئة الكبرى هي الواقعة بين دورتي جليد (مندل) وجليد (رس)، اذ انها دامت ٢٤٠ الف سنة، ولا بد انها كانت من اشد الفترات الدفيئة حرارة ٠ كما يتضح ان العالم يجتاز اليوم الدورة الدفيئة الثالثـة التي بدأت في اعقاب دورة جليد (فرم) منذ ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ٠ ففي دورة جليد

(فرم) كانت اوربا مغطاة بالثلوج في حين كانت الجزيرة العربية تتمتع بجو معتدل رطب تكثر فيه الأمطار في كل المواسم ، مما ساعد في هذه الفترة على الأخذ بالزراعة التي تعتمد على الري ونمو الغابات الكثيفة في المنطقة . ولما دخلت الدورة الدفيئة الثالثة عادت اوربا الى حالتها الطبيعية التي كانت عليه في الدورة الدفيئة السابقة وانقلبت ارض الجزيرة الى صحار تاركة في جوفها طبقات نفطية متكونة من بقايا غاباتها بتأثير الضغط عليها . اما في اوربا فتكونت من بقايا غابات الدورة الدفيئة الثانية طبقات فحمية بتأثير الضغط عليها ايضا .

وقد قدم العلماء نظريات مختلفة لتفسير هذه الظاهرة الطبيعية فقد عللها البعض انها نتيجة حركة التوازن الدائمة في سطح الكرة الارضية ، وقال آخرون بان سدما او سحبا غازية توسطت الفلك ما بين الشمس والأرض ، وقال البعض الآخر ان عدة عوامل تضافرت في احداث هذه الظاهرة[٤٧] .

٦ ـ ازدهار حضارة العرب في اقدم مراحل تطورها

وهكذا ننتهي الى ان هناك تغيرا مهما طرأ على جزيرة العرب ، ففي الدورة الجليدية الرابعة (دورة فرم) التي دامت حوالي عشرين الف سنة بين سنة (٤٠٫٠٠٠ و ١٨٫٠٠٠ ق ٠ م) كانت الجزيرة العربية تتمتع بجو معتدل مشبع بالرطوبة تكثر فيه الامطار الغزيرة على طول المواسم شتاءا وصيفا ٠ ولا شك في ان سكان الجزيرة العربية كيفوا أنفسهم في هذه الظروف الملائمة فاستفادوا من وجود المناخ الرطب ووفرة المياه واستخدموا هذه المعطيات والامكانات في تنمية وتكوين اقدم مرحلة من مراحل حضارة العرب القديمة القائمة على الازدهار الزراعي على اعتبار ان الحضارة القديمة كانت تعتمد على الري والزراعة بالدرجة الاولى ٠ وفي هذه الفترة بالذات اخذ سكان جزيرة العرب يتنقلون تدريجيا من طور القنص والصيد الى طور الفلاحة والزراعة التي تعتمد على الري للحصول على قوتهم اليومي ، فأسسوا اقدم حضارة نهرية مما عرفته البشرية في تاريخها القديم قد ترجع الى ما قبل اكثر من عشرين الف سنة

وقد كان اختراع انتاج الغذاء بالتحول الى الزراعة بشيرا ببدء أسس الحضارة في تاريخ البشر ، فكان من نتيجة هذا التحول التقدم السريع في تطور الحضارة ، ويرجع الفضل في تحقيق جانب

كبير من ذلك ، دون أي شك ، الى ما زاد عن حاجة الانسان من الوقت والموارد الاقتصادية التي وفرها له انتاج الغذاء ، كما يمكننا ايضا ان نربط بين ذلك وبين زيادة عدد السكان ... ويرى الباحثون المتخصصون ان تحول الانسان القديم الى الزراعة قد سبق تدجين الحيوان ، اذ يكاد يكون في حكم المستحيل ما عدا بعض استثناءات قليلة استئناس الحيوانات وتملك أي جماعة انسانية لها طالما كانت هذه الجماعة تداوم الترحال من مكان لآخر في البحث عن القوت ، اذ لم يتيسر للانسان ان ينجح في تدجين معظم انواع الحيوانات التي لدينا الآن الا بعد ان تعلم انتاج المحصولات واستقر في حياته الزراعية . (رالف لينتون ، « شجرة الحضارة » ، ترجمة الدكتور احمد فخري ، ج۱ ، ص ۱٤٩ ١٥٠) .
اكثر من عشرين الف سنة .

وقد يقال ان اقتصار الجهود على الزراعة واغفال الصناعة هما من علامات التخلف ، ولكن نسي اصحاب هذه النظرية ان ظهور الزراعة الاصطناعية بحد ذاته يعد اسهاما مهما في تقدم الحضارة البشرية ، لان الانسان القديم استطاع بدافع الغريزة ان يكتشف لاول مرة البذور الوحشية في الطبيعة ويعيد زراعتها ويتعهدها بالرعاية بتأمين اروائها ونقل المياه اليها حتى انبتت نباتا حسنا يختلف عن الثمر الوحشي ، ومن هنا تغيرت نظرة الانسان القديم للطبيعة فصار يزرع كميات تزيد عن حاجته المعاشية ، ثم صار يخزن الغلال ويحافظ عليها باعتبارها مصدر ثروة ، وأخذ بعد ذلك يتاجر بالغلال الفائضة عن حاجته المعاشية

لشراء مايحتاجه من المؤون بطريق المقايضة،ومن هنا ايضا نشأت اول مرة في التاريخ فكرة التجارة ومعها الاضطلاع بمهمة نقل البضائع التجارية من مكان الى آخر • ويدلنا التاريـخ على ان الحروب والفتوحات بدأت اول ما بدأت للاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التي اصبحت أهم مصدر للقوة والثـروة حتى صار الملوك يتنافسون فيما بينهم في انشاء المشاريع الزراعية التي تعتمد على الري ، ويجب ان لا ننسى ان الحضارة القديمة انما قامت على الزراعة والتجارة •

ويشيرنا العلماء الى اهمية الدور الذى لعبه العالم العربي في تأسيس اقدم حضارة بشرية تقوم على الزراعة والري ومـن هؤلاء المؤرخ المشهور توينبي صاحب الموسوعة التاريخية فيقول في ذلك ما نصه :

« ويستمد العالم العربي اهميته التاريخية من ظهور الزراعة في ارجائه لاول مرة في تاريخ البشرية ، ففي العالم العربي وفي مصر بالذات زرع القمح وصنع الخبز عماد غذاء الانسان لاول مرة منذ نصف مليون سنة على ارجح الاقوال العلمية ، وقـد زود إبتكار زراعة الغلال منطقة العالم العربي بميزة رائعة على العالم القديم باسره » ••• ثم يضيف الى ذلك قوله : « ان اراضي العالـم العربي تضم ثلاثة ارباع احتياطيات النفط المعروفة في العالم باسره وهذه الثروة قد اعادت الى العالم العربي الاهمية الدولية التـي كان يستمدها في الماضي من الزراعة بفضل تنظيم الري تنظيمـا

تكنولوجيا » (توينبي ، بقلم فؤاد محمد شبل ، ١٩٧٥ ص ١٠٤ ـ ١٠٥) .

ان ارجاع توينبي حضارة العرب الى ما قبل نصف مليون سنة يقصد بذلك ارجاعها الى زمن دورة جليد (جنز) الأولى التي تعود الى ما قبل نصف مليون سنة ثم تعقبها الدورات الجليدية التي تلي وهي دورات (مندل) و (رس) و (فرم) وهي الدورات التي كانت فيها جزيرة العرب تتمتع بجو معتدل (رطيب) تكثر فيه الأمطار في كل المواسم مما ساعد على ازدهار الحضارة التي تعتمد على الري والزراعة (انظر ما تقدم في الفقرة ٥ من هذا البحث) .

وفي ذلك يقول ديورانت ايضا في كتابه (قصة الحضارة ٢ : ٤٣) ان « هناك ما يدل على ان الحضارة ـ وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ـ قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ، ثم انتشرت منها في صورة (مثلث ثقافي) الى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور) والى مصر » .

ولا نرانا بحاجة الى تذكير القارىء بان الزراعة القائمة على الري الدائم كانت هي الاساس الداعم لنشوء الحضارة في الازمنة القديمة ، لان الانسان غير المتمدن يمكنه ان يعيش في الغابات ، كما ان بامكان الذين عرفوا بعض المدنية في مسلك حياتهم ان يتم لهم البقاء منعزلين في منبطحات الصحارى ، ولكن الحياة في محيط

يعتمد على الزراعة والري لا تستقر بغير سيادة الانظمة والقوانين، وعليه فليس بغريب ان المدنيات الراقية الغابرة نشأت وازدهرت في اثر التقدم الزراعي والتنظيم الاروائي والتعامل القانوني ونمت في البلاد الغنية بثروة المياه وبالاراضي الخصبة • وقد ذهب بعض الباحثين الى أبعد من ذلك بالتأكيد ان الحاجة لتنظيم الري والزراعة هي التي خلقت نظام الحكم ، وقد عد تنظيم الري عند كثير من الباحثين المحققين عاملا بالغ الاهمية في توطيد عرى التعاون الاجتماعي والتقدم السياسي • ولا عجب اناقدم الشرائع المعروفة في العالم ظهرت في وادي الرافدين وهي تتناول بالدرجة الأولى واجبات الفلاح وعلاقته بالذين يتصلون بالسلك الزراعي الذي يعتمد على الري •

لذلك نستطيع ان نقول جازمين بان حضارة العرب القديمة بدأت اول ما بدأت في جزيرة العرب عندما بدأ الانسان القديم يكتشف سبل ايصال الماء الى الأرض الزراعية ونقلها من مصادرها، ومن تجاربه في تنظيم الري وشق الجداول والقنوات وانشاء السدود والبزول والخزانات كان منشأ علم هندسة الري في التاريخ • في ذلك يقول العلامة سميث في كتابه «اصل الحضارة» : « ان الحضارة اكتسبت طابعها المتميز الواضح بعد ان شرع شخص بتنظيم الحياة على اساس الري والزراعة حتى اصبح هذا الشخص اول ملك في تاريخ العالم ، ثم بعد وفاته رفع الى درجة الالهة وكان اول الالهة[٤٧] • وفي ذلك يقول ويتفوكل في كتابه

« الاستبداد الشرقي » : « لايمكن ان تمارس الزراعة الدائمة على مدار السنة الا بتضامن مجهود بشرى في سبيل نقل كمية وافرة من المياه من مصدرها الأصلي الى الارض الزراعية وان هذا العمل يؤدى بطبيعة الحال الى مساهمة حكومية لاعداد مشروع اروائي من شأنه بعث حياة زراعية منتجة ، وهذه هي أولى الخطوات[٤٧ب] الحرجة التي يمكن ان يطلق عليها محاولة خلق مجهود اروائي » .

وهكذا يمكن القول بكل تأكيد ان حضارة العرب القديمة نشأت وازدهرت قبل اكثر من عشرين الف سنة في جزيرة العرب عندما كانت الجزيرة تزخر بانهرها الدائمة المجرى « فكان هناك نهران كبيران يشقان جـزيرة العرب من اقصاها الى اقصاها » (الدكتور حسن خاطا « الساميون ولغاتهم ») (١٩٧١ ، ص١٥) .

ولكن ويالالاسف ان معلوماتنا عن هذا الدور الحضارى القديم في تاريخ حياة العرب في جزيرتهم محدودة جدا لا نعلم عنها الا النزر اليسير لان عصر التدوين لم يكن قد ظهر بعد ، والشيء القليل الذى نعرفه عن هذه الحضارة هو ما يستقى من الاثار التي تركوها على الارض . وفي ما عثر عليه من اثار تركها سكان هذه الاصقاع لدليل قاطع على قدم حضارة جزيرة العرب . فقد عثر على ادوات حجرية من العصور الباليوليثية[٤٨] والنيوليثية[٤٩] في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتد من الاحساء (الهفوف) الى الحجاز ومن مدائن صالح الى نجران مما يدل على قدم حضارة العرب وسكنى هذه المناطق منذ أقدم العصور .

وتوجد الان آثار في المتحف العراقي من العصر الحجري القديم يرقى زمنها الى نحو مائة الف سنة عثر عليها في بادية الشام وقرب الرطبة (كنوز المتحف العراقي ١٩٧٢ ، ص ١٢٧) ، ولا شك ان هذه الالات والادوات الحجرية استعملها الساميون (العموريون) ما يدل على وجودهم في بادية الشام قبل مائة الف سنة .

ويرى الباحثون ان اوربا وامريكا الشمالية كانت في العصر الجليدى الاخير (لعله قبل ٣٠٫٠٠٠ سنة) تغطيها الثلوج وغير مأهولة بالانسان .فعند ذاك كانت الجزيرة العربية تتمتع بالعصور الممطرة وتزدهر فيها الحياة . ومن الامارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه فيها في الازمان الخوالي : (١) الوديان الكثيرة المنتشرة (٢) وجود قيعان بعض البحيرات والبحار المندرسة كالبحيرة اليابسة ، قرب تيماء وبقايا البحر « ابو بحره » الذي وجده فيلبي في الربع الخالي (٣) خرائب المدن الموجودة هنا وهناك في تيماء وغيرها . والى هذا كله فقد وجدت اثار العصور الحجرية في الجزيرة ،كما وجد مهندسو شركة النفط في «دوادمي» في قلب المملكة العربية سكين حجر من العصر الحجرى ووجد الدكتور « كورنوال » في المنطقة الوسطى من الاحساء المعروفة بـ « حبل المدرة » وتعرف باسم « درب الشمال » في تل هناك اثار من العصر الحجرى القديم والمتأخر(٥٠) .

ويؤكد المستر فيلبي انه وجد اثار من اصداف المياه العذبة وبقايا من الرواسب النهرية وادوات صوانية تعود الى اواخر

العصر النيوليثي (حوالي الالف الخامسة قبل الميلاد) كلها تدل على ان صحراء الجزيرة العربيـة كانت في تلك الازمان عامـرة بانهارها الدائمة الجرى ومستوطناتها الزاخرة بالسكان ، ويرى ان اجتياح الجفاف لتلك البقاع ادى الى هجرة سكانها . وكان ذلك في رأيه في الوقت نفسه الذى كانت تظهر فيـه معالم اقدم المدنيات في مصر والعراق[٥١] .

ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل على ان جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظة بالاشجار . فكانت جبال الطائف تمون مكة بالاخشاب الصالحة للبناء والوقود ، كما ان المنطقـة الواقعة بين العلا و « معون » او « معان » من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من اراضي ثمود قديما قد كانت من مناطـق الغابات المكتظة بالاشجار ، وكانت مملؤة بالحيوانات المفترسة . وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشـر الميلادى مغطاة بالاشجار والعوسج والسلم ، حتى ان اللصوص كانوا يتخذونها مخابيء يهاجمون منها القوافل ويظهر من اتجاهات الاودية ومن وجود العاديات والخرائب واثار السكن على اطرافها والترسبات التي تمثل قيعان الانهر ، ان هـذه الاودية كانت في الحقيقة انهارا في يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة ، وانهـا كانت تضيف عددا كبيرا من الاحياء ... اما اليوم فقد اندثرت القرى وجفت اكثر الينابيع ، واضطرت غالبية السكان الى الهجرة والتنقل من مكان الى مكان ، والعيش عيشة الاعراب[٥٢] .

وقد ذهب الباحثون الى ان جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس ايام العصور الجليدية المتأخرة في اوربا ، اي قبل خمسين الف سنة ، وان ساحل الخليج العربي ولاسيما المنطقة الواقعة بين الدوادمي وشمالي القطيف كان مزدحما بالسكان في العصور البرونزية ، اي حوالي ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق ٠ م ٠ وقد عثر في البحرين أيضا على عدد من مواد الصخور الصوانية قدر بعض الباحثين ان عمرها يتراوح بين عشرة الاف واثني عشر الف سنة ، وهي ترجع الى اواخر ايام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة ٠

ومن انهر جزيرة العرب القديمة وادي الحمث الذى شيدت مدينة يثرب على احد فروعه وكان هذا النهر يصب في البحر الاحمر ٠ وهناك انهر ثلاثة اخرى كانت تجرى فيالسهول الواسعة في منطقتي نجد والحسا ٠ وهذه الانهر هي اولا وادي السرحان، الذى كان ينبع شرقي جبال حوران ويخترق منبعه سهول الجزيرة الشمالية ويصب في الخليج العربي ، ثانيا وادي الرمه ، وكان منبعه شرقي مكة ومن هناك يسير شرقا ليصب في بحر عمان بعد ان تنضم اليه عدة فروع ، ثالثا ، نهر الدواسر وهو اكبر انهر الجزيرة ويقع منبعه شرقي بلاد اليمن ويتجه شمالا مخترقا سهل الربع الخالي ثم يتصل بوادى الرمه بالقرب من شواطىء خليج البصرة ٠ وفي هذا الدور الجيولوجي الذى كانت جزيرة العرب تتمتع فيه بامطار غزيرة كان وادي الشريعة يشكل بحيرة عظيمة

تبدأ من جنوبي جبال حرمون وتمتد حتى وادي العربة ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الاحمر[٥٣] •

وقد وجد برترام توماس ، صاحب كتاب « العرب » ص٣٥٠ بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض ابو بحر كما لاحظ ان وادي الرمه لايزال مساوءا بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على انه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه • ولاتزال بقايا بحيرات مملؤة بالمياه في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية ، ففي منطقة الخرج عدة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الاراضي المجاورة ، وقد اتيح للمؤلف ان قام بدراسة خاصة لهذه البحيرات واقامة مشروع ري عليها ، اذ كانت الحكومة العراقية قد اوفدته على رأس بعثة فنية لدراسة امكانات هذه البحيرات في اغراض الري وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض وتوجد فيها خمس بحيرات منها اربع بحيرات الى الجنوب من اليمامة ، اما الخامسة فتقع في الاراضي الصحراوية الواقعة الى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلومتر منها وتسمى « خفس دغرى »، وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من اربعة الاف متر مربع ، اما عمق الماء فيها فيناهز اربعمائة قدم وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجارى المياه الجوفية[٥٤] •

وقدجاء في نصوص القرآن الكريم ما يؤيد صراحةوجود الاجواء الممطرة والانهار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء ،كما ذهب

اليه الباحثون المحدثون ، وقد جاءت كلها في معرض التذكير والدعوة الى الاتعاظ بمن تقدمهم من الاقوام الذين تمتعوا بوفرة العيش ورغده وذلك بتوافر المياه والمزارع والجنان والعمران . فيقول الدكتور الدواليبي في ذلك : والمعجزة في هذه النصوص التي تقارب نحوا من اربعين آية انها تدعم منذ اربعة عشر قرنا وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات التي انتجتها الدراسات العلمية الحديثة ، تلك الدراسات التي لم يكن من الممكن ان تقوم في تلك العصور[٥٥] .

وقد ورد في الروايات اليونانية والرومانية القديمة ما يؤيد صراحة وجود انهار طويلة في بلاد العرب ، فقد ذكر هيرودتس خبر نهر في بلاد العرب سماه « كورس » وقال ان ملكهم قد عمل على نقل المياه من هذا النهر العظيم الى الصحراء على مسيرة اثنى عشر يوما عن ساحل النهر . كما ذكر بطليموس اسم نهر سماه « لار » ويرى البعض ان هذا النهر هو « وادى الدواسر » الحالي الذى يمس حافة الربع الخالي[٥٦] .

وفي التطور الجوى الذى حدث في جزيرة العرب وفي شمالي افريقية والذى شمل تأثيره جميع الشرق الادنى يقول العلامة « جايلد » وهو حجة في الموضوع :

في الوقت الذى كان فيه شمال اوربا مغطى بطبقات الثلوج الى مسافات بعيدة وصلت الى « الهارز » وكانت جبال الالب والبرنس مغطاة بجبال من الثلج ، كان ضغط القطب الشمالي

الشـديد يسـوق اعاصـير الامطـار التي تهب على اوربـا الوسـطى ويجعلها تجتازها وتعبر الى حوض البحـر الابيض المتوسط وتستمر في سيرها دون ان تستنزفها جبال لبنان فتصل الى بلاد ما بين النهرين وجزيرة العرب حتى بلاد فارس والهند ، فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الان ،تتمتع بامطار منتظمة، ولم تسن الامطار الذاهبة بعد الى جهة الشرق اكثر مما هي عليه الان حسب ، بل انها كانت موزعة على جميع فصول السنة بدلا من ان تكون مقصورة على فصل الشتاء .

« ولهذا يجب أن تتوقع وجود المروج والمراعي والبطائح في شمالي حوض افريقيا وجزيرة العرب وفارس ووادي السند على نحو ما يزدهر الان في شمال حوض البحر المتوسط ... وعندما كان الحوت والكركدن والرنة يرعون في فرنسا وفي جنوبي انكلترا ، كان يعيش في شمال افريقيا او ربما في جزيرة العرب ايضا ، حيوانات من نوع ما يوجد الان في زمبازي وروديسيا .

« وقد كان من الطبيعي ان تكون الاراضي الخصبة المعشبة فيشمال افريقيا وفي جنوبي اسيا مأهولة انذاك بالسكان ومزدحمة بهم ... وانه لمن المعقول ان نحسب ان الانسان كان بامكانه ان يتقدم تقدما عظيما في مثل هذه البيئة الملائمة لابل البيئة المخضرة(٤٥٦) ..

وقد اخذ العلماء بالاجماع بنظرية جايلد القائلة بان احوال الجزيرة في الدهور الماضية كانت تختلف اختلافا كليا من حيث وفرة المياه والخصب عما هي عليه الان ، فقد اجمع الباحثون على

ان الجزيرة في العصر الحجري الباليوليثي كانت خصبة كثيرة المياه والامطار وكانت كذلك حتى العصر الحجري المتاخر تقريبا وانها كانت من اخصب بقاع الارض • ولكن تغيرت هذه المنطقة الافريقية الاسيوية في نهاية العصر الجليدي الاخير تغيرا كبيرا عميقا فاخذ يحل فيها الجفاف والجدب منذ ذلك الحين وزال فيها اخر عصر ممطر وحل فيها بدل ذلك عهد جفاف يقابل الفترة الجليدية الاخيرة في اوربا وفي شمالي امريكة • واخذ الجفاف في الازدياد حتى صارت المنطقة المحيطة بالجزيرة تعاني من قلة المطر (ومن ذلك مصر والعراق وحتى ايران) بحيث تصير الحياة عسيرة خارج مناطق الانهار والجداول اى الارواء الصناعي • فان الاعاصير الهابة من الاطلنطيقي والتي تروى الان شمالي اوربة ووسطها لا تصل الى منطقة البحر المتوسط الا في الشتاء ، ولا تصل الى كثير من المناطق الباقية مثل منطقة الصحارى • ومع وصول شيء من الاعاصير المطرة الى العراق وايران وحتى وادي نهر السند في الشتاء فانها لا تصل الا وهي في حالة يصح ان نسميها « بمصة الوشل » بعد ان تمر بمرتفعات سورية وفلسطين • والى ذلك التبدل الاساسي الذي حل في مناخ الجزيرة منذ نهاية العصور الجليدية ، فانها تعرضت ولا تزال منذ ذلك الحين الى ازمان دورية من الجدب والخصب القليل •ففي حالة الجدب تثور بلاد العرب كالبركان وتقذف بامواج من القبائل الحربية المريعة الى الاراضي التي تجاورها الى الشمال الشرقي والى الشمال والى سورية عبر الاردن وحتى الى افريقيا[٥٧] •

٧ ـ جزيرة العرب مهد الحضارات السامية :

لقد سبق ان نوهنا في الفقرة الثانية من هذا البحث بان هناك شبه اجماع لدى العلماء في الوقت الحاضر على ان شبه جزيرة العرب هي مهد الساميين والحضارة السامية ، لان قرائن عديدة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح الى ان جزيرة العرب هي مهد الحضارات السامية ووطن الساميين الاوائل • وقد ايدت جمهرة من العلماء والباحثين هذه النظرية فكان من اوائلهم « سبرنكر » الذى اكد عام « ١٨٦١ » ان أواسط بلاد العرب ولا سيما منطقة نجد ، هو المكان الذى يجب ان يكون موطن الساميين ، وهو الذى جهز الهلال الخصيب بالسكان وطبعه هذا الطابع السامي • فمن هذا المخزن خرجت طبقات من البشر بعضها فوق بعض ، وسكنت في هذه الارضين التي اتسمت بالسمة السامية ولا تزال تحتفظ بسمتها هذه حتى اليوم[٥٨] ووافقه في ذلك المستشرق « سايس » Sayce الذي يجزم بان جميع الروايات والاثار السامية تشير الى ان جزيرة العرب هي الوطن الاول الذى ظهر فيه الساميون[٥٩] • كما ايد هذه النظرية اخرون من العلماء امثال « شرادر » Shrader [٦٠] و « دى غويه » (De Goeje) ١٨٣٦ = ١٩٠٩[٦١] وغريم (H. Grimme) « وكارل بروكلمان ، (C. Brockelman) (١٨٦٤ ـ ١٩٤٢)[٦٢]

(١٨٦٨ ــ ١٩٥٦)[٦٣] « وكينغ » (L.W. King) [٦٤] ومايرز (J.L. Meyers) [٦٥] « وكوك »[٦٦] (Cook) « وديتلف نيلسن » (D. Nielsen) [٦٧] و « رايت »[٦٨] (Wright)

ومن القائلين ايضا بان جزيرة العرب هي مهد الساميين « روبرتسن سميث » (R. Smith) [٦٩] و «فريتز هومل» (F. Hommel) [٧٠] و « كلازر »[٧١] و « كوتتنو »[٧٢] كما يقول (فليشن)[٧٣] ان هذا الافتراض ليس بعيد الاحتمال . وقد بسط هذه النظرية مؤيدا اياها العلامة « ديبسو » في كتابه « ولوج العرب سورية قبل الاسلام »[٧٤] ومن ايدها ايضا الباحث المعروف « مونتوغومرى » في كتابه « الجزيرة العربية والتوراة »[٧٥] ــ وكذلك ما غدونالد في بحثه عن الادب العبرى[٧٦] وهنتنكتون في كتابه « فلسطين وتطورها »[٧٧] واما المسؤول عن الافاضة في دعم هذه النظرية والتحمس لها بثقة اكثر من اى شخص اخر فانه العالم الالماني « وينكر » (Hugo Winckler) الذى يذهب الى ان « جزيرة العرب هي المهد الاول للساميين ، وان البابليين والكنعانيين والاراميين خرجوا منها على موجات متتالية على غرار الغزو الاسلامي في القرن السابع الميلادى[٧٨] وايده من بعد تيليه والاب فنسان[٧٩] .

٨ ـ هجرات سكان جزيرة العرب الى الهلال الخصيب اثر الجفاف الذي حل بوطنهم بعد العصر الجليدي الاخير

لقد سبقت الاشارة الى ان جزيرة العرب كانت في العصر الجليدى الاخير الذى دام أكثر من عشرين ألف سنة تتمتع بجو رطب تكثر فيه الامطار . وقد كون سكان الجزيرة في هذه الفترة حضارة قديمة تعتمد على الري والزراعة الا اننا لا نعلم الا الشيء القليل عنها لان عصر الكتابة لم يكن قد ظهر بعد ، لذلك ان معلوماتنا القليلة عنها مستقاة من الادوات التي تركوها على الارض . ولما حل الجفاف وانحبست الامطار واندرست الانهر في نهاية العصر الجليدى الاخير ، اضطر الانسان والحيوان الى الهجرة الى اماكن ذات موارد مائية ، وكان ان توجه هؤلاء السكان الى شمالي الجزيرة ومن هناك توزعوا على اطراف الهلال الخصيب[٨٠] ، المجاورة للجزيرة في موجات متعاقبة ، فمنهم من توجه شرقا نحو بلاد الرافدين وبصورة خاصة نحو نهر الفرات ، ومنهم من استقر في فلسطين وفي سورية وفي لبنان ، وهناك من توجه غرباً نحو طور سيناء واطراف وادي النيل الاسفل الشرقي . وكان هؤلاء المهاجرون مزودين بخبرة فنية في الري والزراعة مارسوها في وطنهم الاصلي في العصر الجليدى الاخير وأهم ما

جاءو به معهم هو ثقافتهم ولغتهم العربية . كما نقلوا معهم الى عالمهم الجديد الحضارة التي كونوها في وطنهم الاصلي . وهي خبرتهم في الري والزراعة واستغلوا الامكانات التي وفرتها لهم البيئة النهرية الجديدة في تكوين حضارتهم من جديد في مستوطناتهم الجديدة وتأسيس الامبراطوريات العظيمة التي فرضت سلطانها على جميع انحاء الشرقين الادنى والاوسط . وهكذا انتقلت حضارة العرب القديمة من مرحلتها الاولى في جزيرة العرب واستقرت في وادي الرافدين حيث استطاعت ان تواصل نشاطها الحضارى وتمارس حيويتها . اذ استطاعت هذه القبائل العربية بفضل خبرتها في شؤون الري والزراعة اللتين اكتسبتهما في وطنها الاصلي في خلال فترة الازدهار الذى شهدته بلاد الشرق الادنى في العصر الجليدى الاخير ،ان تؤسس الحضارة العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة في سورية وفلسطين والعراق ، اي الكنعانية والعمورية والاكدية والبابلية والاشورية والارامية الكلدانية فأسست هذه القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب فيمدة تعد نسبيا قصيرة لاتتجاوز الثلاثة الاف سنة في الفترة الممتدة بين منتصف الالف الثالثة وبين سنة ٦٠٠ قبل الميلاد اقدم واعظم الامبراطوريات ما عرفه العالم القديم في تاريخ البشرية ، الا وهي الامبراطوريات الساميات الاربع ـ الاكدية والبابلية والاشورية والكلدانية والارامية . وذلك بعد انتقال الحضارة العربية من جزيرة العرب واستقرارها في وادي الرافدين ، لذلك فليس من المعقول ان يتمكن هؤلاء المهاجرون من تكوين

هذه الامبراطوريات في هذه المدة القصيرة نسبيا وفرض سيطرتهم على جميع البلاد مالم يكونوا مزودين بخبرة فنية وحضارة عريقة مارسوها في وطنهم الاصلي قبل مجيئهم الى مستوطناتهم الجديدة في وادي الرافدين . ففي ذلك يقول الدكتور احمد فخري في دراسته لتاريخ الشرق القديم ما نصه : « ليس من المعقول ان يتمكن المهاجرون من فرض انفسهم على شعب ذي حضارة مثل الشعب السومري ، الا اذا كان هؤلاء المهاجرون قد وصلوا الى مرحلة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم وتصبح لهم السيطرة على البلاد وان تظل لغتهم الاصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قرونا طويلا ؛ فان هذا التماسك وهذه المحافظة على المميزات دليل على ان السبأيين الذين وصلوا الى العراق قبل خمسة الاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوما بدائيين بل كانوا ذوي ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية. («دراسات في تاريخ الشرق القديم»، ١٩٥٨، ص١٢٧) ويضيف الدكتور فخري الى ذلك قوله : هناك حقيقة مهمة وهي انه في الالف الرابعة قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوبي بلاد العرب الى مصر وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة . (المصدر السابق ص ١٢٦) ويؤيد العقاد ما ذهب اليه الدكتور فخري اذ يقول : « وتدل المعلومات التي جمعها الخبراء من مختلف انحاء جزيرة العرب على قدم حضارة العرب ، وعلى هذا يمكن ان يقال تأييدا لذلك بان الجماعات التي نزحت من جنوبي جزيرة العرب الى وادي النيل وحوض دجلة والفرات

واستقرت فيهما قبل اكثر من اربعين او خمسين قرنا قبل الميلاد كانت على شيء غير يسير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ووسائلها . ومن المعقول انها كانت مزودة بها من منشئها الاول (« اثر العرب في الحضارة الاوربية » ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١١)
ويؤيد ذلك ايضا الدكتور جواد علي الذى قام بدراسات مستفيضة في تاريخ العرب قبل الاسلام فيقول : « وتدل اثار السدود والنواظم التي ترجع الى ما قبل الاسلام على ان العرب كان لهم علم واسع بتنظيم امور الارواء والاستفادة من مياه الامطار والسيول والانهار ، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بانواع الابار والسدود والمساك والنحايت ، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء . وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الامريكية حديثا على صهاريج ارضية متصلة بعضها ببعض بانفاق وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستقاء الماء منها ، عثروا عليها في القطيف والاحساء وفي الفلج ، واواسط نجد واماكن اخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية ، كما وجدوا على مقربة منها اثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة ، ولم يكن يعرف العلماء سابقا ان اواسط شبه جزيرة العرب والاقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الارواء ، بل كان المعروف ان الصهاريج المربوطة بانفاق انما كانت تستخدم في الشام وفي فلسطين وايران والاقسام الشمالية من العراق . وقد اتخذ اصحاب النظرية القائلة باثر الجفاف في شبه جزيرة العرب من

وجود هذه القنوات للارواء في مناطق صحراوية دليلا على تأييد نظريتهم في جفاف جو شبه جزيرة العرب» (تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص١ ، ص ١٠ – ١٠٢) •

ومما ساعد هؤلاء المهاجرين ان يتوغلوا في البلاد المتاخمة للجزيرة ان حدود العراق الغربية وحدود مصر الشمالية الشرقية وحدود الاردن مفتوحة للصحراء فكان في مقدور القبائل العربية المنتشرة في شبه جزيرة العرب ان تتوغل فيها دون ان يصادفها حاجز جغرافي يصدها • وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بوجه خاص عندما تكون الحكومات المسيطرة على البلاد الواقعة على اطراف الصحراء ضعيفة بحيث تستطيع هذه القبائل ان تستفيد من هذه الظروف للتوغل الى الداخل • وقد استغلت هذه القبائل نفوذها في الصحراء مما اضطر التجار واصحاب القوافل ان يلجأوا الى استرضائها ودفع مبالغ كبيرة لها لقاء حمايتها لهم •

والجماعات النازحة من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب لم تستقر في مستوطناتها الجديدة نتيجة حرب او غزو ، بل كانت قبل أن تحل فيها تنتقل بين أرجاء البادية الفسيحة في أرض مكشوفة مفتوحة للجميع (ارض الله الواسعة) فتقصد الماء اينما وجد : اذ كانت الاماكن الصالحة للسكنى في هذه البقاع متوفرة للجميع في البداية • وكان كل المهاجرين من عنصر واصل واحد وقومية واحدة (القومية السامية العربية) تربطهم وشائج اللغة والتراث الصحراوى الذى ينتمون اليه جميعا ، فلا يعترضهم

عنصر غريب لان العناصر غير السامية لم تكن قد جاءت الى هذه المناطق • وكان اتصال المهاجرين مستمرا بينهم وبين ابناء عمومتهم في وطنهم الاصلي ، حيث كانت الجبال تطوي البوادي دون انقطاع مسيطرة على طرق المواصلات وهي انئذ الواسطة الوحيدة التي كانت تربط المستوطنات الجديدة بالوطن الام عبر البوادي والصحارى •

وكان وادي الرافدين امتدادا لجزيرة العرب ، بل كان جزءا لا يتجزأ منها ، فكان الموئل الرئيس الذي أسست على ضفافه المستوطنات الزراعية ، فأسس الأكديون والعموريون والبابليون والأراميون وكلهم ساميون أصلهم من جزيرة العرب ، أولى مستوطناتهم فيه ، ومن الأمثال المعروفة في بادية العراق قولهم : « نجد أم والعراق داية » ، والمقصود بذلك ارتباط نجد ببوادي الرافدين اذ كانت البادية ولا تزال حتى هذا اليوم تغذي المدن بابنائها وتقدمهم لبناء حضارتهم •

وكان النظام القبلي الذي يستند الى العادات والعرف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد ، اذ كانت تمتد سلطة رؤساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وأفخاذها ، أينما وجدت ، وكانت لهم أنظمة خاصة بالحروب والغزوات التي تنشب فيما بينهم ، يتداولها ويتقبلها الجميع عن طيب خاطر •

والدليل على أن بلاد الشرق الادنى كلها كانت تعرف كوحدة

قومية واحدة ترجع الى أصل واحد ، الاصل السامي العربي « أن تسمية (أراميين) كانت تشمل جميع القبائل الساكنة قديما في البلاد الفسيحة الواسعة المحدودة ببلاد الفرس شرقا والبحر المتوسط غربا وبلاد الارمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالا وحدود جزيرة العرب جنوبا كانت قاطبة معروفة ببني أرام والاراميين »(٨٠أ) •

والاراميون ومعهم أهل الشام الذين كانوا يسمون أنفسهم بالادوميين عرفهم الاشوريون باسم « العريبي » أي العربي ويؤكد الاستاذ موسكاتي مؤيدا الوحدة العربية المتماسكة في تلك العصور فيقول : « إنّ المناطق الثلاث ـ الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين(٨٠ب) • وبلاد ما بين النهرين ـ كلها تكوّن وحدة جغرافية مترابطة الاجزاء كانت في تلك الازمان مسرحا رئيسيا للنشاط البشري وأن الاقوام الذين مثّلوا هذه الاحداث المسرحية لعبوا الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم • وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أنّ أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها الى الاقطار الاخرى •• وأن الاقوام الذين استوطنوا هذه الاصقاع هم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية • » ثم يضيف الى ذلك قوله : « والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفة أمام أهل جزيرة العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغل في جميع أنحائها من جميع الجهات ، وهكذا فقد انصبّت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش » (٨٠ج) •

ويحدد بعض الباحثين بداية الهجرات الى الهلال الخصيب بالالف الرابعة قبل الميلاد وربما قبل ذلك على رأي البعض الاخر، ولكن معلوماتنا المستقاة من التنقيبات الاثارية تحدد بداية تاريخ الهجرات المذكورة بالالف الثالثة قبل الميلاد[٨١] .

ويرى الاستاذ عبدالكريم عبدالله في بحثه عن الهجرات السامية من شبه جزيرة العرب نحو شمالها (بلاد الشام) وشمالها الشرقي (العراق) ان هذه الهجرات كانت كما هي الحال في تحرك الجماعات البدوية في العصر الحديث حتمته الطبيعة الجغرافية والظروف الاقتصادية ، فيقول ما نصه : « وهناك حقيقة تاريخية مهمة ترتبط مع الطبيعة الجغرافية والظروف الاقتصادية للمنطقة. وهي استمرارية تدفق الساميين نحو أرض الرافدين بشكل تحركات بطيئة حينا ـ وهي في الغالب الحركات التي سبقت الاكديين ـ وقوية حينا اخر وكان اولها المجموعة التي عرفت باسم الاكديين ، ومنها ايضا تحرك الاشوريين واستقرارهم في الاقسام الشمالية من أرض العراق في الفترة نفسها التي شغل الاكديون فيها القسم الاوسط منه : أي حدود الالف الثالثة قبل الميلاد . وقد كون الاشوريون دولتهم التي اتسعت هي الاخرى الىامبراطورية ضمت معظم اقطار الشرق الادنى القديم منذ بدايات الالف الاولى قبل الميلاد . وبالاضافة الى تلك الحركتين الكبيرتين ـ الاكدية والاشورية ـ فقد اتجهت الى ارض العراق بعد ذلك حركة اخرى تشلها القبائل العسورية القادمة من بلاد الشام والتي كان افرادها قد انتشروا في معظم مدن العراق وكونوا عددا من السلالات

الحاكمة على اثر فقدان السلطة المركزية التي كانت تمثلهما سلالة اور الثالثة في بداية الالف الثانية قبل الميلاد . وكان اشهر تلك السلالات : سلالة تشكلت في مدينـة ايسـن واخرى في مدينة لارسه ، وسلالة اخرى قامت في مدينة « اشنونا » (تل اسمر) وسيطرت على معظم الاراضي الواقعة ما بين نهر ديالى شمالا ونهر دجلة غربا ، اضافة الى سلالة تشكلت في مدينة مارى على نهر الفرات قرب البو كمال ، ثم سلالة بابل الاولى التي قامت في مدينة بابل واشتهرت بملكها السادس حمورابي (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق . م .) الذى وحد تلك السلالات تحت قيادة السلالة البابلية. وبعد فترة من الزمن انسابت الى الاقسام الوسطى والجنوبية من العراق جماعات من القبائل الارامية القادمة من بلاد الشام ايضا ، والذين اعادوا القوة السياسية لبابل واقاموا دولتهم على انقاض السلطة السياسية الاشورية . وقد عرفت دولتهم باسم الدولة الكلدانية ، وكان في الربع الاخير من القرن السابع قبل الميلاد (٦٢٦ ق . م . تقريبا) . وحدثت بعد ذلك تحركات اخرى نحو العراق كانت عربية صريحة تمثلها دولة المناذرة (في القرنين الثاني والثالث الميلادى) التي اتخذت من مدينة الحيرة مركزا لها . وتلى ذلك الموجة الكبرى الممثلة بالفتوحات العربية الاسلامية »[٨٢] .

وفي تاريخ هجرة الاكديين أولى الهجرات السامية من شبه جزيرة العرب يقول الاستاذ عبدالكريم : « ومع ندرة المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في تثبيت اول ظهور للساميين في العراق فهناك اراء واشارات وادلة متفرقة يمكن الاستدلال منها على ذلك

الوجود • ولعل الاعتماد على تغير صناعة الفخار كان مـن اقدم المحاولات في ذلك •وقد اشار البعض الى ان الساميين قد ازدادوا في العراق منذ سنة ٣٢٠٠ ق • م • التي ظهرت فيها بوادر الكتابة الصورية واصبح لهم دورهم واسهاماتهم في انشاء الحضارة التي قامت في وادي الرافدين ، كما ارجع البعض الآخر تاريخ وجودهم الى الالف الرابعة قبل الميلاد • ولعل ما يزيد في قوة هذا الرأي ورود أسماء شخصية سامية ترجع الى عصر جمدة نصر (٣٢٠٠ ــ ٣٠٠٠) قبل الميلاد في بعض النصوص الكتابية المكتشفة في مدينـة اور السومرية • في حين نجد رأيا اخر يشـير الى انهم قد سـبقوا السومريين في النزول الى سواد العراق (سومر م ٣٠ ، ١٩٧٤ ، ص ٦١ •) وفي هجرة السـاميين قبل تاسـيس الدولة الاكدية يضيف السيد عبدالكريم عبدالله قوله : « والواقع ان هجـرة الاكديين لم تكن اول هجرة سامية من جزيرة العرب الى العراق بل كانت أول دولة سامية واضحة المعالم سـياسـيا وحضاريا وحكومة مركزية مسيطرة فعليا على جميـع مناطق بلاد وادي الرافدين تقريبا • اما الاسـباب التي تدفع معظـم المؤرخين الى اعتبار الدولة الاكدية اول دولة سامية في العراق ، هي توافـر الادلة والمصادر الكتابية عن الاكديين اكثر من غيرهم من الساميين الذين سبقوهم في العيش بارض الرافدين ، ذلك لان الاكديين لم يكونوا دولة مركزية حسب ، بل انهم اقاموا اقدم امبراطورية في تاريـخ العالم القديم من جهـة ، لان الكتابة في فترة بزوغهـم السياسي كانت قد تكاملت واصبحت اكثر صلاحا لعملية التدوين

التاريخي من جهة اخرى .. اذ ان وجود الاكديين الساميين اعمق غورا (ربما اكثر من سبعة قرون) من وجود الاكديين الذين ظهروا موجة بشرية بارزة خلال الالف الثالثة قبل الميلاد وقوة سياسية مسيطرة بظهور سرجون الذي واتته الظروف فاسس الدولة الاكدية في منتصف تلك الالف » . (المصدر السابق) .

وكان قد تجمع هؤلاء المهاجرون اول الامر على ضفاف نهر الفرات الغربية المحاددة للبادية (بادية الشام) واسسوا اولى مستوطناتهم في سورية ، وصاروا يعرفون هناك ـ بالعموريين ، فاقاموا في سورية مملكة واسعة اطلق عليها البابليون تسمية « عمورو » كما اطلقوا على البحر المتوسط فقالوا بحر عمورو العظيم . ويرى بعض الخبراء ان العموريين كانوا قد انتشروا في كل المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط الى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الالف الرابعة او الخامسة قبل الميلاد[٨٣أ] . واتخذ العموريون مدينة « ماري » عاصمة لهم ، وهي تقع خرائبها اليوم على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد حوالى ١٥ كيلومترا الى الشمال من بلدة البوكمال . ويشاهد اليوم مقابل بلدة « ماري » على الجانب الشرقي لنهر الفرات تل اثري يسمى تل باغوز[٨٣ب] يرجع تاريخه الى الالف السادسة قبل الميلاد ، وتمثل خرائب هذا التل بقايا احد اقدم المستوطنات التي اقامها العموريون الساميون على ضفاف الفرات بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب . وكانت هذه المستعمرة تمارس الزراعة على الري مستمدة مياه الاروا من الضفة اليسرى لنهر الخابور وتوجد اثار سد قديم

على نهر الخابور في نقطة على بعد خمسة كيلومترا شمالي قرقيسا يدعى (السكير) ، اى السد الصغير ، يتفرع من امامه نهر قديم يدعى «نهر دورين» ، ويرى البعض ان هذه التسمية نسبة الى دارا احد ملوك الفرس الاخمينيين الذين امتد حكمهم في العراق بين سنة ٥٥٠ سنة وسنة ٣٣١ قبل الميلاد (ولعل المقصود به دارا ــ الاول درياوش) (٥٢١ــ٤٨٦ ق٠م) ٠ ويمتد هذا النهر بسوازاة نهر الفرات مسافة ١١٢ كيلومترا ينتهي عند « تل باغوز » حيث يصب في نهر الفرات ٠ هذا ما يدل على ان الزراعة على الري كانت تمارس في هذه المنطقة الواقعة بين الجانب الايسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ اقدم الازمنة ٠

ويبدو ان الجماعات التي استقرت في سورية قد ازداد عددها بعد مرور مدة من الزمن نتيجة لنزوح جماعات أخرى اليها بالاضافة الى تكاثر عدد النازحين الاصليين ، هذا عدا تقلص مساحة الاراضي التي كانت تسقى سيحا نتيجة هبوط مستوى مياه نهر الفرات في هذه المنطقة ، فانتقلت جنوبا على طول نهر الفرات حتى استقرت في شمالي المنطقة السومرية في السهل الخصب الممتد بين نهري الفرات ودجلة حيث اسست مستوطناتها على ضفتي مجرى نهر الفرات القديم غربي وجنوب غربي مدينة بغداد الحالية حيث تقع حاليا شبكة جداول الصقلاوية وابي غريب واليوسفية واللطيفية ، ولم تكن هذه الجماعات عندما اسست مستوطناتها في هذه المنطقة الخصبة يخطر ببالها ان قومها سيصبحون بناة اعظم واقدم امبراطورية سامية عربية مما عرفه تاريخ الانسانية ، اي

الامبراطورية الاكدية التي اسسها سرجون في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي سميت باكد نسبة الى عاصمته اكد التي اسسها ، ولا غرابة ان تصبح هذه البقعة مركزا لامبراطورية عظيمة ، فكما تؤلف اليوم قلب العراق النابض بمشاريع الري العديدة والمزارع المتشابكة ، كذلك كانت في العصر الاكدى السامي المحور الذى تدور حوله اهم مشاريع الري في دلتا الرافدين واخصب مزارعها .

ويلاحظ مما تقدم ان الهجرات من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب كانت تشكل بحد ذاتها تحركات قومية ثقافية تستهدف بالدرجة الاولى الحفاظ على الكيان الحضارى الذى اقامه العرب في جزيرتهم في خلال فترة العصر الجليدى الاخير ، لذلك كان يعد المتعرب بعد الهجرة اي ان يعود المرء الى البادية بعد الهجرة من غير عذر كالمرتد[٨٣] . وفي الحديث ثلاث من الكبائر ، منها المتعرب بعد الهجرة ، هو ان يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب بعد ان ـ كان مهاجرا[٨٤] . وهذا ان دل على شيء انما يدل على ان عرب الجزيرة اضفوا سمة القدسية على الهجرة ، فالتراجع عن الهجرة والعودة الى البادية دليل الضعف والخذلان ، كما انه يدل على ان العرب كانوا فخورين بهجرتهم من وطنهم التي تمثل الرجولة والشجاعة . وفي هذا مغزى بعيد النظر يعبر عن تصميم القوم وعزمهم وثباتهم على المضي فيما اختاروه لانفسهم مهما كلفهم الثمن مندفعين بوحي الغريزة من اجل البقاء والحفاظ على حضارتهم النهرية وثقافتهم القومية في وطن جديد ذي موارد مائية

دائمة بحيث صار التراجع بمثابة الهزيمة في ساحة الحرب .والاهم من كل ذلك ان موقف المهاجرين هذا دليل صريح لا يرقى اليه اي شك على حقيقة وقوع الهجرات العربية من شبه جزيرة العرب .

وخير من يعبّر عن شعور الناس بالاحداث العامة هم الشعراء، ففي ابيات احدهم حول مهاجرة الساميين من بوادي جزيرة العرب الى اقاليم الهلال الخصيب واعمارها واستمرار هذه الهجرات عبر العصور يقول موجها الكلام الى المهاجرين من الجزيرة ما نصه :

« أين تعدو أشاطيء البحر ترجو ،
أم بواديه ، أم رؤسَ جباله ؟
الى مصر ، أم الى الشام تصبو ؟
والشقيقان واحدٌ في وصاله
بين مصرٍ والشام شاطيء بحرٍ
ملء عين الأيام بعضُ نواله
وقفتْ بينه وبين الصحارى
شامخاتُ الجبال أسرى جماله
شيدتْ صرحَها عليه الليالي
واستقرَّ التاريخُ في أطلاله
ربضت خلفه أسود البوادي
شاهداتٍ عليه في أعماله
كلما جاءَها مخاضُ الليالي
عززته بنخبة من رجاله

أدنت المنتأى ، وكانت دليلا
لفتاها الجبار في ايفاله

هجرة" إثر هجرة من صحارى
كن اصلا للبحر في جباله

ملأت أفقه بآمال مجد
فمشى البحر ناشطا من عقاله(٤٨٤)

وهذه التقاليد العربية التي كانت دائرة بصورة متواترة في ما يخص هجرة العرب من جزيرتهم سواء أكان ذلك بضرب الامثال الشائعة بها (نجد" أم والعراق داية) ، أو ترديد اخبارها على لسان الشعراء ، أو الاشارة اليها في قواميس ومعاجم اللغة العربية (لسان العرب ٢ : ٧٢٣ ؛ تاج العروس ١ : ٣٧٧) ، واعتداد المرء الذي يتراجع ، أي ان يعود الى البادية بعد الهجرة بغير عذر كالمرتد . كل ذلك دليل قاطع لا يرقى اليه أي شك على ان هجرات العرب من جزيرتهم حقيقة تاريخية واقعه ، على الرغم من الشكوك التي يبديها بعض الباحثين في حدوثها .

والان بعد ان عرضنا صورة اجمالية للاحداث التي شهدتها الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ والتي كان ابرز حدث فيها ظهور العصر الجليدي الاخير ذي الامطار الغزيرة والانهار الجارية ثم انتشار الجفاف بعده الذي احالها الى صحارى قاحلة ذلك الجفاف الذي سبب هجرات سكان الجزيرة الى الهلال الخصيب ، فلنلق نظرة على الوضع الذى كانت عليه بلاد الشرق الادنى وهي تسبح في بحر

الالف الثالثة قبل الميلاد ماذا نرى ؟ .. نرى عالما واسعا يؤلف فراغا شاسعا من الصحارى تحده الحضارة المستقرة على ضفاف وادى النيل من جهة الغرب وحضارة وادي الرافدين في جنوبي العراق من الجهة الشرقية : حضارتان اقعدتهما نعم الحياة بما اغدقته عليهما من أرض خصبة ومياه عذبة يقف بينهما شعب تائه في صحرائه حائر في امره في وجه الجفاف الذي صار يهدده في صميم حياته بعد ان حرمته الطبيعة من مصدر وجوده ، وهو متعطش ينشد حياة جديدة في وطن جديد يسد فيه حاجته للقمة العيش وجرعة الماء . فكان عليه ان يحارب الطبيعة ويشق طريقه عبر البوادى القاحلة الى الحياة التي كان ينشدها ، وهو واثق بوحي الغريزة من اجل الحياه – بان ما وراء هذا البحر من الرمال عالما غير عالمه موفر فيه وسائل الخلاص مما هو عليه من مصير يضمر في طياته هلاكا حتميا ، فقطع الصحارى كما قطع كولمبس البحار ليكتشف عالمه الجديد في اواخر القرن الخامس عشر بعد الميلاد حتى وجد الشعب ضالته في وادي الاردن وتخوم وادي النيل في جهة الغرب ، ووادي الرافدين في جهة الشرق ، فاخذت الحشود تتوافد على هذا العالم الجديد على موجات متتابعة كما توافد أهل اوربة على امريكا في منتصف القرن السابع عشر بعد الميلاد فشمر هؤلاء الاشاوس قاهرو الصحارى عن سواعدهم واخذوا يبنون حياة جديدة في عالمهم الجديد ، مستغلين الزراعة والتجارة وتربية المواشي مستخدمين خبراتهم التي اكتسبوها في وطنهم القديم في

بناء عالمهم الجديد ، فتمكنوا في وقت قصير نسبيا من وضع اسس اعظم حضارة عرفها تاريخ الانسان القديم .

وتذكرنا هجرات سكان الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب بهجرات النورمان المتوالية من اعالي اوربة نحو جنوبي القارة الاوربية وشرقيها في القرن الثامن بعد الميلاد وفي ما بعده وتوغلهم في روسيه وفرنسه وانكلترا وايطاليـة حيث طبعوا بلاد اوربة بطابعهم الخاص الذى لا يزال الى يومنا هذا موجودا ، مع الفارق ان النورمان انحدروا من شمالي اوربة الى الشرق والجنوب والغرب في حين ان سكان الجزيرة صعدوا شمالا وشرقا نحو الهلال الخصيب في اسيه الغربية .

كما تذكرنا هجرات العرب من الجزيرة العربية قبل الاسلام بهجرتهم الكبرى في عصر الاسلام وفتوحاتهم الواسعة شرقا وغربا ، وما يقابلها من هجرات مماثلة للنورمان في اوروبا ، فمن المفارقات والصدف أن تقع هجرات العرب من جزيرة العرب في عصر الاسلام وهجرات النورمان في العصر الوسيط الى اوروبا في وقت متقارب وان تستمر كلتاهما لفترة واحدة من الزمن . ففي مقال ضاف للاستاذ « نيفيل باربر » عضو مجلس الجمعية الملكية لاسيا الوسطى ، نشره في مجلة الجمعية سنة ١٩٧١ تناول فيه مقارنة بين هجرات العرب من الجزيرة العربية في عصر الاسلام وبين هجرة برابرة البلاد الاسكندنافية واجتياحهم لاوروبا في وقت متقارب بينهما[٨٤ب] ،

اذ يبدأ الزحف العربي سنة ٦٣٢ م ، وهي تمثل تاريخ وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فانتشر معه الاسلام كدين توحيدي سماوي ، كما انتشرت معه اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) ، ففي خلال قرن واحد امتد سلطانه من سواحل مراكش واسبانيا على البحر الاطلسي الى اواسط آسيا لمسافة حوالي خمسة آلاف ميل . ومع ان هذا الزحف توقف عند مدينة « تور » الفرنسية في عهد شارل مارتيل سنة ٧٣٢ م اضيفت الى الفتوحات العربية جزيرة كريت سنة ٨٣٠ م ، ثم اضيفت صقلية ومالطة سنة ٨٧٥ م . وفي سنة ٨٩١ م اضيفت مستوطنة في داخل خليج « سنت تروبيز » على الريفيرا الفرنسية . وتمثل سنة ٩٧٠ م التي اخليت فيها المستوطنة المذكورة (اي بعد ثمانين سنة تقريبا من احتلالها) بداية تقلص حدود الامبراطورية الاسلامية في الغرب وفي الشرق اخذت تنتقل السلطة الى ايدي حكام مسلمين من غير العرب . والفتح العربي ، سواء أكان في الغرب أو الشرق ، نقل معه اساليب الفكر العربي بما في ذلك اللغة العربية وادابها . وقد اختار الاستاذ « باربر » سنة ١١٠٠ م لتمثل نهاية الفتوحات العربية . اما النورمان فقد اعتبرت بداية زحفهم على اوروبة سنة ٧٨٩ م وهذه تسجل أولى هجراتهم الى سواحل اوروبة الغربية ، واما انتهاؤها فقد اتخذت سنة ١٢٥٠ م لنهاية فتوحهم وهي تمثل سنة وفاة الامبراطور الروماني فدريك الثاني ملك صقليا والقدس . وبذلك تكون بداية الفتح الاسلامي ونهايته قد سبقتا الزحف النورماندي بفترة تمتد حوالي ١٥٠

سنة ، كما يكون الفتح العربي والفتح النورماندي قد استمر فترة واحدة من الزمن ، هي حوالي ٤٥٠ سنة .

ثم يذهب الاستاذ باربور بعد ذلك فيشرح الخصائص المشتركة والمفارقات بين هجرات العرب وبين هجرات الرومان ، اذ يقول : « ان النورمان كانوا وثنيين وبقوا وثنيين في أولى فتوحاتهم ١٥٠ سنة حتى اقتبسوا بعد ذلك ديانة توحيدية (ويقصد بها المسيحية) وهي غريبة عنهم ، كما اقتبسوا لغة غريبة عنهم أيضا ، بينما جاء العرب بدين توحيدي جديد ادخلوه ونشروه مع لغتهم في البلاد التي غزوها ، وقد كانت لهم سلطة مركزية موحدة بخلاف النورمان الذين كونوا امارات متفرقة في البلاد التي غزوها . هذا وقد تمت اكثر فتوحات العرب عن طريق البر بينما كان غزو النورمان عن طريق البحر . وقد كان للشعبين العربي والنورماندي مواهب متميزة في تحمل شظف العيش وقساوة الطبيعة ، اذ علمت الطبيعة العرب ان يتحملوا حر وجفاف الصحراء ، في حين ان الطبيعة علمت النورمان تحمل البرد القارس ومواجهة اخطار البحر في رحلاتهم . هذا وقد تمكن العرب من نشر دياتنهم وتراثهم العربي بما في ذلك لغتهم العربية في البلاد التي غزوها وانباتها على ارضها ، فبقيت محافظة على كيانها حتى بعد افول سلطانهم ، اذ طبعوها بطابع دياتنهم ولغتهم بحيث اصبح من الممكن بعثها من جديد ، في حين ان النورمان لم يتمكنوا من تخليد لغتهم في خارج وطنهم الا بدرجة محدودة جدا في اقطار مجاورة مثل ايسلندا وبعض جزر البحر

الشـمالي • ومن الخصائص المشتركة بين الشعبين ، العـربي والنورماندي ، ان كليهما قام بهجرة وطنيهما وغزو بلاد أخـرى بسبب ضيق العيش فيهما لعوامل بشرية وطبيعية مندفعين بدافع « تنازع البقاء » لايجاد عيش افضل في خارج وطنيهما • وقـد وجد الشعبان منفذا للبلاد التي غزواها وفرضا سلطانهما عليهـا لما كانت عليه تلك البـلاد من وهن وانحـلال بسبب النزاعات والحروب السائدة فيها مما سهل احتلالها بدون صعوبة ، اذ كانت الحروب بين البيزنطيين والفرس قائمة في زمن الفتح العـربي • كما كانت الجزر البريطانية قد اهملت وسائل دفاعها لعدم توقعها ان يقدم احد على غزوها لمناعتها الطبيعية وقد عاشت حرة مستقلة مدة طويلة من غير ان تتعرض لاي غزو من الخارج • واخـيرا يتجلى الفرق بين العرب والنورمان باجلى مظاهره ، فقد تمكن العرب ان ينقلوا تراثهم وديانتهم الى الغرب باحتلالهم اسبانيـا وصقلية (انظر الرسم رقم ٣ أ ــ ملتقى العرب بالنورمان ــ) ، في حين ان النورمان اندمجوا بالشعوب التي فرضوا سلطانهـم عليها واخذوا بلغاتهم وديانتهم • هذه هي اهم ما قدمه الاستاذ باربور في مقارنته بين الخصائص المشتركة والمفارقات بين هجرات العرب من جزيرتهم وهجرات النورمان من البلاد الاسكندنافية ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تفوق حيوية واصالة الشعب العربي ، كما ثبت ذلك في سابق الازمنة السحيقـة حين أسس عرب صحراء الجزيرة اثر هجراتهم المتواصلة الى الهلال الخصيب اقدم واعظم الامبراطوريات مما عرفه تاريخ البشرية •

٩ ـ المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب هي الوطن الاصلي للشعوب السامية المهاجرة :

ان هناك شبه اجماع العلماء على ان المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هي الوطن الاصلي للشعوب السامية التي نزحت من جزيرة العرب ، وفي مقدمة هؤلاء فيلبي الخبير في شوءون جزيرة العرب فهو يوكد جازما « ان اقسام المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هي الوطن الاصلي للشعوب السامية فهي مهد العرب ومهد السامية ، منها نزحت الموجات البشرية بعد اضطرارها الى ترك اوطانها القديمة بسبب الجفاف الذى حل بجزيرة العرب[٨٥] • ثم توجهت هذه القبائل الى شمالي الجزيرة ومن هناك اتجهوا نحو وادي الفرات ومن ثم نزلوا نحو الجنوب صوب بابل • وقد ايد الخبير الانتروبولوجي الدكتور هنرى فيلد المستر فيلبي فيما ذهب اليه من ان منطقة جنوبي الجزيرة كانت الوطن الاصلي للاقوام التي هاجرت من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب ويقول ما نصه :

« ان اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان منذ العهد النيوليتي (العصر الحجرى الحديث ٧ ـ ٥ الاف سنة ق • م •) وقدهاجر قسم منهم الى عمان والخليج العربي ، وهاجر قسم اخر بطريق باب المندب الى الصومال وكينيا وتنجانيقا وهاجر فريق ثالث

طريق مارب ونجران الى شبه جزيرة سيناء وفلسطين والاردن .
هذا وقد عثر السياح على عدد كبير من الكهوف في الحجاز وفي اليمن وفي جنوبي الجزيرة اتخذها اسلاف سكان شبه الجزيرة بيوتا لهم التجأوا اليها وعاشوا فيها امدا طويلا . ويؤكد ذلك الدكتور احمد فخري في كتابه « دراسات في تاريخ الشرق القديم » (ص ١٢٦) اذ يقول : « وهناك حقيقة مهمة وهي انه في الالف الرابعة قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوبي بلاد العرب الى مصر وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة » .

وهكذا فيكون النازحون من جزيرة العرب قد دخلوا العراق من الجهة الشمالية الغربية بعد ان انتقلوا الى شمالي الجزيرة ، ثم امتدت حشودهم جنوبا سالكين طريق الفرات حتى بلغوا تخوم مدينة كيش في بابل التي تعد من اقدم المدن التي نشأت في جنوبي العراق[٨٦] ويؤكد لنكدن الذى نقب في كيش السامية مدة من الزمن قدم مدينة كيش وحضارتها فيقول : « ومما لاجدال فيه ان العنصر السامي وجد في كيش منذ اقدم الازمنة حتى انتهى الامر اخيرا الى سيطرته التامة على جميع البلاد » ويضيف الى ذلك قوله « ان مدينة كيش لم تكن اقدم عاصمة لسومر حسب بل قبضت على زمام الامور في جميع البلاد اكثر من اية مدينة اخرى حتى ظهر على المسرح سرجون الاكدى فحول العاصمة من كيش الى اكد »[٨٧] .

كما يؤكد الخبير الاثارى « واتلين » الذى شارك لنكدن في حفريات كيش نظرية بدء حضارة العرب في بلاد ما بين النهرين من

الشمال الغربي اذ يقول في الجزء الرابع من كتابه « حفريات كيش » : « ان اقدم اثر لاستيطان الانسان القديم لتربة كيش يتمثل بادوات من حجر (المايكروليثيك) التي وجدت لاول مرة في هذا المكان . وهذه الصناعة انفردت بها المنطقة الشمالية من العراق ولم يعثر على اثر لها في الجنوب . اي في منطقة اور السومرية وعلى هذا اعتقد ان وجود هذه الادوات في كيش يمثل صلة من مراحل نزوح سكان صحراء سورية (بادية الشام) في عصور ما قبل التاريخ من الشمال الى الجنوب اثر جدب تلك المنطقة ، ويبدو ان كيش تمثل اقصى الحدود الجنوبية للنازحين الساميين في تلك الازمان »[٨٨] .

وهنا يفرض السؤال نفسه ، ما هي الاسباب التي ادت الى اختيار المهاجرين لمنطقة جنوبي الجزيرة من دون بقية المناطق في الجزيرة لهجراتهم ؟ والجواب على ذلك واضح جلي ، فمنطقة جنوبي الجزيرة كانت ارقى مناطق الجزيرة تمدنا في مدارج الحضارة واكثرها كثافة في النفوس . ولما كان هؤلاء قد اكتسبوا خبرة في اعمال الري والزراعة التي مارسوها في منطقتهم في العصر الجليدي الاخير الذي عاصروه وعاشوه فكانوا يرون في انفسهم اكثر قدرة من بقية سكان الجزيرة على تطبيق هذه الخبرة في المناطق ذات الانهر الدائمة بعد ان اندرست اكثر انهارهم . وبالفعل تمكنوا في مدة قليلة نسبيا ان يستغلوا طرق الزراعة على الري التي كانوا قد ما رسوها في بلادهم واسسوا اعظم الممالك مما عرفه العالم .

١٠ ـ **اللغة العربية هي اللغة الام لجميع لهجات الاقوام السامية :**

والمسلم به باجماع الباحثين ان القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية كانت كلها تتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية الاصلية (اللغة الام) قبل ان تتفرق « وكانت الارض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة » (تكوين ١١ : ١) ثم تفرع من هذه اللغة عدة فروع انطبع كل منها بطابع المكان والبيئة الجديدة علـــى مقتضى ناموس الارتقاء • وهكذا تطورت اللغة الاصلية بتطور لهجات الاقوام الناطقة بها في مستوطناتها الجديدة حتى اضحت هذه اللهجات مغايرة لاصلها ، ولكنها مهما تباعدت بالفاظهـــا وتشعبت تراكيبها فانها بقيت محتفظة بالخصائص الاصلية التي تتميز بها لانها ترجع الى اصل واحد مشترك • وقد سمى العلماء هذه اللهجات باللهجات السامية او اللغات السامية نسبة الى سام بن نوح تمييزا لها عن اللغات الارية والطورانيـــة وقد ســبقت الاشارة الى ذلك • وتتميز صفات اللغة السامية في كونها مؤلفة من اصول ثلاثية الاحرف ثابتة وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وعلى هذه الحركات يتوقف نوع الدلالة• ولما كان العلماء قد صاروا يعتمدنو على اصـــل اللغات في تعيين صلات الاقوام بعضها ببعض ، فقد قسم بعض علماء الســاميات

اللغات السامية الى اربع مجموعات هي المجموعة السامية الشرقية، ومنها الاكدية والبابلية والاشورية ، والمجموعة الشمالية ومنها العمورية والارامية ، والمجموعة الغربية ومنها الكنعانية والفينيقية والموابية والعبرانية ، والمجموعة الجنوبية ، ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والامهرية . (انظر الفقرة ١ من هذا الفصل).

ويرجح عدد من الخبراء ان اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية حاليا هي اقرب جميع اللهجات الى اللغة العربية الاصلية التي كان يتكلم بها ابناء الجزيرة قبل ان تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة ، وذلك على اساس ان هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون ان يختلطوا بالاقوام الاخرى الغريبة في لغاتها وقوميتها . وفي هذا الموضوع يقول الاستاذ اولمستيد : « ان البدو والعرب كانوا اول من تكلم باللغة السامية ، واذا اردنا ان نتفهم الخصائص الاصلية لهذه المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلينا ان نتجه الى العربي ابن البادية السورية الذي يجوب شمالي جزيرة العرب ، لان هؤلاء هم وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون ان يطرأ عليها اى تغيير »[٨٩] . ومن ايد ذلك من المحققين المتخصصين في شؤن بلاد العرب الباحث المعروف عبدالله فيلبي الذي قام بدراساته المسهبة لاحوال جزيرة العرب ، والذي يقول : « ان اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها اقرب من جميع اللغات السامية الى اللغة الام الاصلية التي اشتقت منها جميع هذه اللغات هي على اغلب الاحتمالات اقدم لغة في العالم لم تزل حية حتى يومنا هذا »[٩٠]

ويرجع الفضل الى القران الكريم الذي حافظ على اصل اللغة الام ـ لغة الضاد ـ وهي لازالت اللغة التي يتكلم بها اكثر من ثمانين مليون نسمة في الاقطار العديدة ، وذلك على الرغم من تعرض البلاد الى غزوات الكثير من الاقوام الغربية في ثقافاتها ولغاتها قبل ظهور الاسلام • فقد صمدت الثقافة العربية امام جميع هذه التيارات مما يدل على ان التراث العربي العريق في حضارته وحيويته كان اقوى وامضى من جميع الثقافات الاخرى التي استوطنت الشرق الادنى وهو لا يزال سائدا في جميع البلاد المعروفة بالبلاد العربية حتى يومنا هذا محتفظا بخصائصه دون ان يندمج او يزول من الوجود • وفي تعليق للدكتور جواد علي حول هذا الموضوع يقول :

« وبالجملة ان هناك جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة الى اللغات السامية الاخرى . هي انسب اللغات السامية الباقية للدراسة واكثرها ملائمة للبحث. لانها لغة لم تختلط كثيرا باللغات الاخرى ، ولم تتصل باللغات الاعجمية قبل الاسلام ، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية ، او اصفى من غيرها في اقل الاحوال ، ثم انها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الاعراب ، على حين فقدت هذه الخاصة المهمة اكثر تلك اللغات ، ولهذه الاسباب وغيرها رأوا ان دراستها تفيد كثيرا في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها »[٩١] ويرى « نولدكه » خبير اللغات السامية مثل هذا الرأي اذ يقول : « انه لمن الضروري عند القيام بدراسة مقارنة بين

اللغات السامية البدء باللغة العربية ، وذلك بان ندون خصائصها ومميزاتها وقواعدها وطريقة تطور الفاظها وما الى ذلك ومن ثـم مقارنة هذه النتائج مع ما يقابلها في بقية اللغات السامية حتى نقف على ما بين تلك اللغات من مفارقات ومطابقات »[٩٢] وقد ايده في هذا الرأي « دي غويه » اذ انه يرى ان اللغة العربية ، مـن بين جميع اللغات السامية ، هي اقربها الى اللغة السامية الام واكثرها اتصالا مباشرا بها ، ويؤيد ولفنسون ايضا هـذا الرأي اذ يقول « يؤكد العلامة اولسهوزن » ان اللغة العربية هي اقرب جميـع لغات الساميين الى اللغة القديمة ودعم رأيه هذا بجملة شـواهد وادلة ارتاح لها كثير من علماء الافرنج ••• ونحن اذا نظرنا الى المعضلة من ناحية القرابة بين احدى اللغات السامية واللغة الاصلية يمكننا ان نقول ان اللغة العربية تشمل على عناصر لغوية قديمة جدا بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عما متوارد عليها من تقلبات وتغيرات يكثر حدوثها وتختلف نتائجها اختلافا مستمرا في البلدان العمرانيـة[٩٣] • مع ان اوليئاري يؤيد كون الجزيرة مهد اللغات السامية وان اللغة العربية تمثل اللغة السامية النقية لعدم تأثرها بالعناصـر الاجنبيـة الا انه يرى بان اللغات السامية لم تأخذ بساميتها الخالصة الا بعد خروجها من موطنهـا الاصلي اي بعد احتكاكها مع خليط من السكان غير السـاميين نتيجة للهجرات من جزيرة العرب فيقول : « يبدو ان اللغة العربية تمثل الى حد معين اللغة السامية النقية لانها حافظت على كونهـا اللغة الاقل تأثرا بالعناصر الاجنبيـة ، ولكننا غالبا ما نجد بانه على

الرغم من اختفاء التراكيب العربية في العبرية والاشورية بعد ان كانت ظاهرة فيها بوضوح تام فان اثارها باقية في العربية ... وقد كان انتشار اللغات السامية من الجزيرة العربية كمركز لها . وهذا لا يحتم بان الجزيرة العربية كانت موطنا للجنس السامي اذ ان اللغات السامية لم تكن مقتبسة من اللغة الحامية او غيرها . غير ان الشيء الواضح هو ان الجزيرة العربية كانت الموضع الذي ظهرت فيه الخصائص التي تتميز بها اللغات السامية ، الا اننا لا يمكننا اعتبار اللغة ظاهرة بساميتها الخالصة الا بعد خروجها من موطنها الاصلي ، اذ نستطيع ان نحدد بثقة والى حد بعيد تاريخ الفترة او التاريخ المضبوط في بعض الاحيان لظهور احدى اللغات السامية خارج الجزيرة العربية ، هذا في حين انه ليس لدينا اي دليل يقودنا الى تحديد تاريخ ظهور اللسان السامي الاول في الجزيرة . ويدلنا التاريخ على ان انتشار اللغات السامية مرتبط بهجرات الساميين المتتابعة من جزيرة العرب الى بلاد ما بين النهرين ، وارض كنعان ، وسورية ، والحبشة ، وشمالي افريقيا اما تكوين اللغات او اللهجات المختلفة فيرجع العامل المهم فيه الى ان كلا من اللغات السامية خارج الجزيرة كان تحت تأثير التداول بين خليط من السكان غير الساميين مما ادى الى حدوث تغييرات لفظية وتعديلات لغوية فضلا عن اهمال القواعد النحوية ، كل ذلك ادخل عدة اضافات على مفردات اللغة »(٩٤) .

ويقول الدكتور حسن ظاظا ، وهو من علماء اللغات السامية، « ان الساميين عرفوا اول ما عرفوا النهر لا الجبل ، اذ عاشوا على

النهرين الكبيرين اللذين كانا يشقان شبه الجزيرة من اقصاها الى اقصاها ، وهذا يفسر لنا الاسباب التي كانت وراء هجرة الساميين وانتشارهم في الشرق الادنى . كما يفسر لنا اجماع علماء النحو المقارن للغات السامية من امثال بروكلمان ووليم رايت وادوارد دوزم ودافيد يلين ، على ان اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع اقدم صورة حية من اللغة السامية الام ، واقرب هذه الصور الى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية(٩٥) .

وخير ما ننهي به هذا القسم من البحث حول حيوية اللغة العربية ودورها التاريخي في تقدم الرقي الانساني ما ذكره الاستاذ ابراهيم السامرائي استاذ اللغة العربية في كلية الاداب بجامعة بغداد في كتابه « اللغة والحضارة » (ص ٢٨ ــ ٣٠) حيث قال ما نصه : « اننا نخطيء كل الخطأ اذا اعتبرنا عصر ما قبل الاسلام عصر بداوة وتاخر وفوضى بعيدة عن اي لون من الوان الرقي الانساني ، ذلك ان النظر الى تراثنا في حقبة ما قبل الاسلام يكشف عن نواح حضارية . ان هذا النظر الخاطيء قد تاتى من لدن باحثين ارادوا ان يظهروا مادة الحضارة الاسلامية الزاهرة فوقعوا في هذه المقابلة الخاطئة . لعل قائلا يقول : ان الاية الكريمة قد اشارت الى تلك الحقبة بشيء من النبذ فوصفتها بالجاهلية والذي اراه ان هذا الوصف لايمكن ان يشمل الاشتات الحضارية في تلك الحقبة ، ولعله لا يتجاوز المعتقدات والعادات مما يبتعد عن رسالة الاسلام وجوهره وروحه .. ان العربية احدى اللغات السامية ، ولابد لي من القول ان هذه اللغات ما خلا

العربية هي لغات كتب لها ان تحيا في حقبة من احقاب التاريخ ثم عفا عليها الزمان فاندثرت وماتت ولم يبق لها وجود ... ودلالة هذا واضحة بينة من كون العربية لغة كتب لها الحياة فلم تندثر في اي بقعة من بقاعها ، واستمرار هذه الحياة هيأ لها ان تدرك من الكمال ما لم يتهيأ لغيرها من اخواتها الساميات .. ونخلص من هذا انهذه العربية هي السامية الوحيدة التي ثبتت طوال العصور المتعاقبة . ان في هذا دليـــلا على انها تحدت الصعاب وتجاوزت مشكلات جمة ، وهي بسبب من هذه الحياة المتصلة استطاعت ان تحتفظ بخصائص السامية الام ، وان تفيد من العصور المتعاقبة عليها فوائد كثيرة لم يكن شيء منها موجودا في أية لغة ســامية أخرى . »

١١ – أهم اقوال العلماء في موضوع الجفاف وهجرات القبائل العربية من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب :

وفيما يلي أهم اقوال الباحثين في موضوع الجفاف الذي حل بجزيرة العرب وهجرات سكان جزيرة العرب الى الهلال الخصيب :

أ – رأي موسكاتي صاحب كتاب « تاريخ حضارة الشعوب السامية »

يقول العالم الايطالي « سباتينو موسكاتي : « اننا لوتتبعنا تاريخ الموجات البشرية التي انطلقت في هجرات تاريخية معروفة بيقين نحو ما نسميه الان بالشرق العربي لوجدنا ان هذه الهجرات كانت دائما وابدا تنطلق من شبه الجزيرة العربية »[٩٦] .

ب – رأي فيلبي الخبير في شؤون الجزيرة العربية في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام »

وفي رأي فيلبي ان اقسام المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هي الوطن الاصلي للشعوب السامية ، فهي مهد العرب ومهد السامية ، منها نزحت الموجات البشرية بعد اضطرارها الى ترك اوطانها القديمة بسبب الجفاف الذي حل بها . وهذا نص تعبيره عن رأيه هذا حيث يقول : « اني اعتبر بلاد العرب الجنوبية هي الوطن الام لهذا الجنس من البشر المعروف الان باسم

« الساميين » وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغتـه المعروفة الان باسم « اللغة العربية » وكان هؤلاء الساميون بالتأكيد عربـا يتكلمون العربية وقد هاجروا من اوطانهم الاصلية في جنوبـي الجزيرة العربية بعد اضطرارهم الى ترك منازلهم القديمة بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثي (وهو العصر الحجري القديم الذي يبدأ حسب تقدير العلماء قبل حوالي ٣٥ الف سنة) والتوجه نحو الشمال الى اطراف الهلال الخصيب في موجات متعاقبة ، وقد سلكوا الطرق البرية والبحرية حتى وصلوا الى العراق وسورية وفلسطين وهاجروا وقد حملوا معهم كل ما يملكون من اشياء ثمينة ، حملوا معهم الهتهم واهمها الاله القمر (سين) وحملوا معهم لغتهم ثم مدوناتهم الثقافيـة في الاحقاب التالية . وقد استمرت هذه الهجرات عبر الاف السنين تارة بطيئة وتارة اخرى سريعة الحركة حتى تمكنت احدى الزمر السامية ان تثبت اقدامها في السـهل الخصيب مـن اواسـط بلاد ما بين النهرين »(٩٧) .

ج – راي توينبي في كتابه « دراسة في التاريخ »

ويرى توينبي ان عامل الجفاف الذي حل في اعقاب العصر الجليدي الاخير كان حافزا في قيام الهجرات المتواصلة من جزيرة العرب وبالتالي نشؤ الحضارات المهمـة في وادي النيل ووادي الرافدين . ويعد توينبي هذا الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الاخذة في الجفاف ، فانتقلت تلـك الجماعات البدائيـة مـن طور الصيد وجمع القوت في العصور

الحجرية القديمة الى طور انتاج القوت ، اي الزراعة وتدجين الحيوان والى طور الحضارة ايضا »[٩٨] . وهذا ما ينطبق ايضا على النظرية القائلة بان البداوة اساس الحضارة (انظر ما يلي في الفقرة ١٢ « الجفاف والبداوة ») . ويمضي توينبي فيقول : « ان هذا الحدث كان امتحانا عسيرا واستثارة قوية لسكان المنطقة المخصبة التي اخذ يحل فيها الجفاف ، وعندما جوبهوا بالجفاف المتزايد الذي نتج عن تحول اعاصير الامطار الهابة من الاطلنطيقي الى الشمال وذلك عندما تقلصت الثلوج الاوروبية كان على الجماعات البشرية وهي لا تزال في طور الصيد ان تسلك واحدا من ثلاث سبل :كان بوسعهم ان ينزحوا الى جهة الشمال او الجنوب مع حيوان الصيد سائرين في اثر المنطقة المناخية التي اعتادوا عليها من قبل ، او انهم يثبتون في موطنهم وهم في شظف من العيش ، وذلك مما يمكن الحصول عليه من حيوانات الصيد التي استطاعت ان تعيش في الجفاف او انهم ــ وهم لا يزالون كذلك في موطنهم ــ يحررون انفسهم من الاعتماد على نزوات بيئتهم وتقلباتها بتدجين الحيوان والركون ــ الى الفلاحة والزرع .

« اما الذين لم يبدلوا موطنهم ولا اسلوب عيشهم فقد كان مصيرهم الهلاك لانهم لم يستجيبوا الى تحدي البيئة الطبيعية الجافة . والذين لم يغيروا موطنهم بل غيروا من اسلوب عيشهم صار منهم البدو في بوادي (افريقية ــ اسيه) . وكان من بين الذين اختاروا تغيير موطنهم دون تغيير اسلوب عيشهم جماعات انهزمت من الجفاف بان اتبعت سير اعاصير الامطار الى الشمال

نوقعت في ورطات امر بان تعرضت الى برد البحار الشمالية .
ووقعت الجماعات التي هربت صوب الجنوب الى منطقة الامطار
الموسمية تحت تأثير مخدر هو الاطراد المناخي في المنطقة الحارة ،
واستجابت جماعات اخرى من البشر الى تحدى جفاف البيئة بل
غيرت وطنها واسلوب عيشها على السواء وكان هذا استجابة
مضاعفة نادرة ، وكانت السبب في نشؤ الحضارتين المصرية
والعراقية من الاطوار البدائيـة التي كانت عليها المجتمعات في
بوادى شمالي افريقية وجزيرة العرب ، في اراضي المراعي الخصبة
التي اخذت بالتلاشي . فعندما تحولت البقاع المعشبة المتاخمة
لوادي النيل الاسفل الى ما يسمى الان بالصحراء الليبية وتحولت
الاراضي الخصبة المطلة على وادى الفرات ودجلة الاسفل الى
الربع الخالي والى « دشتي ــ لوت » ، هاجرت من كلتا المنطقتين
جماعات جريئة من الرواد وجاءت الى وادي النيل الاسفل والى
وادي دجلة والفرات الاسفل ، وهما ارضان بكران لم يطرقهما
بشر من قبل ، فحولهما هؤلاء الرواد الى أرض مصر والى أرض
شنعار وجنة عدن المأثورة وذلك بعد سلسلة من الجهود والكفاح
مع الطبيعة البكر التي كانت ملاءى بامكانات ، ولكن الاستفادة
منها وتسخيرها للانسان استلزمت من الرواد الاوائل أن يكونوا
في كفاح مستمر معها ، فأوجدوا طرق الري والسدود وجففوا
الاهوار والمستنقعات وكانت نتيجة ذلك الصراع مع الطبيعة البكر
انشاء الحضارة العراقية في وادي الرافدين الاسفل والحضارة
المصرية في وادي النيل الاسفل »[٩٩] .

د ـ راي چايلد في كتابه « الشرق القديم »

ويؤيد جايلد توينبي ويقول في الجفاف ما نصه : « ونحن الان على ابواب انقلاب عظيم اذ سنجد بعد قليل جماعات من البشر هم المهيمنون على موارد عيشهم ، بحيازتهم على الحيوانات المدجنة وزراعة الحبوب . ولا بد لنا من ان نربط ذلك الانقلاب بالازمة التي سببها ذوبان الثلوج الشمالية وما استتبع عن ذلك من تقلص ضغط القطب الشمالي وتحول اعاصير الامطار من منطقة جنوبي البحر المتوسط الى دورتها الحالية في اوربة الوسطى[١٠٠] » (انظر ما تقدم في الفقرة ٦ من هذا البحث « راي جايلد في التطور الجوي في جزيرة العرب ») .

هـ ـ رأي ليون كايتاني[١٠١] العالم الايطالي في كتابه « تاريخ الاسلام »

يرى كايتاني ان العوامل الطبيعية بما تخللها من تطورات طرأت على البلاد العربية بسبب الجفاف البطيء واشتداد حرارة الجو ونضوب المياه قد لعبت دورا رئيسا في حمل سكان جزيرة العرب على الهجرة من وطنها الاصلي ، وكان كايتاني في مقدمة الذين تبنوا وبحثوا عن ثقة وقناعة النظرية القائلة باثر تغير المناخ في اندفاع تيار الهجرة من جزيرة العرب التي ادت الى تكوين الحضارة السامية . فقد لفت انظار العلماء الى ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب والجفاف الذي حل بها في اواخر الدورة الجليدية الاخيرة ، وهو يقول في ذلك : « في الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الاوروبية تغطيها الثلوج كانت جزيرة العرب

تتمتع بمناخ معتدل تصحبه امطار غزيرة وكثرة الزروع والاشجار ثم اخذت تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوها واسباب العيش فيها منذ اكثر من اربعة عشر الف سنة ، وان كان هـذا التقهقر بطيئا جـدا ، فان تاثيره في حياة السكان لم يكن فجائيا بل كان مطردا تبعا للقلة في الامطار وارتفاع حرارة الجو • ولم يكن هناك ازدحام في السكان كما هي الحال في البلاد المزدحمة الحالية ،وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين ، ولذلك يمكن ان يقال ان سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه الى ان اخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الامطار فانصرفوا الى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن انفسهم غائلة الجوع • ولما اشتدت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا الى بلاد اخصب تربة واجود جوا واكثر امطارا. وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مـرة • فان الاثار التي استخرجت من جوف ارض ما بين النهرين : الفرات ودجلة ، تبرهن على ان اولى الهجرات السامية العربية قد بدأت قبل نحو خمسة الاف من السنين من ميلاد المسيح • وهذه الاكتشـافات يجب ان لاتنفي فكرة حدوث هجرات سامية اخرى قبل هـــذا التاريخ للاسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الاقوام على هجرة موطنهم الاصلي وتركه الى وطـن أحسـن منـه جوا ورطوبـة هـي نفسـها التي حملت أقواما اخرين على الهجرة العامة[١٠٢] • فالجفاف الذي طرأ على وادي « تريم » قرب بحيرة « لوب نور » قد حمل الصينيين على هجـر مسـاكنهم هناك في

السنين الاخيرة وعلى ارتحالهم تدريجيا الى اعالي وادي « هونغ — هو » في مقاطعة شانسي ومنهـا الى البـلاد الصينية الاصلية ، ناهيك عما سجلته الهجرات الارية التي بدأت قبل حوالي ألفـي سنة مـن التاريخ المسيحي على خطين مختلفين . فقد بدأ خط الهجرة الاول مـن السهول المحيطـة ببحـر قزوين ماراً بجبال افغانستان شرقاً فجنوبا الى آن ينتهي ببلاد الهند الشـمالية ذات الانهر الخمسة وهي التي تعرف الان بمقاطعة البنجاب . اما الخط الثاني الذي اختاره الاريون في هجرتهم ، فقد سار باتجاه الغرب مارا بالبلاد الواقعة شمالي بحر قزوين والبحر الاسود ، وقـد استقر اولئك الاريون المهاجرون مدة من الزمن في جنوبي روسيه ثم انتشروا منها في سائر اقسام القارة الاوروبية(١٠٣) .

و ـ رأي الدكتور مورتكات في كتابه « الشرق الادنى القديم »

ومـن بين الباحثين المتخصصين الذين أكدوا الدور الفعال الذي لعبه العرب من شبه جزيرتهم العربية في التطور السـياسي والحضاري لمنطقة الشرق الادنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر العربي العالم الالماني الدكتور « انطون مورتكات » (A. Mortgat) اذ يقول : « لاتعتبر بلدان الشرق الادنى مركز الديانات حسب بل مصدر الاشعاع الديني الذي أنار الارض بكاملها ... ولم يقتصر الابداع الشرقي على اختراع الابجدية وحدها بل تعداها ليشمل الكتابة ايضا ، اي كيف على الانسان أن يكتب وبالتالي يكون الشرق العربي قد اوجد اعظم وسيلة لتدوين التاريخ ... وقد أسهم في صنع هذا التاريخ سكان مناطق الشرق الادنى وهم

شعوب الصحراء العربية وكنعان والساحل الفينيقي ، وجبال اسيا الصغرى ، وبلاد ما بين النهرين ، ومنطقة الاراضي الرسوبية على الخليج العربي ، ثم شعوب جبال ايران وهضابها . وتختلف هذه الشعوب عن بعضها دما وعرقا .. واقدم هذه الشعوب هي اسرة الشعوب السامية القادمة من الصحراء العربية وبادية الشام ، التي دخلت اراضي الهلال الخصيب على شكل موجات عديدة متلاحقة طوال ثلاثة الاف سنة .. كما ونجد هناك شعوبا أخرى أسهمت في صنع تاريخ هذه المنطقة كالسومريين مثلا الذين لا نستطيع معرفة أصلهم ، ذلك لان لغتهم بعيدة عن ان تكون مرتبطة باللغات المعروفة حتى الان »(١٠٤) .

ز - رأي ول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة »

وفي موضوع الجفاف وهجرات القبائل العربية من جزيرة العرب أيضا ، يقول العلامة ول ديورانت : « ان مهد الجنس ومرباه جزيرة العرب ،فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو الانسان شديدا عنيفا ، وحيث لايكاد ينمو نبات على الاطلاق ، تدفقت موجة اثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق اقوياء شديدي الباس لا يهابون الردى ، بعد ان وجدوا ان الصحراء والواحات لاتكفيهم ، فكان لابد لهم ان يفتتحوا بسواعدهم مكانا خصبا ظليلا يعولهم ويقوم باودهم . فاما من بقى منهم في بلادهم فقد اوجدوا حضارة العرب والبدو ، وانشاوا الاسرة الابوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنية ، والشجاعة العمياء التي تدفع اصحابها الى واد

بناتهم وتقديمهن قربانا للالهة ... وظلوا وقتا طويلا يسيطرون على التجارة مع الشرق الاقصى ، تتكدس في ثغورهم غلات جزائر الهند وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الامنة الى فينيقية وبابل ، وشيدوا في قلب جزيرتهم الواسعة المدن والقصور والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الاجانب على المجيء اليها ورؤيتها . وقد بقي هؤلاء الاقوام الاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم محافظين على عاداتهم واخلاقهم متمسكين بتقاليدهم ، ولا يزالون الى اليوم كما كانوا في ايام كيوبس وجوديا . ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفنى من حولهم . ولم تزل ارضهم ملكا لهم يعضون عليها بالنواجد ، ويحسونها من ان تطأها الاقدام الدنسة او تنظر اليها الاعين الغريبة » .(١٠٥)

ح - تعليق ولفنسون في كتابه « تاريخ اللغات السامية »

ويقول الدكتور ولفنسون في كتابه «تاريخ اللغات السامية» (ص ٥-٦) ما نصه : « والذي يمكننا ان نجزم بههو ان اكثر التحركات والهجرات عند اغلبية الامم السامية التي علمنا اخبارها واسماءها كانت من نزوح جموع عربيه اتجهت من أرض الجزيرة الى البلدان المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة، وأقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة ، وقد اسست تلك الجموع ملكا عظيما في بقعة الفرات كان لها من الحول والصول حظ وافر فيعصور شتى وكذلك هاجرت البطون الكنعانية والارامية تاركة بلاد العرب وكان لحوادثها اثر عظيم في

حياة العالم القديم .. ولم تقف هذه الهجرات العربية عند العراق وسورية وفلسطين بل جاوزتها الى مصر ايضا ، فقد توغلت قبائل سامية جاءت من ناحية الجزيرة في بلاد النيل وبسطت سلطانها على مصر وكونت في تاريخها الاسرة الحاكمة المعروفة بالهكسوس . وكذلك كانت الهجرة غمرت وجه الارض وهزت العالم باسره ؛ وكان من نتيجتها ان تغيرت احوال أمم كثيرة في اسيا وافريقيا واوروبة وانقلبت فيها كل جوانب الحياة من سياسية ودينية واجتماعية وعمرانية ، بل لاتزال الهجرة من الصحراء الى البلدان الدانية والنائية مستمرة باخطارها الشديدة وعواقبها العظيمة والتاريخ دائما يعيد نفسه » .

١٢ - الجفاف والبداوة اساس الحضارة والتمدن :

الجفاف والبداوة صنوان لا يفترقان فقد كان الجفاف الذي حل بجزيرة العرب الحافز الاول في قيام الهجرات المتواصلة من جزيرة العرب في أعقاب العصر الجليدي الاخير كما نوه توينبي ، ثم جاءت بعد ذلك حياة البداوة التي عاشها المهاجرون هائمين في البادية فترة من الزمن وهم يتحرون عن موئل مائي يلجأون اليه حتى استقروا في مستوطناتهم الجديدة في الهلال الخصيب حيث أخذوا بالزراعة والفلاحة اللتين تعتمدان على الري ، لذلك يجمع العلماء على ان البداوة مع خشونتها ومع ما تتخلله من صعاب في عيشة الصحارى هي التي أولدت الحضارة والتمدن وهي التي مهدت السبل لتأسيس الامبراطوريات في العالم ، وقد يسأل سائل : وهل كان بامكان سكان الجزيرة البدو الذين احتضنوا رمال صحاريهم وبواديهم ان يؤسسوا الامبراطوريات والممالك ؟ .... ويكفي هنا أن نرجع بالقاريء الى أقرب دور تاريخي منا ، أي دور الامبراطورية الاسلامية ، فمن أسسها ؟ ألم يكن بدو الجزيرة أنفسهم هم الذين قاموا بتشييد هذه الامبراطورية العظيمة والواسعة ؟ فبدو الجزيرة هم هم لم يتغيروا ، فاذا استطاعوا قبل حوالي أربعمائة وألف سنة ان يقيموا مثل هذه الامبراطورية التي شملت العالم الاسلامي الواسع فهذا وحده دليل جلي على

انهم ورثوا هذه الكفايات عن تراثهم الاصيل الذي لم يزل حتى يومنا هذا يتمتع بالحيوية نفسها في بعث الروح القومية العربيه . والتاريخ يعيد نفسه • وهل كان النورمان الذين اجتاحوا أوروبا وطبعوها بطابعهم أكثر تمدنا من عرب الجزيرة ؟ ، وأروع ما كتب في هذا الباب ، عرض ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، اذ يرى ان البداوة هي أصل الحضارة والعمران والامصار مدد لها ، وان أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وانها أصل لها ، كما يرى أن تطور البداوة الى المدنية أمر طبيعي ، والسبب في ذلك ان البداوة أقرب الى الفطرة وتتميز بخصائص خاصة بها بعيدة عن الترف والشهوات كما تتصف بالشجاعة والعصبية ، فيشبه ابن خلدون البداوة بالوحشية ويزعم ان الأمم المتوحشة ، أي التي تعيش عيشة البداوة هي التي تكون المدنية والحضارة بما تتمتع به من حيوية وعصبية وشجاعة وهي أقدر على التغلب على الصعاب لأن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم ، فيقول : « لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلنا • لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الاخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الاعصار فكلما نزلوا الارياف وتفننوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف

يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن اديمها وكذلك الآدمي المتوحش اذا انس وألف وسببه أن تكون السجايا والطبائع انما هي عن المألوفات والعوائد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب الى التغلب على سواه اذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية » .

وفي رأي ابن خلدون أيضا ان لدى الامم والدول أعمارا طبيعية كما للاشخاص فبعد أن تهجر البداوة والخشونة وتنغمس في اللذات والشهوات وتتخذ الدعة والراحة والرقة مألفا وخلقا تأخذ بـدبيب العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمـراض مزمنة من الهرم الى ان تقضي عليها » . ويمضي ابن خـلدون فيقول : « وربما يحدث في الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة ان يتخير صاحب الدولة أنصار وشـيعة من غير جلدتهم ممن تعوّد الخشونة فيتخذهم جندا يكونون أصبر على الحرب واقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره . وهذا كما وقع في الدولة الترك فتخير ملوكهم من اولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسـانا وجندا فيكونون اجرأ على الحـرب واصبـر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله . وكذلك في دولة الموحدين في أفريقيا فان صاحبها كثيرا ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل

الدولة المتعودين على الترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم » .

لذلك فليس من غريب الاتفاق أن يؤكد تونبي المؤرخ المشهور في هذا العصر النظرية ذاتها بعد ابن خلدون بأكثر من خمسمائة عام فيرى ان الجفاف الذي حل بالجزيرة العربية وأدّى الى تحويلها الى صحار قاحلة وحمل أهلها الى تطوير حياتهم الى خشونة البداوة ، كان « عاملا في نشوء الحضارات المهمة في وادي الرافدين . وبعد الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة في الجفاف ، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة الى طور انتاج القوت أي الزراعة وتدجين الحيوان والى طور الحضارة أيضا »(١٠٦) .

ومثل ذلك يؤكد العلامة ول ديورانت : « ان البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر في سطحها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الاستوائية تحاول اشجارها على الدوام أن تقضي على معالم الانسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها بل تظل قرونا طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الانسان المتحضر »(١٠٧) .

وفي بحث لجرجي زيدان بعنوان « البداوة غذاء الحضارة »

يقول : « ان الحضارة تبعث على الرخـاء والترف والانغماس في الملذات والاركان الى الراحة فتذهب تلك القـوة وتـؤول الى الضعف . والبداوة تقوي الابدان وتربي النفوس على الاستقلال ، فلذلك كان أهل الحضارة أو المدن يستعينون بأهل البداوة أو الجبال فيما يحتاج الى جهد ، حتى اذا شاخت الدولة المتحضرة خلفها جيرانها البدو أو الجبليون بالفتح أو نحوه وقاموا مقامهـا واقتبسوا عادات أهلها ودياناتهم ، ثم لا يلبثون أن يدركهم الهرم فيخلفهم سواهم من أهل البادية سنة الله في خلقه »[١٠٨] .



١٢ ـ أقدم وجود للساميين في وادي الرافدين :

ان أقدم وجود للساميين في وادي الرافدين يرجع الى ماقبل ٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فكانت أولى هجراتهم من جنوبي جزيرة العرب الى شمال الجزيرة ومنها توزعوا على سورية وفلسطين ، وهنا أسسوا دولة عرفت باسم دولة « عمورو » أو « مارتو » في السومرية واتخذوا « ماري »[١٠٩] عاصمة لهم وصاروا يعرفون بالعموريين ، فانتشروا في المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط الى الفرات منذ الألف الرابعة او الخامسة قبل الميلاد[١١٠] .

وفي الجانب المقابل لمدينة ماري تقع آثار أقدم مشروع ري أقامه العموريون على نهر الخابور تقع عليه أقدم الآثار في « تل باغوز » الذي يعود تاريخه الى حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد (انظر ما تقدم عن هذا المشروع وقد مر بحثه في الفقرة ٨ من هذا البحث) .

وفي شمالي مدينة ماري اكتشف مؤخرا في جنوبي مدينة حلب موقع مملكة (بلاد العمورية التي كان قد ذكرها سرجون الاكدي هي وماري من ضمن المناطق التي استولى عليها كما ورد ذكرها أيضا في كتابات نرام سين بعد ذلك . وكان موقع هذه

المملكة وعاصمتها ابلا مجهولا حيث كان يظن انها تقع على السواحل الفينيقية . وتكمن أهمية هذا الاكتشاف فيما عثر عليه من كتابات تعود الى الألف الثالثة قبل الميلاد تمثل أقدم لغة سامية معروفة حتى الآن وهي أقرب شيء الى الكنعانية القديمة أو أم اللغات السامية(١١١) .

ومن الآثار التي تركها العموريون في سورية أيضا منطقة تل حلف أو خابور نهر جوزان الوارد ذكرها في التوراة . وتل حلف تل أثري يقع في شمالي سورية على بعد خمسة كيلومترات جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور (خابور الفرات) يرجع تاريخ آثاره الى الحقبة الممتدة من حوالي سنة ٤٨٠٠ الى سنة ٤٣٠٠ ق.م . والارجح ان منطقة (خابور نهر جوزان التي نقل اليها قسم من الاسرى اليهود في زمن ملوك آشور هي نفس منطقة جوزانا الولاية الآشورية القديمة في أعالي نهر الخابور في شمالي سورية(١١٢) .

وكانت لغة العموريين من اللغات السامية الغربية وهي شبيهة باللغة الكنعانية والفينيقية السامية مع اختلاف بينها في اللهجة وكلتاهما من فروع كتلة اللغات السامية الغربية الشمالية أي اللغات السامية في سورية تمييزا لها عن اللغات الجنوبية التي تصنف مع كتلة اللغات الشرقية أي مع الأكدية والبابلية والآشورية . أما الالواح التي عثر عليها في ماري فقد كتبت بالخط المسماري وباللغة الاكدية ولكن لهجتها تميل الى السامية الشمالية الغربية .

ويرى بعض الخبراء الآثاريون ان الساميين قد ازدادوا في العراق منذ سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهي الفترة التي ظهرت فيها بوادر الكتابة الصورية[١١٣] . كما أرجع البعض الآخر تاريخ وجودهم في وادي الرافدين الى الألف الرابعة قبل الميلاد[١١٤] . في حين نجد رأيا آخر يشير الى انهم قد سبقوا السومريين في النزول الى سواد العراق[١١٥] .

وأهم دراسة علمية لموضوع تواجد الساميين في وادي الرافدين هي الدراسة التي قام بها الاستاذ عبدالكريم عبدالله ، فنشر مقالا ممتعا بعنوان « ملامح الوجود السامي في جنوبي العراق » في مجلة سومر (م ٣٠ — ١٩٧٤ ، ص ٥٩ — ٧٧) ضمنه نتائج دراسته . فقد اعتمد الاستاذ عبدالكريم في دراسته هذه على ثلاثة شواهد هي : أولا ، الطبيعة الجغرافية واستمرارية التدفق ، ثانيا ، الشواهد اللغوية ، ثالثا ، أسماء الملوك والحكام . فيثبت بالنسبة للشاهد الأول ان وجود الساميين في العراق كان أمرا طبيعيا حتمته الطبيعة الجغرافية للمنطقة . فالعراق امتداد لارض بلاد الشام وصحراء جزيرة العرب ولا يوجد أي حاجز طبيعي يعيق تحرك هذه الجماعات ، فالأرض واحدة يسكنها قوم واحد يرجعون في الغالب الى أصل واحد يؤكد الطابع المميز لسكان هذه المنطقة . وما تحرك القبائل العربية في العصر الحاضر مثل عنزة والظفير وشمر بين نجد والعراق الا امتداد للهجرات القديمة من جزيرة العرب . لذلك ان تحرك الساميين من شبه جزيرة العرب نحو شمالها (بلاد الشام) وشمالها الشرقي (العراق) والاستقرار فيه كان قديما

قدم وجودهم فيها ، أما الشواهد اللغوية على وجود الساميين في القسم الجنوبي من العراق وجود مفردات في اللغة السومرية وهي أقدم لغة ظهرت في القسم الجنوبي ، ففي هذه اللغة القديمة مفردات تشترك مع مفردات سامية في اللفظ والمعنى أحيانا . وهذا يدل على وجود الساميين منذ أن وجد السومريون . وأهم ما يمكن أن نستخلصه من هذه الكلمات التي أمكن الحصول عليها انها استخدمت في عصور قديمة جدا ترجع الى أوائل ظهور الكتابة الصورية . ولما كانت بوادر الكتابة قد ظهرت في حدود منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد ، لذلك فان وجود جماعات من الساميين في العراق يكون أقدم من ذلك[116] .

وكان الساميون قد أقاموا مراكز تجارية في أقطار مجاورة فكانت قوافلهم تمر عبر بلاد وادي الرافدين ، وكان ذلك يحتم اقامة ساميين في وادي الرافدين الذي كان يشكل حلقة وصل مابين تلك الاقطار . وكانت أهم هذه المراكز التي أقامها الساميون في الاقطار الآسيوية في منطقة كبدوكية بآسيا الصغرى والتي استنجد سكانها بمؤسس الدولة الاكدية سرجون لحمايتهم[117] .

وأما شواهد اسماء الاشخاص فقد ثبت لدى العلماء ان ملكا يحمل اسما ساميا حكم في أريدو ، أقدم مدينة سومرية هبط فيها نظام الحكم من السماء أول مرة قبل الطوفان كما تذكر الاثباتات الملكية نفسها . واسم هذا الملك « الولم »[118] هذا ما يثبت بما لا يقبل الشك ان السومريين والساميين وجدوا في وادي الرافدين

منذ بداية استيطان الانسان في منطقة جنوبي العراق ، وهناك أدلة على وجود شخصيات سامية اخرى عاشت مع السومريين وتولت القيادة الادارية كملوك وحكام في عدد من المدن السومرية بعد الطوفان مباشرة[١١٩] وقد كانت مدينة كيش السامية أول مدينة هبط فيها نظام الحكم من السماء بعد الطوفان مباشرة كما تذكر ذلك اثباتات الملوك . ومعنى ذلك ان أول سلالة حاكمة في العراق بعد الطوفان كانت فيها وذلك يشير الى ان القيادة الادارية في العراق بعد الطوفان كانت بيد الساميين وانه كان لهذه المدينة دورها الرئيس بالنسبة للوجود السامي والقيادة الادارية بخاصة اذا علمنا بأن اللغة المستعملة في تلك الفترة في مدينة كيش كانت اللغة السامية واللغة السومرية[١٢٠] .

ويستخلص الاستاذ عبدالكريم عبدالله من دراسته بأنه « يمكن القول ان الساميين قد وجدوا في وادي الرافدين منذ أزمنة قديمة جدا تسبق العصور التاريخية ، وانهم قد تركزوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر ، كما انهم انتشروا في عدد من مدن بلاد سومر منذ بدايات عصور فجر السلالات[١٢١] لذلك فان ظهور الاكديين في بلاد الرافدين (حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو من بلاد الشام الى العراق كما انهم لا يمثلون ــ كما يرى البعض ــ فتحا أجنبيا له . اذ ان الهجرة الأكدية لم تكن في الواقع فتحا أجنبيا بقدر ما كانت تحركا شعبيا اتجه من جزء من موطنه نحو آخر تمثلت فيه وفرة الماء وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخر

سبقتها في الاستقرار بفترة لا يمكن تحديدها بالضبط . وكانت مدينة كيش من أقوى مراكز ذلك التجمع وأنشطها في الحفاظ على الوجود السامي وفي تحقيق زعامته السياسية لتوحيد دويلات المدن . لذلك انطلقت منها فكرة توحيد دويلات المدن التي حققتها فكرة تأسيس الدولة الأكدية ، فانبثقت منها بالفعل وتأسست فيها بعد ردح من الزمن الدولة الأكدية التي حققت وحدة البلاد الادارية والسياسية[١٢٢] .

١٤ – **حضارة العرب تنتقل في مرحلتها الثانية من جزيرة العرب وتستقر في وادي الرافدين وتؤسس حضارتها الكبرى فيه :**

لقد سبقت الاشارة الى أن القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب استطاعت بفضل الخبرة في شؤون الري والزراعة أن تؤسس حضارتها الكبرى في وادي الرافدين . والتي تمخض عنها اقامة أربع امبراطوريات ساميات متتالية ، أي الأكدية والبابلية والآشورية والكلدانية الآرامية . وهذه كلها تتسم بسمة العربية لأن أهلها كانوا عربا نزحوا من جزيرة العرب ونقلوا معهم حضارتهم النهرية القديمة التي كونوها في وطنهم الأصلي في العصر الجليدي الأخير بما في ذلك لغتهم العربية الأم ، لذلك لا يمكن أن يكونوا الا عربا متمسكين بقوميتهم العربية .

لقد ازدهرت هذه الحضارة العربية الأصل في مرحلتها الثانية أول مرة على يد الأكديين قبل حوالي ٤٥٠٠ سنة وعاشت دولتهم حوالي ٢٠٠ سنة (٢٣٥٠ – ٢١٥٩ ق٠م٠) . ثم خفتت مدة من الزمن ، ولكنها لم تلبث حتى بعثت من جديد على يد العموريين البابليين بعد حوالي خمسة قرون في هيأة المملكة البابلية الأولى التي عاشت حضارتها حوالي ثلاثة قرون بين سنة ١٨٩٤ – و١٥٩٤ ق٠م٠ ثم اعتراها الوهن والذبول ، ولكنها لم يكد ينتهي دورها

حتى ظهرت الدولة الآشورية على المسرح وقد امتدت حضارتها حوالي ألف سنة بين ١٥٩٥ وسنة ٦١٢ ق. م. ثم زالت الدولة الاشورية فخلفتها الدولة البابلية الثانية عندما كوّن الآراميون الدولة الكلدانية التي عاشت حضارتها حوالي قرن واحد (٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م.) . ثم بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كوّنت في خلالها دولا عربية كدولة الغساسنة في سورية والمناذرة في العراق والانباط والتدمريين وغيرها من الامارات العربية كامارة كندة وامارة الحضر وامارة الرها وامارة حمص وسنجار وغيرها على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين ، حتى ظهر الاسلام فانبعثت الحضارة العربية من جديد ، وعادت فنبعت من منبعها الأصلي (جزيرة العرب) واسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التي سبقتها ، بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبه) وعاشت الحضارة العربية في القارة الاخيرة في الاندلس حوالي ٨٠٠ سنة (٧١٢ ـ ١٤٩٢ م) ، وقد حاولت أوروبا قهر الكيان العربي في مهده وابادته ، ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالي ١٥٠ سنة .

لذلك ان أهم ما تميزت به حضارة العرب في وادي الرافدين في مرحلتها الثانية انها ذات طابع أصيل (مرحلة التعاقب والانبعاث) وذات طابع استمراري متواصل عبر العصور التاريخية ، بخلاف الحضارة المصرية القديمة التي وقفت عند حدها وانتهت بانتهاء عهدها القديم ، وكذلك الحضارة السومرية التي انقرضت على أثر تغلب الساميين على زمام الحكم ، كما اندثرت مثلها كثير من

الحضارات القديمة كحضارة الماية والاينكا في أواسط أمريكا وغيرها من الحضارات التي انقرضت(١٢٣) .

ويلاحظ ان اندثار هذه الدول العربية بصورة متتالية ثم انبعاثها من جديد عدة مرات عبر التاريخ كان يتم في المكان نفسه الذي اسست فيه ، وهو وادي الرافدين ، ولم تنتقل من مكان الى آخر ومن شعب الى آخر كما حدث في انتقال الحضارات الأخرى الى أماكن غير مكانها الأصلي ، هذا ما يوحي احتمال انبعاث الحضارة العربية من جديد في مكانها الأصلي في المستقبل كما حدث في الماضي ، والتاريخ دائما يعيد نفسه .

يتضح مما تقدم ان الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب وانتشرت في مختلف أنحاء الهلال الخصيب كانت من أهم العوامل في تقدم الكيان الحضاري في الشرق الأدنى والسير به نحو التطور في مختلف الميادين : الزراعية والتجارية والسياسية والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية والدينية ـ ذلك الكيان الذي انبثقت منه أقدم الامبراطوريات وأعظمها مما عرفه التاريخ البشري ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك . فالجزيرة العربية اذن هي بحق مهد الحضارات ، ومن هذا المنبع انبجست مياه الحياة الى العالم أجمع أول مرة في التاريخ البشري ، ومن هذا المكان نفسه انبثقت شعلة الحضارة الاساسية أول مرة في تاريخ الانسانية

ثم لما حل عصر الجفاف في أعقاب الدورة الجليدية الرابعة والاخيرة قامت الهجرات تتوالى من جزيرة العـرب الى الهـلال الخصيب ، فكانت نتيجة ذلك ان نقل المهاجرون الى مسـتوطناتهم الجديدة حضارتهم النهرية من جزيرة العرب حيث اسسوا حضارتهم الكبرى في وادي الرافدين الذي تمخضت عنها أعظم وأقدم الامبراطوريات مما عرفه العالم ٠

وفيما يلي ندرج نبذة تاريخية عن كل من هذه الامبراطوريات التي سميت بالسامية خطأ حسب تسلسلها التاريخي :

١٥ ـ أول امبراطورية عربية تؤسس في وادي الرافدين ـ الدولة الاكدية (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق٠م٠) :

الأكديون هم من أقدم القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت في وادي الرافدين منذ أقدم العصور واستقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات الغربية في البقعة الممتـــدة بين دير الزور وهيت ، وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم باعتبارها مجاورة لبادية الشام ، ثم انحدروا جنوبا حتى اتصلوا ببلاد سومر ودام هذا الاحتكاك بين الأكديين والسومريين عدة قرون حتى تمكن الزعيم الأكدي سرجون الاول (٢٣٤٠ ـ ٢٢٨٤ ق٠م٠) من القضاء على المملكة السومرية وأسس أول امبراطورية عربية ، وهو يعتبر أول قائد عربي عرفه التاريخ ومؤسس أول مملـــكة عربية عظيمة في غربي آسيا شملت معظم أقسام الهلال الخصيب وبلاد عيلام وجزءا مهما من آسيا الصغرى الى البحر المتوسط . وضمت هذه المملكة بلاد آشور وما حولها شمالا وبلاد الگوتيين (قبائل زاغروس) ، وسيطرت على أشهر الموانيء الفينيقية ومنها الى جبال « الفضة » (جبال طوروس) كمـــا سيطرت على بلاد الشام ومنها المدن الواقعة على طول نهر الفرات التي تضم مملكتي ماري وأبلا ، ويروى عن سرجون انه وصل الى جزيرة كريت ٠ وقد اسس سرجون اسطولا في الخليج العربي بعد استيلائه على

للدويلات السومرية في جنوبي العراق ، فمخر البحر المعروف اليوم ببحر عمان وبحر العرب ليضم جزائرهما الى مملكته ، وهنا غسل يديه في مياه البحر كحاكم على بلاد أكد وبلاد سومر . ودام حكم سرجون ٥٦ سنة (٢٣٤٠ ـ ٢٢٨٤ ق.م.) ، أما حكم الدولة الأكدية فدام حوالي ٢٠٠ سنة (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق. م.) .

وفي نص ورد على لسان سرجون يقول : « ان امي كانت كاهنة ؟ ولم أعرف أبي وكان متجولا ، وأصلي من مدينة الزعفرانية على الفرات وحملت بي أمي ووضعتني سرا فاخفتني في سلة من الحلفاء مقيرة وغطتها ورمتني في الماء الذي لم يغرقني وحملني الماء الى اكي ساقي الماء فانتشلني اكي ورباني واتخذني ولدا وعينني بستانيا عنده وبينما كنت أعمل بستانيا أحبتني عشتار وتوليت الملوكية »[١٢٤] . وقد فسر الدكتور حسن ظاظا قول سرجون انه (لم يعرف أباه وكان متجولا) ما يفهم منه صراحة انه وعشيرته نزحوا الى العراق من شرقي جزيرة العرب[١٢٥] .

وكانت نهاية هذا الفاتح العربي الكبير سرجون العظيم الذي ملك أقطار الأرض نهاية محزنة بثورة عامة من رعاياه عليه اشتركت فيها جميع الاصقاع السومرية وما جاورها كبابل وبلاد العيلاميين، فاضطر سرجون الى الانتحار[١٢٦] ، وقد ذكر البابليون في تواريخهم ان ندماء سرجون ذبحوه باختامهم الاسطوانية[١٢٧] . بعد أن حكم ستا وخمسين سنة كما تقدم .

وكان أبرز ملوك الامبراطورية الأكدية بعد سرجون حفيده

الملك « نرام ـ سين » الذي لقب نفسه « ملك الأقاليم الاربعة » ـ ملك العالم ودام حكمه ٣٧ سنة (٢٢٦٠ ـ ٢٢٢٣ ق٠م٠) ٠

وقد أصبحت اللغة الأكدية بعد استتباب السلطة الأكدية الحاكمة اللغة الرسمية في جميع العـراق وفي أكثر الاقطار التي خضعت للحكم الاكدي ٠ واللغة الاكدية ومعها البابلية والآشورية هي من اللغات السامية الشرقية تمييزا لها عن اللغـات السامية الغربية الشمالية (أي اللغات في المنطقة السورية) ٠ وقد استمرت الاكدية كلغة التخاطب في العهد البابلي القديم والعهد الاشـوري والعهد البابلي الاخير حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، ثم زاحمتها اللغة الآراميـة حتى ازالتها من التـداول ٠ وقـد اقتبس الأكديون الخط المسماري الذي كان شائعا استعماله في العراق كما استعاروا عبارات جمة من اللغـة السـومرية بعد اختلاطهم بالسومريين ٠

والأكديون كانوا أول من ابتدع نظام الامبراطورية وذلك في تعيين الحكام في الاصقاع التي يحكمون فيها باسم الدولـة الأكدية ، وقد سبقوا جميع الامم الى ذلك ، فهم منشـؤو نظام الحكم الدولي المعروف والمتبع الى اليوم في العالم(١٢٨) ٠

كما كان الاكديون أول من أدخل الى العراق الحضارة النهرية القائمة على الزراعة التي تعتمد على الري الدائم (Perennial Irrigation) وهي الحضارة التي كان قد أسسها العرب في جزيرتهم قبل نزوحهم منها وقد سماها بعض الباحثين الحضـارة

الاروائية أو الحضارة النهرية ، لذلك تعد بلاد العرب الوطن الاول لنظام الري الدائم المذكور . وبفضل الخبرة التي كان قد اكتسبها الاكديون في وطنهم الاصلي في جزيرة العرب تمكنوا من تأسيس أول امبراطورية عربية في التاريخ بزعامة سرجون الاول في زمن يعد قصيرا نسبيا وقد سبقت الاشارة الى ذلك .

وكان الاكديون قد برعوا في النحت والنقش فركزوا اهتمامهم في اظهار التفاصيل الدقيقة في الاختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التي كانت موضع عناية السومريين . ولم يمض زمن طويل على الاكديين حتى أصبح نقاشو الحجارة الكريمة منهم ينافسون من علمهم هذه الصنعة .

وفي حدود حوالي سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد انهارت الدولة الاكدية ولم تستطع الثبات لهجمات قبائل جبلية تعرف بالگوتيين انحدروا من جبال زاغروس ، ولم يكونوا يعرفون طراز الحكومات المنظمة والدول المحكمة ، فصار مسجل الاخبار في أيامهم يسأل مَن الملك منهم ومَن غير الملك ؟ حتى يذكر أخبارهم . ولم يجد ما يدونه غير أخبار اضطرابهم الشامل . وقد وجد ثبت طويل بأسماء ملوك هؤلاء الگوتيين ولم يعرف عنهم شيء . وذكر بعض المؤرخين ان الأمن قد اختل في العراق في عصر الگوتيين فانهم لم يهتموا (على حسب قولهم) بشيء سوى ابتزاز ثروات البلاد وحكمها بالاستبداد .

١٦ ـ المملكة البابلية الأولى (١٨٩٤ ـ ١٥٩٤ ق.م.) :

حكمت أسرة سرجون نحوا من قرنين ولكن الاكديين لم يستطيعوا منع الدسائس ، فكان عهدهم مملوءا من الثورات والقتل والاغتيالات . وزادت الحال سوءا وشرا بغزو الكوتيين المقدم ذكرهم ، ثم انتهى أمر هؤلاء بأن طردوا من البلاد بعد ان حكموا فيها نحوا من قرن قضوه بالانتهاب والاستلاب ، وبعد ان تغافلوا عن نهضة السومريين أصبح في استطاعة المدن السومرية أن تستأنف نهوضها وتستعيد سلطانها ، وكانت الكلمة بينهن لمدينة اور وصارت لها الزعامة على غيرها . واختلط الاكديون بالسومريين لعلمهم ان التفرقة شقاء للطرفين وتعس للشعبين ، فرضي الاكديون بأن يساهموا في التنظيم الجديد وأصبحت المملكة السومرية الاكدية تدعى باسم سومر وأكد ولقب الملك (بملك سومر وأكد) وازدهرت البلاد في تلك الامصار وبذل الحكام كل ما في وسعهم ليصلوا الى أعلى مراتب الحضارة المعروفة آيامئذ فحققوا ما سمي بعد ذلك بالحضارة البابلية من جديد[١٢٩] .

ففي هذا الدور الذي شهد الازدهار الحضاري بفضل تعاون العنصر السامي والعنصر السومري كان قيام الانبعاث السومري الذي دام حوالي ٢٥٠ سنة (٢٢٨٠ ـ ٢٠٠٣ ق.م.) فازدهرت

في هذا الدور سلالة لجش الثانية (٢٢٨٠ ــ ٢١٠٩ ق٠م٠) وكان اعظم ملوكها « كوديا » (٢١٤٤ ــ ٢١٢٤ ق٠م٠) ، وكذلك سلالة اور الثالثة التي كانت لها الزعامــة في البــلاد (٢١١١ ــ ٢٠٠٣ ق٠م٠) واعظم ملوكها « اورنمــو » (٢١١١ ــ ٢٠٩٤ ق٠م٠) ولكن هذا الدور المزدهر لم يدم طويلا ففي السنة الاخيرة من حكم « ابي ــ سن » آخر ملوك سلالة اور الثالثة هجم العيلاميون على البلاد واحتلوها وأسروا الملك « ابي ــ سن » وساقوه الى عيلام ودمروا البلاد ، وهكذا شهدت السنون الاخيرة من الالف الثالثة قبل الميلاد احتضار الشعب السومري في نهضته الثانية وانقرض به حكم السومريين نهائيا ٠

وبعد سقوط سلالة اور الثالثة تألفت عدة دويلات في مــدن مختلفة احداها في ايسن والاخرى في لارسا والثالثة في بابل وكان النزاع على أشده فيما بينها فساعد هذا التنازع الذي استمر نحو قرنين العموريين على اظهار استقلالهم في بابل وما حولها بعــد انتصارهم على المدن المتنازعة فتشكلت المملكة البابلية السامية التي صارت تعرف بالمملكة البابلية القديمــة وتعرف بالســلالة العمورية أيضا ٠ وهي المملكة السامية الثانية بعد الامبراطوريــة الاكديــة ٠

نستخلص مما تقدم ان العنصر السامي (العــربي الاصل) بحضارته الاصيلة كان هو البارز في مجرى جميع الاحداث التي مرت على البلاد على الرغم من ان الاكديين فقدوا سلطانهم في فترة

الانبعاث السومري مابين سنة ٢٢٨٠ و ٢٠٠٣ قبل الميلاد التي دامت حوالي ٢٥٠ سنة ، ولكنه لم يفقد حيويته اذ يعود الآن ليستأنف رسالته الثقافية ويضمن استمرار حضارته في هذا العهد البابلي ، فلولا الحضارة السامية التي دخلت بلاد وادي الرافدين بعد نزوح القبائل العربية من جزيرة العرب وقيامهم بهجراتهم المتوالية الى وادي الرافدين لما أمكن السومريين ان يستعيدوا نشاطهم الحضاري في دور الانبعاث السومري من غير ان يتعاونوا مع العنصر السامي الذي عاشوا تحت حكمه حوالي مائتي سنة بدليل ان العنصر السومري لم يستطع الصمود أمام التيار السامي فاندثرت ثقافته وحضارته نهائيا وتغلب العنصر السامي وحضارته بتأسيس المملكة البابلية التي أقامها العموريون .

ويرى الخبير الالماني انطون مورنكات ان الموجة السامية الاولى (موجة ميسيليم) احدثت تغييرا محسوسا في عصور فجر التاريخ في بلاد ما بين النهرين ، يقول : « مما لا شك فيه ان ولوج السومريين الذين شيدوا أقدم حضارة مزدهرة في بلاد ما بين النهرين خلال عصري الوركاء[١٣٠] وجمدة نصر[١٣١] لابد وان يكون قد رافقه تغلغل الساميين الذين جاءوا من بادية الشام وذلك على الاقل خلال عصر ميسيليم ان لم يكن قبله . تأكيدا لذلك فقد زودتنا حفريات ماري (تل الحريري) في أواسط الفرات بكتابات سامية دونت بالخط المسماري والتي لا يمكن ان تكون أحدث بكثير من عصر ميسيليم ملك كيش وذلك اذا انطلقنا من خلال دراسة نوع الخط وعلاماته الفارقة . بناءا على ذلك يمكننا ان

نعلل الانقلاب الاول الذي أعقب عصر جمدة نصر وهو عصر ميسيليم كنتيجة لتطعيم السومري القوي بدم الشعب السامي . وختاما لابد لنا من التوضيح ان السامية قد ظهرت الى الوجود في عصر ميسيليم خلف لباس سومري دون أن تكون سامية خالصة(١٣٢) .

تألفت هذه الدولة البابلية السامية في أعقاب عهد ايسن ولارسه المضطرب من العموريين العمالقة الذين انحدروا من أعالي الخابور (خابور الفرات) الى الجنوب مع مجرى الفرات واستقروا في بابل . استمرت دولتهم هذه في حكم العراق حوالي ثلثمائة عام باسم سلالة بابل الاولى أو السلالة العمورية حكم في خلالها أحد عشر ملكا اشتهر من بينهم سادسهم الملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية الشهيرة الذي حكم ٤٢ سنة بين سنة ١٧٩٢ وسنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وقد بلغت المملكة أوج عظمتها في عهده . وكان أول ملوك هذه السلالة الملك « سمو ــ ابوم » حكم ١٣ سنة بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٨١ قبل الميلاد ، وقد اتخذ بابل عاصمة له ، وكانت بابل حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد ، كان يقطنها بعض الاعراب الغربيين وبقايا الاكديين الذين كانت عاصمتهم أكد قريبة من منطقة بابل ، فصارت قرية بابل بعد ذلك ذات شأن عظيم في تاريخ البلاد حتى ان اسم بابل اطلق على القسم الوسطي والجنوبي من العراق . وتعتبر سلالة بابل الاولى هذه الموجة السامية الغربية الثالثة التي دخلت بلاد وادي الرافدين من الجزيرة العربية من شمالها الشرقي وقد كانت أولى هذه الموجات الثلاث جماعة

ميسيليم ملك كيش وذلك حوالي السنة ٢٦٦٠ ق٠م٠[١٣٣] ، ثم كانت الموجة الثانية موجة الاكديين حوالي سنة ٢٣٥٠ ق٠م٠ وهذه هي الموجة الثالثة ٠

وقد شن حمورابي في بداية حكمه حربا على بلاد سومر الجنوبية فضمها الى مملكته وأسرع في اخضاع دويلات مابين النهرين المهمة مبتدئا بدولة آشور في الشمال فاستولى على مدينة آشور ثم الحق بمملكته مملكة ماري السامية وتقدم شمالا على الفرات وافتتح المدن الغربية من بلاد الشام وسواحلها ثم ضرب العيلاميين ضربة شديدة ، وهكذا ضم حمورابي الى حكمه قسما كبيرا من بلاد الشرق الادنى واسس الامبراطورية البابلية القديمة الواسعة ٠ ولم تقتصر شهرة حمورابي على أعماله الحربية بل امتدت الى الاصلاحات التي قام بها والى نشره الحضارة البابلية وثقافتها في البلاد التي فتحها ، وعنى عناية شديدة بادارة المملكة وضبطها وتهذيبها ، وقام بمشاريع عديدة وبخاصة مشاريع الري فنشر الرخاء في البلاد ، كما عنى عناية خاصة بالشؤون الدينية والعدل ، وقد مد حمورابي جسرا على الفرات يصل جانبي مدينة بابل ، وكانت السفن التي لا يقل عدد ملاحيها أحيانا عن تسعين ملاحا تمخر عباب الفرات صاعدة ونازلة ، وأصبحت بابل من أغنى المدن والعواصم التي عرفها تاريخ العالم القديم ، واتسعت المملكة البابلية حتى دخلت في حكمها اصقاع الدولة الاشورية ٠

وقبل البحث عن أعمال حمورابي لابد من الاشارة الى

حادث جغرافي تاريخي مهم وقع في هذا الدور ، هو تحول مجرى نهر الفرات الرئيس من مجراه القديم صوب سيبار وكوثى ونيبور الى مجرى جديد شرقا محتلا نهر « اراهتو » (نهر بابل) الذي كان يأخذ من الضفة الغربية لنهر الفرات القديم ويمتد حتى ينتهي عند مدينة كيش ثم عند مدينة بابل متبعا بذلك اتجاه مجرى شط الحلة الحالي الذي يمر بمدينتي الحلة والديوانية • وليس هنالك شك في ان الاسباب التي أدت الى تحول مجرى الفرات من مجراه الشرقي الى جهة فرع بابل غربا هي تأثير الراسبات الغرينية التي تراكمت في قعر النهر فأدت الى تدفق مياه الفيضان الى فرع بابل بحيث أصبح هذا الفرع المجرى الرئيس للفرات • ومما ساعد على تراكم الراسبات انشاء السدود الترابية على مجرى النهر لرفع مناسيب المياه وتسليطها على الاراضي الزراعية ، وهذه هي الطريقة التي لم يزل يستعملها الفلاحون لارواء أراضيهم الزراعية • وتدلنا المدونات السومرية القديمة على انه حدث في عهد الملك « نوراداد » ملك لارسا (١٨٦٥ ــ ١٨٥٠ ق٠م) فيضان عات خارق العادة يعد أشد الفيضانات التي شهدتها البلاد في تلك الازمان فأدى الى غرق منطقة سومر الجنوبية بأسرها وتحول مجرى نهر الفرات الى فرع بابل • وفي أوائل حكم ابنه « سن ادنام » (١٨٤٩ ــ ١٨٤٣ ق٠م) اعيد استصلاح المنطقة ومن ضمنها اور واريدو والتي ادى تحول مجرى النهر الى غمرها فشقت لها أنهر جديدة من المجرى الجديد[١٣٤] • ولم يقتصر تأثير هذا الفيضان على نهر الفرات بل شمل نهر دجلة أيضا الذي تحول مجراه الاصلي باتجاه

بلدة العمارة الى جهة الغراف الحالي وهو مجرى النهر الذي حفره الملك انتيمينا من نهر دجلة لايصال المياه الى منطقة لكاش مما ادى الى حرمان بعض المدن من المياه وغمر مدن اخرى وتدميرهـا . وهكذا صار يلتقي دجلة والفرات في اور فتجري مياههما الموحدة من هناك مارة بمدينة الزبير الحالية ثم تتصل بخـور عبدالله في جدول مدخل بوبيان وذلك بعد ان كان نهر دجلة يصب في الخليج العربي على انفراد .

والواقع ان تحول نهر الفرات من مجراه الشرقي القـديم باتجاه كوثي الى جهة فرع بابل كان العامل المباشر في انتقـال الحضارة والعمران من المدن الجنوبية الواقعة على مجرى نهـر كوثى الى جهة بابل أي الى جهة المجرى الجديد . لذلك فلا غرابة في اتخاذ المملكة البابلية القديمة مدينة بابل عاصمة لها . وكانت مدينة بابل في الطور الاول من مجرى الفرات ، أي عندما كان مجرى الفرات الرئيس يسير في اتجاه نهر كوثي الشرقي ، تقع على الضفة اليمنى من نهر بابل حين كان هذا النهر فرعـا من مجرى الفرات الرئيس ، فلما غير الفرات مجراه واحتل فرع بابل أصبحت المدينة المذكورة في الضفة اليسرى منه .

ويلاحظ ان مدينة اريدو السومرية التي كانت من أهم المدن على نهر كوثى القديم من جهة الجنوب أصبحت مغمورة بالمياه بنتيجة تحول مجرى الفرات الى جهة فر ع بابل ، ولم يكن لاهلها الا الانتقال الى منطقة بابل التي غدت بفضل تحول مجرى الفرات

اليها من أخصب المناطق وأصلحها للسكنى والزراعة • وخير تعبير عن هذا الانتقال هو ما كتبه سيرويليام ويلكوكس في ذلك قال : « وسرعان ما انتقل العمران من مدينة اريدو الى مدينة بابل • حيث كان النهر التي بنيت عليه مدينة اريدو وهو نهر كوثى القديم قد أخذت تعلو ضفتاه ، وذلك بسبب كميات الغرين التي كانت تحملها المياه • وقد صادف في احدى الفيضانات العالية ان شق النهر له مجرى جديدا وانحدر الي السهول الواسعة المنخفضة الواقعة في الدلتا ، وبنتيجة ذلك جف النهر القديم ، واذ ذاك أصبح من المتعذر ارجاع المياه اليه بدون اجراء أعمال تطهيرية ، وكان على نيبور (نفر) واوروك ولارسا ان تأخذ مياهها من فرع آخر يستمد مياهه من مجرى الفرات البابلي الجديد ، كما ان مدينتي شوروباك واريدو أصبحتا محصورتين بالمياه بالنظر لانخفاض أراضيهما • وبالرغم من ان الفرات حول مجراه فانه أصبح مرة اخرى يجري في أهوار واسعة كالتي كان فيها من قبل ، وأخذ الناس يقيمون في منطقة الاهوار الجديدة سدودا محكمة ، وذلك لكي يؤسسوا داخل هذه السدود مدينة جديدة ومعبد جديد[١٣٥] •

وبعد أن أصبح فرع بابل هو المجرى الرئيس لنهر الفرات كان هناك فرع يتشعب من ضفته اليمنى وذلك من جنوب مدينة المسيب الحالية فيسير في اتجاه شط الهندية الحالي • وقد لعب هذا الفرع دورا هاما في حياة الفرات اذ صار يؤدي وظيفة المصرف لمياه الفرات الزائدة في موسم الفيضان وقد ورد اسمه في المدونات البابلية نار بالوكات (Naar Pallukat) ثم عرف باسم

« بالاكوباس » في عهد الاسكندر . وسنرى كيف تحول مجرى الفرات الرئيس اليه في زمن العرب وفي أواخر القرن الماضي .

أما ما حدث بعد انقطاع الماء عن مجرى نهر كوثى (مجرى الفرات الشرقي) فتدلنا الآثار التي يمكن تتبعها جنوبي جدول اليوسفية الحالي على انه فتح مجرى جديد يأخذمن جنوب نقطة الانقسام الاصلية بين نهر كوثى القديم وبين المجرى الجديد باتجاه بابل ليتصل بمجرى كوثى القديم بعد اجتيازه المنطقة الحصوية الواقعة شمال جدول الاسكندرية الحالي . ويقع هذا المأخذ الجديد على بعد حوالي ٣٤ ميلا من شمال بابل ويسميه الاهلون باسم حبل ابي دبس ، ويمكن تتبع اثاره وهو يمتد بمحاذاة المرتفعات الحصوية في تلك المنطقة من الشمال متجها نحو الجنوب الشرقي حتى اذا ما وصل الى قرب خان الحصوه من ناحية الشرق انشطر الى فرعين ، الفرع الشرقي وهو يمتد في اتجاه نهر كوثى القديم والفرع الغربي يمتد في الاتجاه الجنوبي الغربي . وقد نسب ياقوت حفر فرع نهر كوثى الجديد الى جد ابراهيم الخليل (ع) وأضاف انه أول نهر اخرج بالعراق من الفرات فقال ياقوت نقلا عن أبي المنذر ان « نهر كوثى سمي بكوثى من بني ارفخشد بن سام بن نوح (ع) وهو الذي كراه فنسب اليه وهو جد ابراهيم عليه السلام أبو امه بونا بنت كرنبا بن كوثى وهو أول نهر اخرج بالعراق من الفرات » .

اعمال الري التي أقامها حمورابي :

ومن أهم مشاريع الري التي أقامها حمورابي الجدول الذي حفره وقد سمي باسمه « نهر حمورابي » (Nar Hammourabi) فقد كان يبدأ من مجرى الفرات الجديد اسفل كيش ويجري في اتجاه اوما تاركا اياها الى يساره وبعد ان يصل الى لارسه يتجه نحو الخليج العربي[١٣٦] . واليك ما دونه عن مشروعه هذا قال : « اني حمورابي الملك الجبار الذي أخضع لنفوذه كل أقاليم العالم ، الملك الذي أحرز الانتصارات العظيمة التي باركها الاله مردوخ ، لما عهد الي الالهان انو وبيل حكم بلاد سومر واكد حفرت لسكان سومر واكد جدول حمورابي ، لقد ازدادت بمياهه خيرات الاهلين ورفاههم وقد جعلت الاراضي الواقعة على ضفتي الجدول حيـة بالمزروعات . وأقمت سدودا على ضفتي النهر وبهذا زودت سكان سومر واكد بالمياه الدائمية وجمعت شـملهم بتوحيـد صفوفهم وأمنت لهم الزاد والشرب بحيث أصبح بامكانهم الاسـتيطان في أماكن ثابتة ... وهكذا فاني حمورابي الملك العظيم الذي استلهم الحكم والعرفان من الاله مردوخ انشأت في صدر جدول حمورابي ذلك الجدول الذي أصبح مصدرا لثروة السكان ورفاههم حصنا ضخما على الضفاف العالية التي تضاهي الجبال بارتفاعها » . وقد فتح حفر هذا الجدول طورا جديدا في تاريخ البلاد وهو الطور الذي نرى فيه لاول مرة في تاريخ الحضارة البابليـة جماعـات تتعاون في انجاز مشروع عام يعود نفعه الى بلاد سومر واكد ، كما ان فتح هذا الجدول كان العامل المباشر في تعيين الحدود بين سومر

واكد على أساس حدود الري والمناطق الزراعية التي يسيطر عليها هذا الجدول العظيم ، وبذا فقد كان توسع الري والزراعة والانظمة التي اوجب وضعها ذلك التوسع عاملا قويا في توطيد عرى الوحدة القومية القوية تحت سلطة عاهل قوي جبار بحيث أصبحت لارسه وبابل وسيبار وغيرها من المناطق التابعة للادارات الصغيرة تحت نفوذ وسيطرة حمورابي العاهل الاكبر الذي تمثلت في شخصه السلطة العليا في جميع أنحاء البلاد .

ويشير حمورابي أيضا الى انه حفر جدولا يأخذ من نهر الفرات وينتهي عند مدينة سيبار ، هذا مما يدل على ان مدينة سيبار أصبحت بعيدة عن نهر الفرات بعد أن تحول مجرى نهر الفرات غربا(١٣٧) .

ويلاحظ ان البابليين تمكنوا من ضبط الفرات وصيانة أراضيه الزراعية من أخطار الفيضان فشيدوا بنتيجة ذلك رخاء بابل المعروف . وقد ساعدتهم أوضاع الفرات الطبيعية لتحقيق مشاريعهم العمرانية فاستخدموا منخفضي الحبانية وأبي دبس لتصرف اليها مياه الفرات الطاغية في مواسم الفيضان ، كما انهم استخدموا هذين المنخفضين كخزانين يمدون منهما الفرات بالمياه في زمن قلتها .

شريعة حمورابي :

وليس أدل على عظم اهتمام البابليين القدماء بشؤون الري مما جاء بشريعة حمورابي من أنظمة صارمة فيما يتعلق بشؤون الري والزراعة ، حيث يبدو ان حمورابي قد أدرك مدى الضرر الذي

ينجم من اهمال شؤون الري فحتم في شريعته على كل مزارع كبيرا كان أم صغيرا أن يطهر الترعة المارة في أرضه ويحافظ على سدودها وان يقوم بما يلزم من الاصلاحات فيها ، فاذا انكسرت السدة الملاصقة لأرضه والمسؤول هو عنها فأغرقت المياه أراضي جاره كان عليه أن يؤدي كافة الاضرار الناجمة عن ذلك ، واذا لم يكن يملك ما يدفعه كان يباع هو لسد المبلغ وتعويض الضرر ، أي انه كان مجبرا ان يدفع تعويضا كاملا عن كل ضرر ينتج لغرق حقل جاره نتيجة سهوه أو اهماله . واليك بعض مواد الشريعة التي تتعلق بامور الري ندرجها أدناه لاهميتها التاريخية :

المادة ٥٣ ـ اذا تهاون شخص في تقوية سد حقله ، ولم يقو سده وحدثت ثغرة في سده فترك الماء يخرب الارض المزروعة . فعلى الشخص الذي حدثت الثغرة في سده أن يعوض عن الحب الذي سبب تلفه .

المادة ٥٤ ـ اما اذا لم يستطع التعويض عن الحب المتلف يباع هو وأمتعته ويتقاسم الثمن أصحاب الحقول الذين أتلف الماء زرعهم .

المادة ٥٥ ـ اذا فتح شخص ترعة للري وأهمل أمرها فأتلف الماء زرع حقل مجاور يكيل لصاحب الحقل الذي أتلف زرعه كمية من الحب تساوي معدل غلة الحقول المجاورة من ذلك .

المادة ٥٦ ـ اذا فتح شخص الماء فجرف الماء زرع حقل مجاور

يكيل لصاحب الحقل الذي اتلف الماء زرعه عشرة كورا من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو[١٣٨] .

هذا وهناك مواد اخرى كثيرة تتعلق بشؤون البستنة ورعي الاغنام وتأجير الحقول الزراعية وحرثها ورهنها والاستلاف عليها وما الى ذلك من مواد تتعلق بالالتزامات الاقطاعية[١٣٩] .

وقد خصصت شريعة حمورابي جملة مواد من احكامها لزراعة النخل والمعاملات الخاصة بها مما يدل على أهمية النخل في العراق، فتفرض المادة التاسعة والخمسون منها غرامة كبيرة على من يقطع نخلة . كما تشير المادتان الرابعة والستون والخامسة والستون الى وجوب تلقيح النخل ، فتنص الاولى على انه اذا اعطى رجل بستانه الى فلاح للتلقيح والعناية بها فعلى الفلاح ان يسلم ثلثي حاصل البستان الى صاحبها طوال مدة شغله في البستان ويأخذ لنفسه الثلث . كما تنص المادة الخامسة والستون على انه اذا أهمل البستاني ولم يلقح البستان وسبب تقليل الحاصل فعليه أن يؤدي ايجار البستان على أساس البساتين المجاورة .

ويقول حمورابي عن نفسه في مستهل شريعته وفي خاتمتها ان الالهة هي التي دعته الراعي لشعب سومر وأكد وقد جاء ليحميهم بقوته لتوطيد العدل حتى يسود الارض فيقضي على الخبيث والشر لكي لا يستعبد القوي الضعيف .

١٧ - الامبراطورية الآشورية (١٥٩٥ - ٦١٢ ق.م.) :

عرضنا فيما تقدم صورة عامة لاقدم هجرات القبائل السامية من شبه جزيرة العرب الى الهلال الخصيب حيث كونوا أقدم الممالك وأعظمها مما عرفه التاريخ القـديم ، وهم الاكديون والعموريون والبابليون ، وكان هؤلاء قد اتجهوا نحو سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر ، وكان الفرات هدف الذين اتجهوا الى سـورية والعراق . واتجهت جماعات نحو ناحية نهر دجلة فعبرت نهر الفرات وتوغلت في منطقة ما بين النهرين ، ثم استقرت في حوالي أواخر الالف الرابعة أو أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد في المنطقة الشمالية من العراق في البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بـين الموصل والشرقاط ، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم « شوبارتو » فاسست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تعرف فيما بعد بمدينة آشور « نسبة الى الاله آشور » اله القوم الذين سـكنوا هذه الديار . كما صارت الجماعات التي استقرت في هذه المنطقة تسمى بالاشوريين ، وأخيرا صارت المنطقة بأسرها تعرف باسم آشور . وأطلال مدينة آشور تقع اليوم على الجانب الايمن من نهر دجلة على بعد حوالي تسعة كيلومترات من جنوبي مدينة الشـرقاط وتسمى « قلعة الشرقاط » . وفي هذه البقعة أقام هؤلاء النازحون

امارة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وارباضها على نسق دويلات المدن الاكدية في جنوبي العراق ٠

وآشور كانت ذات جو أصح من جو بلاد بابل الحار لوقوعها في منطقة شبه جبلية وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين الجبال الشرقية والجبال الشمالية ، وفي تلك المنطقة كانت هضبات صالحة لأن تقطع منها الحجارة والمرمر وغيرهما من مواد البناء الصخرية ٠ وفي هذا الامر اختلفت آشور عن بابل ، فلم يكن ببابل حجارة للبناء ، ولذلك اقتصرت على البناء بالآجر واللبن ٠ وفي تلك المنطقة عاش السكان على الزراعة القائمة على المطر وتطورت معيشتهم في ظلالها ، ولكن ذلك لم يمنع سكان بلاد آشور من ان ينشئوا بعض الصناعات ويقيموا مشاريع ري ضخمة ويوجدوا صلات تجارية بغيرهم من الشعوب ٠

وكان الاشوريون يتكلمون فيما بينهم بلغة قريبة من اللغة التي كان يتكلمها الاكديون في منطقة أكد الجنوبية وكتبوا بالخط المسماري لغتهم الاشورية ٠ وأكثر مظاهر الحضارة المبكرة في آشور جاءتها من الجنوب ولكنها كانت في الوقت نفسه معرضة أيضا لتأثيرات من الشمال والغرب ، فمنذ منتصف الالف الثانية قبل الميلاد ظهر الحيثيون واتجه فريق منهم شرقا الى بلاد مابين النهرين ٠ فكانت آشور والحالة هذه في مهب الرياح ، تارة تخضع لغزاة من الغرب ، وتارة لا تلبث ان تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التي وحدها سرجون الاكدي ، ثم تحت سيطرة ملوك

اور . ثم تحت حكم حمورابي أو غيره من حكام بابل • وقد علمت الحرب المستدامة أهل آشور كيف يحمون حدودهم من الشمال والجنوب ، بعد ان عاشوا مدة من الزمن على هذه الحال ، لذلك فليس غريبا ان كانت هذه الدولة الجديدة قد بنت قواعدها على أساس حربي • فقد كان لها جنود غير نظاميين ، ثم حل محلهم جيش منظم وهو القوة الرئيسية للدولة الاشورية • وتطورت هذه الدولة الى تنظيم ثابت محكم لم تؤثر فيه المنافسات التي كانت بين الدويلات . ومما ساعد الاشوريين على ذلك انهم كانوا قد بدءووا باستعمال الخيل والعجلات في جيشهم ، وفي النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية شهدها العالم القديم • وقد راجت التجارة من بلادهم واليها . وتوثقت صلاتهم بالشعوب الاخرى المجاورة ، وازدادوا قوة ومناعة . وكانت تجارتهم تبلغ آسيا الصغرى ، وسلكوا أيضا الطرق الغربية للتجارة •

ولما كانت الحقبة التي عاشتها بلاد آشور طويلة تخللتها عدة تقلبات أساسية عبر تاريخها الطويل فقد رأى علماء الآثار تقسيم تاريخ بلاد آشور الى ثلاثة أدوار رئيسية هي :ـ

١ ـ الدور الآشوري القديم (٤٠٠٠ ق• م• ـ ١٥٩٥ ق• م•)

٢ ـ الدور الآشوري الثاني (١٥٩٥ ـ ٩١١ ق•م•)

٣ ـ الدور الآشوري الثالث (٩١١ ـ ٦١٢ ق•م•)

وكان الدور الثالث أهم الادوار الثلاثة فقد استمر ثلاثة قرون بلغ عدد الملوك الذين حكموا فيه ١٦ ملكا دونوا أخبارهم

وحملاتهم العسكرية وانجازاتهم الاعمارية . وقد تمكن الاشوريون في هذا الدور من تأسيس امبراطورية سامية عظيمة بلغت من القوة والازدهار بحيث سيطرت في ذروة اتساعها على منطقة الشرق الاوسط كلها ومن ضمنها آسيا الصغرى وسواحل ايجه ومصر والخليج العربي وعيلام ، هذا عدا فتوحاتهم للمناطق الجبلية في الشرق والشمال حتى بلاد أرمينية . وقضى الملك الاشوري سرجون الثاني على الكيان الصهيوني وفتح عاصمتها السامرة ٧٢٢ ق.م.

وقد ترك الاشوريون اربع عواصم شخصت مواقع اطلالها : اولاها آشور وقد سبقت الاشارة اليها ، والثانية « كالح » تعرف اطلالها محليا باسم « نمرود » تقع على الجانب الشرقي من نهر دجلة على بعد حوالي ٣٢ كيلومتر من جنوب شرقي بلدة الموصل ، والثالثة « نينوى » تقع اطلالها على مسافة كيلومتر من الموصل على الجانب الايسر من نهر دجلة أما الرابعة فهي « دور شروكين » تقع في قرية خرسباد شمال شرقي الموصل على بعد حوالي ١٨ كيلومترا منها .

ان الدولة الاشورية بنت وجودها على أساس عسكري حربي فحملها ذلك على استخدام الخيل والمركبات الحربية وابتداع المنجنيق وأنواعه . وبحكم احتكاك الاشوريين بالشعوب والامم المتحضرة كالحيثيين والميتانيين والعموريين والاراميين والفينيقيين والارمن تمكنوا من صنع الآلات المعدنية المصنوعة من الصفر

(النحاس الاحمر) ، ثم توصلوا الى استعمال الشبه (البرونز) في أثناء الالف الثانية قبل الميلاد بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون أسلحتهم وأدواتهم من هذا المزيج ، ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صنع الاسلحة اذ تعلموا صناعته من الحيثيين الذين سبقوهم في اتقان استخلاصه وصناعته حيث كانوا يستخرجونه في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى من مناجمه ونشروا استعماله في جميع بلاد الشرق الادنى منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وهذا ما مكنهم من التوسع في القرون التالية . وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم فحذق تجارهم أساليب التجارة وعاش كثيرون من التجار في محلات انشؤوها في عدة أماكن في جنوب شرقي آسيا الصغرى .

وقد اشتهر الاشوريون في قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية فيطبعونه بطابعهم الخاص بمنتهى الدقة ، وذلك مما حملهم على الاهتمام بالفنون الجميلة المختلفة والادب، فأتقنوا فن النحت والتصوير واقتبسوا الكثير من الثقافة البابلية ، ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الادبية والثقافية مما تركوه من ميراث حضاري في خزانة الكتب (ألواح الطين) التي انشأها الملك آشور بانيبال (٦٦٩ ـ ٦٢٦ ق.م.) ، وقد عثر على زهاء خمسة وعشرين ألف رقيم من رقمها في حفائرهم تبحث في المدن والفنون والآداب والشؤون الاخرى وهي محفوظة في المتحف البريطاني حاليا . وصفوة القول ان الآشوريين تركوا لمن خلفهم من امم

جاءت بعدهم تراثا حضاريا مجيدا على الرغم مما كانوا يتصفون به من طبع غليظ وقسوة شديدة في حروبهم[١٤٠] .

ثم حدثت بعد وفاة آشور بانيبال سنة ٦٢٦ قبل الميلاد منازعات على العرش أوهنت جهاز الحكم الاشوري فانفصلت المقاطعات البعيدة كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسورية عن المملكة الآشورية ، وكذلك انتهزت بابل الفرصة وانفصلت عنها واستقلت بزعامة الامير الكلداني نبوبولاس فاستولى على مقاليد الحكم في بابل وهو يومئذ حاكم بابل وتمكن من الانفصال عن الدولة الاشورية وحالف الماديين واسهم في الحرب التي قوضت الحكم الاشوري في البلاد سنة ٦١٢ ق.م. واسس المملكة البابلية الثانية أو الدولة الكلدانية فصارت تعرف بسلالة بابل الحادية عشرة وبذلك قضي على الامبراطورية الاشورية السامية ثالثة الامبراطوريات الساميات التي اسست في وادي الرافدين .

١٨ ـ المملكة البابلية الثانيـة أو الدولة الكلدانيـة[١٤١] (٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق٠م٠) :

يرجع علماء الآثار وطن الكلدانيين الاصلي الى شـواطيء الخليج العربي في جنوبي العراق حيث أسست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك سلالة الامراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري أو « سلالة بابل الثانية » التي كانت بالدرجة الاولى من بقايا السومريين ٠ وقد تسكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والاكدية في جنوبي العراق بعد ان كان الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي (الاكدي والبابلي)٠ والكلدانيون هم من القبائل البدوية العربية ويعـدهم المؤرخون فرعا من الارامبين نزحوا من سورية الى جنوبي العراق ٠ وقـد ظهروا لاول مرة في عهد « شمسو ايلونا » خليفة حمورابي وكان أول ملوكهم يدعى « ايلوما ايلوم » الذي بدا حكمه نحو سـنة ١٧٤٢ ق٠م٠ وقد مارست سلالتهم سلطة غير ثابتة على اقليم سومر وآكد ، ثم صارت تتحدى سلطة الدولة البابلية الاولى (١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ ق٠م٠) ، كما ظلت تتحدى ملوك بابل واشور مدة ألف عام تلت ذلك العصر[١٤٢] ٠

وقد انضم الى القبائل الكلدانية حشود اخرى من الاراميين نزحت من سورية في فترة ضعف الدولة الاشورية ما بين سنة ١٠٧٧ و ٩١١ ق.م. وتأسست منهم دولة في جنوبي العـراق في منطقة الخليج عرفت باسم « بيت ياكيني » وصاروا يتحينون الفـرص لاحتلال بابل والقضاء على الحكم الاشوري فيها ، فقد جرد احد ملوكهم المدعو « مردوخ بلادان » حملة على بابل وفتحها وحكم فيها أكثر من عشر سنوات بين سنة ٧٢١ وسنة ٧١١ ق.م. وكان ذلك في بداية حكم سرجون الثاني الآشوري الا ان سرجون حاربه واستولى على بابل فهرب مردوخ بلادان الى أقصى الجنوب ، ثم جهز سنحاريب خلف سرجون حملة قوية اكتسحت مدن الجنوب حتى أقصى بلاد البحر والخليج وخرب بابل ودك حصونها وفتح مياه الفرات عليها وأغرقها ليزيل معالمها ، وكان ذلك سنة ٦٨٩ ق.م. ثم قام آشور بانيبال بحملة تأديبية على بابل وبلاد القطر البحري وأخضع الامراء المتمردين واتجه نحو عيلام التي كانت تحرضهم على التمرد فاحتل عاصمتها « السوس » وخربها . وبعد وفاة آشور بانيبال سنة ٦٢٦ ق.م. انتهز سكان القطر البحري ضعف المملكة الاشورية ، فاستولى الزعيم الكلداني « نيوبولاسر » على مقاليد الحكم في بابل سنة ٦٢٥ ق.م. وهو يومئذ حاكم بابل ، وتمكن من الانفصال عن الدولة الاشورية وحالف الماذيين وأسهم في الحرب التي قوضت الحكم الاشوري سنة ٦١٢ ق.م. واسس الدولـة البابلية الثانية التي دامت ٧٣ سنة بعد سقوط نينوى وقد سميت

في ثبت الملوك بسلالة بابل الحادية عشرة . وقد سبقت الاشارة الى ذلك .

وقد لعبت سلالة بابل المذكورة دورا مهما في تاريخ الشرق الادنى في القرن السادس قبل الميلاد ، فقد استولت على جميع الدويلات في سورية وفي فلسطين وبلغ أوج ازدهارها في عهد نبوخذ نصر (بختنصر) خليفة « نبوبولاسر » وابنه . وكان نبوخذ نصر أعظم الملوك الكلدانيين قاطبة ، وقد دام حكمه ثلاثا واربعين سنة (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق.م) . والذي يعنينا هنا من حملاته الحربية الحملتان اللتان قام بهما على مملكة يهوذا والقضاء عليها وسبي اليهود الى بلاد بابل . فقد وجه حملته الاولى سنة ٥٩٧ ق.م. على يهوذا فاستولى على اورشليم وسبى اليهود الى بلاد بابل ومعهم الملك « يهو باكين » وأهل بيته . ثم تبعه السبي البابلي الثاني سنة ٥٨٦ ق.م. اذ جاء نبوخذ نصر هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية واحتل اورشليم فخربها وأحرق بيت الدين وبيت الملك وكل بيوت الاعيان ، وقد خمن عدد الاسرى الذين سيقوا الى بابل ليلحقوا باليهود من السبي الاول بحوالي ٥٠،٠٠٠ شخص . وبعد وفاة نبوخذ نصر سنة ٥٦٢ ق.م. خلفه على عرش بابل ملوك ضعفاء حتى وقعت بابل لقمة سائغة بيد كورش الاخميني ، فسمح كورش لمن يشاء من اليهود بعد احتلاله لبابل بالعودة الى فلسطين فعاد بعضهم وقد آثر البعض الاخر البقاء .

وقد أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة كما فعل

غيرهم من الغزاة الساميين الاخرين الذين نزحوا الى سهل بابل ، وأضافوا اليها كثيرا من عندهم فتحسنت الفنون والصناعات وعنوا بالدين والاداب عناية كبيرة ، وقطعوا أشواطا واسعة في علم الفلك، وظهر بين الكلدانيين حكماء متبحرون في مختلف فنون المعارف كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية والذين توصـلوا لمعرفة حساب الخسوف والكسوف . والكلدانيون هم أول من جزأ الواحد الصحيح الى ستين جزءا وقسموا اليوم الى ٢٤ ساعة والساعة الى ستين دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية .

ومما يذكر من حضارة الكلدانيين براعتهم في فن التطريز حتى لقد كانوا يصورون على النسيج الصور التي رسموها على جدران قصورهم . وعلى الرغم في تقليد الكلدانيين في أشـياء كثيرة الا انهم فاقوا أسلافهم في فخامة الابنية وابهة الدولة وأصبحت بابل في عهد نبوخذ نصر أعظم مدينة في معمورة الارض ، وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هي التي أدهشت أبا التاريخ هيرودوتس اليوناني بعجائبها وفخامتها وضخامتها .

١٩ ـ حضارة وادي الرافدين ـ حضارة سامية ام سومرية ؟ :

لقد اعتاد الباحثون وأكثرهم من الاجانب مثل بريستد وغيره ان يعتبروا الحضارة السومرية التي نشأت في جنوبي العراق أقدم حضارة وجدت في العراق ، بل هي حضارة وادي الرافدين الاساسية[١٤٣] • وأخذوا يركزون اهتمامهم بالحضارة السومرية مهملين الحضارة السامية التي هي أساس حضارة وادي الرافدين وقد وجدت في العراق قبل وصول السومريين بمدة طويلة وقد سبق شرح ذلك في الفقرة ١٣ « أقدم وجود للساميين في وادي الرافدين » وأرى من الواجب توضيح هذه الناحية في ضوء آخر المكتشفات الاثارية والدراسات اللغوية والاقتصادية الزراعية التي هي الاساس الذي قامت عليه حضارة دويلات المدن السومرية والسامية في فجر السلالات لان دعاوة الصهاينة وتأثيرها في ميدان الاعلام العالمي استطاعت ان تشوه تاريخ الحضارة السامية واظهارها على غير حقيقتها •

ان حضارة وادي الرافدين من الحضارات النهرية القديمة تأسست تحت ظروف طبيعية وجغرافية خاصة جعلتها تتميز عن بقية الحضارات التي ازدهرت في الشرق القديم • واذا أردنا ان نعرف كيف تكونت الحضارة السامية فلابد ان نطرح السؤال

الذي يفرض نفسه ، أي السؤال الخاص بصلة السومريين بجيرانهم الساميين : مَن كان أول القادمين الى وادي الرافدين أهم الساميون أم السومريون ؟ ... فأقدم المدونات الاثارية التي بين أيدينا هي المدونات السومرية ، وهذه تشل ما دون في العصر السومري بعد اكتشاف الكتابة وتقدمها ثم ظهرت المدونات السامية (الاكدية والعمورية والبابلية والاشورية والارامية) وغيرها . وتشير أقدم المدونات السومرية الى ان مدنا سومرية وجدت في جنوبي العراق قبل الطوفان الذي حدده الاثاريون بالالف الثالثة قبل الميلاد ، كما تشير الى وجود مدن سامية قبل الطوفان أيضا وهذا ما يدل على ان كلا العنصرين ، السومري والسامي ، كانا قد استوطنا في العراق قبل السنة الثالثة قبل الميلاد ، مع انه قد ثبت ان الساميين قد سبقوا السومريين وحتى سبقوا الاكديين في الاستيطان اذ أرجع العلماء استيطانهم في أواسط الفرات الى الالف الرابعة وحتى الالف السادسة والخامسة قبل الميلاد كما تدل أثارهم في منطقة ماري العمورية (تل باغوز وتل حلف) وقد سبقت الاشارة الى ذلك . لذلك لا يصح ان تعتبر الحضارة السومرية أساسا لحضارة وادي الرافدين لان اللاحق هو الذي يقتبس من السابق، وبخاصة اننا نعلم على وجه التأكيد ان الذين أسسوا الامبراطوريات العالمية العظيمة التي شرحنا نبذة عن تاريخها هم الساميون وليس السومريون لان السومريين سكان الاهوار لم يستطيعوا ان يصمدوا أمام تيار الحضارة السامية فانقرضوا هم وحضارتهم بلا عودة في سنة ٢٠٠٣ قبل الميلاد . وعلى هذا فاننا لا نتفق مع رأي

بريستد ومن أخذ برأيه من الباحثين الذين يعتبرون الحضـارة السومرية حضارة وادي الرافدين الاساسية •

فالحضارة التي سميت بالسومرية هي في الحقيقة (حضارة سامية سومرية) • لان الجماعات التي استطاعت ان تؤسس منذ أقدم الازمنة مستوطنات زراعية تعتمد على الري على طول ضفاف الفرات في سورية وفي العراق وان تنشيء المدائن السامية مثل كيش وماري وابلا واكد وغيرها من المدن السـامية المجاورة التي لم يكشف عنها حتى الان وان تشيد شبكة من جداول الري بصورة فنية لا يمكن ان تكون في حالة بدائية متأخرة في مضمار المدنية • نحن لا ننكر ان الساميين اقتبسوا بعض الشـيء من حضـارة السومريين كالكتابة المسمارية ذات المقاطع ، ولكن السـومريين اقتبسوا من الساميين أهم عنصر أساسي من عناصر الحضارة ، ألا وهو فن الزراعة والهندسة المرتكزة على الري • اذ لولا خبرة الساميين في هذا الفن الذي اتقنوه ومارسـوه في مسـتوطناتهم الاصلية واقتباس السومريين اياه منهم لما استطاع السومريون ان يتطوروا التطور السريع في ميادين الحضارة •

وبذلك يكون الساميون قد سبقوا السومريين في توطيـد أركان الحضارة القائمة على الزراعة المرتكزة على الري ، وهي الحضارة التي سماها بعض الباحثين بحق « المجتمع الاروائي » (Hydraulic Society) أو « الدولة الاروائية » (Hydraulic State) (١٤٤)

وهذه الحضارة لابد ان تكون قد بلغت شوطا بعيدا في مدارج

التقدم الثقافي والمدني عندما نزح السومريون الى أهوار العراق الجنوبية ، وهذا مما يدل على ان السومريين أخذوا أساليب هذه الحضارة الاروائية من الساميين بعد ان هجر بعضهم الاهوار ونزلوا السهول المجاورة الى المواطن السامية •

ولا يخفى ان الحضارة السومرية التي ظهرت في عصر الانبعاث السومري (المملكة السومرية الثانية ٢٢٨٠ ــ ٢٠٠٣ ق • م •) لم تزدهر وتبلغ أوج تقدمها الا بعد أن اتصل السومريون (سكان الاهوار) بالساميين (سكان الريف) وأخذوا يمارسون مع الساميين الزراعة التي تعتمد على مشاريع الري فاقتبسوا منهم الخبرة الفنية التي تتطلبها هذه المشاريع وانتقلوا من ممارسة الزراعة والبطائحية المقتصرة على تجفيف الاهوار الى طريقة الزراعة على جداول الري السيحية التي كان يمارسها الساميون في السهول، أي ان الحضارة السومرية الرئيسة لم تكتمل في تطورها الا بعد ان واكب السومريون حياة الساميين وبعد أن عاش السومريون حوالي مائتي سنة تحت حكم الساميين (٢٣٥٠ ــ ٢١٥٩ ق•م•) فكونوا نتيجة اتصالهم بالساميين المملكة السومرية الثانية (٢٢٨٠ ــ ٢٠٠٣ ق•م•) التي ظهرت فيها سلالة اور الثالثة (٢١١١ ــ ٢٠٠٣ ق•م•) وأشهر ملوكها الملك « اورنمو » الذي حكم في اور سبعة عشر عاما بين سنة ١١١١ وسنة ٢٠٩٤ قبل الميلاد وسلالة لجش الثانية (٢٢٨٠ ــ ٢١٠٩ ق•م•) واشهر ملوكها الملك گوديا الذي حكم عشرين سنة بين سنة ٢١٤٤ وسنة ٢١٢٤ ق•م• وهذه

لم تدم أكثر من ٢٥٠ سنة عاشوا فيها مع الساميين ثم كانت نهاية السومريين وانقراضهم كما تقدم •

والظاهر ان علماء الآثار قد تغاضوا عن اظهار الدور الذي لعبه الساميون في تكوين الحضارة العراقية القديمة ، ولعل الاكتشافات التي عثر عليها في خرائب المدن السومرية وبخاصة المكتشفات في المقبرة الملكية في اور كانت من الاسباب التي جعلت الباحثين ان يحصروا جهودهم في المنطقة السومرية وتركيز اهتمامهم على تحري هذه المنطقة دون المنطقة السامية الواقعة الى الشمال من المنطقة السومرية ، الامر الذي جعلنا نجهل الكثير من الدور السامي في نشوء حضارة وادي الرافدين التي لم تزل آثارها مطمورة تحت انقاض المدن السامية وهي تفتقر الى من يكشف عن مكنوناتها وبخاصة اكتشاف موقع عاصمة الاكديين أكد • ولا يخفى ان الموقف التقليدي بين الغرب والشرق وتعصب الغربيين ضد الساميين بوجه عام وضد العرب بوجه خاص كان هو الآخر من أهم العوامل على تركيز اهتمام العلماء وأكثرهم غربيون بالحضارة السومرية دون الحضارة السامية لمجرد كون الحضارة السومرية حضارة غير سامية •

وقد كان نمط حياة السومريين في منطقة الاهوار يختلف عن نمط حياة الساميين في الشمال المحفوفة بالمصاعب والمشقات حيث كان التنازع من أجل البقاء على أشده ، الا ان هذه الصعوبات جعلت من الساميين أقواما أكثر استعدادا للتطور في ميدان

الحضارة وخصوصا في ميدان القتال وحقل الري • وقد حـذا السومريون حذو الساميين بعد انطلاقهم في سهل الفرات الاسفل فأخذوا يمارسون حياتهم الزراعية المرتكزة على الري وأسسوا دويلاتهم في السهل المذكور ، وهذا لا يعني ان السومريين هجروا حياة الاهوار كليا فقد بقي الكثير منهم يمارسون حياتهم البرمائية هناك وهم بعزلة عن هؤلاء الذين نزحوا الى الشمال تماما كالعزلة التي نشاهدها اليوم بين أهل الاهوار وأهل السهول • ولدينا في المدونات السومرية المتأخرة ما يدل على ان الاحتكاك بين الساميين والسومريين أخذ يقوى ويشتد بحيث نجد ان ملوك كيش السامية صاروا يتدخلون في الشؤون السياسيةالخاصة بالمجموعة السومرية الجنوبية حتى تم لهم الاستيلاء على بلاد سومر كلها •

وهنا يرد السؤال : لماذا لم يحتل الساميون بلاد سومر في البداية ؟ ••• فالجواب على ذلك هو ان السومريين الاوائل كانوا يعيشون في منطقة الاهوار حياة عزلة محفوفة بمشاق وصعاب فرضتها عليهم الطبيعة وهي تختلف كل الاختلاف عن نمط حياة البيئة التي الفها الاكديون الساميون وهم يمارسون حياتهم الخاصة المستندة الى تربية الاغنام والزراعة على الري التي كانت تـدر عليهم خيراتها • ومع ذلك فهناك ما يدل على ان حكام كيش السامية استولوا في أوائل عصر فجر السلالات على بلاد سومر وذلك في عهد « اين — مي براجيسي » لكنهم لم يلبثوا طويلا حتى غادروها بعد ان تبنوا رعاية المعابد السومرية ، لذلك لم يكن في منطقـة سومر البطائحية ما يغريهم على الطمع بها واحتلالها • لكن بعد

ان امتدت بلاد سومر الى الشمال وانطلق السومريون في السهل الخصيب مابين دجلة والفرات وأخذوا ينشئون مشاريعهم الانمائية في الزراعة والري مكونين دويلاتهم المزدهرة بامكانياتها المادية طمع الساميون الاكديون بها فأخذوا يحتلونها الواحدة بعد الاخرى ، ولم يكتفوا بها بل امتدت فتوحاتهم خارج بلاد سومر وأكد من الشرق والشمال حتى كونوا امبراطوريتهم المشهورة (سومر واكد بزعامة سرجون الاكدي) الاول ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك .

نستخلص مما تقدم ان الحضارة السومرية انبثقت نتيجة اختلاط الثقافات المتصلة ببلاد سومر واحتكاكها وتفاعلها . وكانت أهم هذه الثقافات الثقافة الاكدية السامية التي كان مؤسسوها يحادون السومريين من الشمال ثم الثقافة العيلامية التي كان أهلوها يجاورون السومريين من الشرق وقد تم لهم احتلال المدن السومرية عدة مرات وهناك ، ثقافة العموريين الساميين في اواسط الفرات وقد تم لزعماء ماري عاصمة العموريين حكم العراق فترة من الزمن وكان في الوقت نفسه يجاور السومريين في الجهة الشمالية الشرقية دولة اشنونا وقد كانت لها حضارة قوامها الري والزراعة في اسفل دلتا نهر ديالى على الجانب الايسر من النهر هذا عدا الجبليين النازحين من الشمال واختلاطهم بالسومريين . وكان التبادل التجاري بين السومريين وبين هذه الاقوام المجاورة قد نمى الصلات بينهم وبين تلك الاقوام وزاد في الاختلاط والاحتكاك والتعايش المشترك . وفي التاريخ أمثلة كثيرة لازدهار حضارات راقية وثقافات متقدمة باندماج

واختلاط عناصر مختلفة ، فأول تكوين من هذا القبيل هو اندماج الجيلين الاكدي والسومري وتكوين الحضارة الاكدية السومرية التي تميزت بامبراطوريتها الشهيرة التي تعد أول امبراطورية في تاريخ العالم ، حيث امتد سلطانها من أرض العيلاميين في الشرق الى شواطيء البحر الابيض المتوسط وتصل الى أعالي نهر دجلة ونهر الفرات في الشمال والغرب • وهذه الحضارة البابلية والحضارة الاشورية وغيرهما من الحضارات في التاريخ كالحضارة الاسلامية مثلا التي شملت جميع البلاد وقد طغت ثقافتها ولغتها ودينها على جميع الثقافات الاخرى التي سارت تحت لوائها • ومن العصر الحديث مثل حي لمولد حضارة عظيمة انبثقت عن تفاعل ثقافات وأجيال عديدة وانصهارها في بوتقة واحدة هي حضارة الولايات المتحدة الامريكية التي طغت فيها اللغة الانكليزية وآدابها • وهكذا نشأت الحضارة السومرية الشهيرة باندماج السومريين الاوائل الذين استوطنوا منطقة الاهوار في جنوبي العراق بالاقوام الاخرى وفي مقدمتهم الاقوام السامية ولكن كانت الثقافة السومرية في كل الحالات محتفظة بطابعها الخاص بها •

ويبدو ان الصراع بين الساميين الذين احتلوا معظم انحاء الشرق الادنى واسسوا فيها حضاراتهم في مختلف العصور وبين العناصر غير السامية من أجل السيطرة يرجع الى عصور واغلة في القدم ، فقد ورد في أقدم الاساطير السومرية ما يشير الى هذا الصراع منها ان « اكا » آخر ملوك سلالة « كيش » الاولى حارب « جلجامش » ملك « اوروك » مطالبا اياه بمدينة « اوروك »

وتزعم هذه الاساطير انه حاصر المدينة فعلا الا انه تم بعد ذلك الصلح بين الملكين ، كما تشير الاساطير ايضا الى انه سبق لسلفه « اكا » وهو الملك « اين — مي — براجي — سي » ان استولى على بلاد سومر وقد سبقت الاشارة الى ذلك . ويؤكد «ديورانت» مؤلف كتاب « قصة الحضارة » ان النزاع بين السامية وغير السامية لعب دورا مهما في تاريخ الشرق الادنى يرجع الى ما قبل أكثر من ستة آلاف عام واستمر حتى يومنا هذا ، وبذلك يقول : « ويلوح ان اسرا قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت في كيش السامية حوالي عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد وفي اور حوالي ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وانا لنجد في التنافس الذي قام بين هذين المركزين الاولين من مراكز الحضارة القديمة اول دور من ادوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذي يكون في تاريخ العراق الادنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كيش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الاول وحمورابي الى استيلاء القائدين الاريين قورش والاسكندر على بابل في القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، والى اصطراع الصليبين والمسلمين ، والى التسابق التجاري ويمتد الى هذا اليوم الذي يحاول فيه البريطانيون جاهدين ان يسيطروا على الاقوام السامية » .



٢٠ ـ حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل :

ومما لا جدال فيه ان العوامل التي حملت اناس العصر القديم على اللجوء الى دلتا الرافدين ودلتا وادي النيل يجب ارجاعها بالدرجة الاولى الى ما وفرته الطبيعة لهم في هاتين المنطقتين من وسائل مواتية لتنمية خبراتهم ومهاراتهم في استثمار الارض والماء اللذين أصبحا العنصرين الاساسيين للحياة والثروة واضحيا أقدم محطتين للتجارب في الحقل الزراعي واكتساب الخبرة في تحقيق حياة اقتصادية خلاقة والتمهيد الى النضج الحضاري •

وقد كان للعوامل الطبيعية دور مهم في نمو الحضارة المصرية وضمان سبل العيش في وادي النيل دون جهد كبير بخلاف ما هي الحال في وادي الرافدين ، حيث كانت الحياة في العراق تتطلب بذل جهد كبير لمواجهة العوامل الطبيعية غير الملائمة : فالنيل يفيض في الفترة المنحصرة بين شهر آب وشهر تشرين الاول فتغمر مياهه المشحونة بالغرين الاراضي الزراعية الواقعة على شاطيء الوادي وتمتد الى حافة الصحراء ، وذلك بعد تقسيم هذه الاراضي الى حياض تتراوح مساحة كل منها بين ٤٠ و ٥٠ ألف مشارة (المشارة تساوي ٢٥٠٠ م^{٢}) فتمكث المياه في هذه الحياض ثم تعاد الى النهر في شهر تشرين الثاني بعد هبوط مستوى النهر وبعد أن تكون

المياه قد تركت على سطح الحياض طبقة من الغرين ، فتنثر بذور المحاصيل الشتوية (الحنطة والشعير والفول والبرسيم) في الطين اللزج فور انسحاب المياه من الحياض فتنمو النباتات وهي مقبلة على موسم الشتاء دون حاجة الى سقي ، ففي رطوبة الارض التي تخلفها آثار الفيضان في داخل الحياض ما يكفي لنموها ونضجها . وهذه هي الطريقة التي مارسها المصريون في زراعتهم منذ أقدم الازمان ، وقد بقيت يعمل بها آلاف السنين ، وهي الطريقة المعروفة اليوم بالري الحوضي (Basin Irrigation) والتي لاتزال معمولا بها في منطقة شاسعة من مصر العليا . وقد سميت بالري الحوضي لان الطريقة المتبعة في الزراعة هي عبارة عن اقامة سدود ترابية وتنظيم الارض الزراعية على شكل حياض تحفظ داخلها المياه فتترك الراسبات الغرينية على سطحها وهي التي يستفاد منها في تنمية الزروع الشتوية . ويتضح من ذلك ان هذه الطريقة لا تؤمن الا زراعة نوع واحد من المحصول في السنة هي الغلة الشتوية فقط ، وهي مقيدة بنظام الفيضان . ومع ذلك فان لهذه الطريقة فائدتها المضمونة وهي ان الاراضي التي تزرع بهذه الطريقة لاتفقد خصوبتها ، أضف الى ذلك ان النظام الحوضي المذكور لا يحتاج الى اقامة القناطر والسدود الثابتة لتأمين رفع مناسيب المياه الى الحد المطلوب للارواء والخزن ، وقد عرف الجغرافيون العرب نظام الري الحوضي هذا فسماه الجغرافي الاندلسي احمد بن عمر بن أنس العذري (١٠٠٢ ــ ١٠٨٥ م) « الفندون » حيث يقول في صفة النيل « انما يسقي مرة واحدة ، ولا يحتاج الى غير ذلك ،

أي يسقي بفيض النهر عندما تعلو ، فاذا انحسر الماء زرع الناس دون حاجة الى سقي آخر »(١٤٥) .

وهنا لابد من الاشارة الى ان راسبات الغرين مع فوائدها في تجديد خصوبة الارض بصورة دائمية فأضرارها خطيرة أيضا لانها تتراكم في أقواع الجداول فتعيق عملية جري المياه بالكميات المطلوبة ، مما يدعو الى تطهيرها بين حين وآخر ، كما تتراكم في أقواع الخزانات والحياض فتقلص استيعاب كمية الخزن من المياه على مدى السنين . واذا لاحظنا ان نهري دجلة والفرات يحملان في أثناء الفيضان من راسبات الغرين ما يساوي خمسة أمثال ما يحمله النيل اتضح لنا ما تؤلفه قضية الراسبات الغرينية من مشكلة كبرى بالنسبة للعراق ، فالضفاف العالية من الجداول القديمة التي تشاهد آثارها ممتدة جنبا الى جنب الى مسافات طويلة في المنطقة الاروائية من العراق تدل على عظم الجهود التي كان على الاقدمين بذلها في وادي الرافدين سنويا في سبيل تطهير الجداول من الراسبات الغرينية .

وقد بقي وادي النيل بما فيه الوجه البحري خاضعا لنظام الري الحوضي قرونا عديدة الى عهد محمد علي باشا الكبير الذي قرر اقامة منشئات الري الثابتة لتنظيم مياه نهر النيل ، وذلك بغية تحويل نظام الري الحوضي الذي يعطي حاصلا شتويا فقط الى نظام الري الدائم على مدار السنة لزراعة الحاصلات الشتوية والصيفية ، وبخاصة لاسقاء مزروعات القطن ، فكان أول عمل هندسي اقيم

على النيل القناطر الخيريـة التي انشئت سـنة ١٨٦١ ، ثم تلاها انشاء خزان أسوان وقناطر اسيوط وخزان جبل الاولياء وقناطر زفتي على فرع دمياط ، وقناطر اسنا وغيرها من اعمال الري التي تحقق التطور المنشود فبعد انشاء خزان اسـوان وتعليته للمرة الاولى انجز تحويل نحو ٤٢٠ الف فدان مصري (ايـكر) من أراضي مصر الوسطى من الري الحوضي الى الري الدائم في خلال الفترة من سنة ١٩٠٢ حتى سنة ١٩١٢ ، وبعد تعلية خزان اسوان للمرة الثانية وانشاء خزان جبـل الاوليـاء على النيـل الابيض استؤنفت عمليات التحويل في الفترة من سـنة ١٩٣١ الى سـنة ١٩٤٠ وبلغت بذلك مجموع المساحات المحولة في خلال هـذا القرن نحو ٧٠٠ ألف فدان مصري[١٤٦] .

أما في العراق فلم يكن بالامكان تطبيق نظام الري الحوضي حيث يفيض الرافدان ، دجلة والفرات ، في أشهر الشتاء والربيع ، أي من كانون الاول الى أوائل حزيران ، ويعقب الفيضان أشهر القيض ، فيتضح من ذلك ان المياه متوفرة في بداية زراعة الحاصلات الشتوية الا ان هذه الزروع تقرب من نضجها في وقت انخفاض المياه ولابد من اروائها كي تستكمل نموها قبل حصدها . وفي هذا الوقت بالذات تبدأ زراعة الحاصلات الصيفية التي تحتاج الى الارواء أيضا . لذلك فان طبيعة الوضع في العراق تستلزم تطبيق نظام يختلف عن نظام الري الحوضي في مصر ، نظام الري الدائم ، الذي يؤمن مياه السقي في العام كله بحسب حاجة المزروعات اليها ، وقد اشتهر به العراق منذ أقدم الازمنة . وقد كان هذا النظام عاملا

قويا في توطيد اركان الحضارة النهريـــة أو الدولـــة الاروائيـــة Hydraulic State [١٤٧] .

ويبدو واضحا مما تقدم ان ممارسة الاعمال الزراعية في وادي الرافدين كانت تتطلب جهودا جبارة للتغلب على الصعوبات التي تتخللها عملية ايصال الماء الى الارض الزراعية ، كما انهـا كانت تدعو الى بذل جهود كبيرة لمكافحة الفيضانات ووقاية المزارع من خطر الغرق . وهكذا ففي الوقت الذي كان فيضان النيل مصدر نعمة لمصر كان فيضان الفرات مبعث نقمة لسكانه في جميع أدواره التاريخية . ومما لاشك فيه ان الاعمال المضنية والجهود الجبارة التي بذلتها الحشود النازحة من شبه جزيرة العرب الى المستوطنات الجديدة على طول الفرات بين دير الزور وبابل كانت عاملا محفزا لوضع الحجر الاساس للحضارة السامية القديمة . واحسن من عبر عن طبيعة الوضع في كل من مصر والعـراق سـير ويليـام ويلكوكس حين قال : « ولما كانت مصر والعراق واقعتـين على حافتي صحارى بلاد العرب ، فمن المظنون جدا ان تكون أقـدم الاقوام التي استوطنت هذين القطرين انما نزحت اليهما من بلاد العرب ، وكانت أول من اخضع واديي النيل والفرات . ومن السهل معرفة السبب الذي من أجله تفوق سكان سـهول الفرات على منافسيهم سكان سهول النيل ، وذلك لان كل شيء في مصر سهل يمكن الحصول عليه بدون جهد أو عناء ، فالنيل (ملك الانهر) كان ولا يزال يجري ويفيض على غاية من الانتظام والوقـــار وهو يحمل في كل عام كميات معتدلة من الراسبات ولاجل هذا

فانه لا يخلق للذين يسكنون ضفافه مشاكل صعبة ، وأرض مصر ، جنة الله ، خصبة ، وذات مناخ رائق في الشتاء ومعتدل في الصيف . اما الحالة في العراق فتختلف عن مصر كثيرا ، فالسيول الجارفة التي تملأ حوض دجلة والفرات في موسم الفيضان يحتاج التغلب عليها وضبطها الى قوة خارقة . ثم ان اراضي العراق خصبة جدا الا ان شتاءه قاس جدا في حين ان الصيف فيه شديد الحرارة ، وطويل الامد ، ونسبة الفرق في درجة الحرارة في الظل كنسبة الفرق بين ٢٠ درجة و ١٢٠ ، فهذه المدرسة القاسية التي نشأ فيها سكان بابل هي التي أوجدت فيهم هذا الارهاف في الحس والقابلية الفكرية العظيمة »(١٤٨) .

ويضيف سير ويليام ويلكوكس في مقارنته بين نظام الري الدائم في العراق وبين النظام الحوضي في مصر فيقول : ويعزى خصب بابل العظيم الى نظام الري الدائم — أي الري الذي يستمر طول السنة — وهي الطريقة التي قدمها للعالم سكان وادي الفرات القدماء — والى مصر يعود الفضل في استحداث نظام الري الحوضي ، ذلك النظام الذي يفوق منافسه عظمة وتأثيرا ولكنه لا يدانيه في الفائدة ، لانه لا يضمن غير غلة واحدة في السنة عوضا عن غلتين . وكان يروي وادي النيل بتقسيمه الى حياض زراعية تتراوح مساحة كل منها بين ٣٠ و ٤٠ ألف ايكر (يساوي الايكر نحو ٤٠٠٠ متر مربع) : أما في بابل فقد كان يسال الماء الى كل حقل مساحته ايكرين او ثلاثة ايكرات ... ونرى اليوم مصر تترك نظامها القديم في كل مكان(١٤٩) .

٢١ ـ حضارة العرب في مرحلتها الثانية ودورها في تقدم المدنيـة وازدهارهـا :

يتضح من خلاصة ما تقدم انه كانت هناك حضارة عربيـة قديمة في مرحلتيها الاولى ازدهرت في جزيرة العرب ، وهي حضارة نهرية كانت تعتمد على الري والزراعة[١٥٠] ، اذ عاش أهل الجزيرة « على النهرين الكبيرين اللذين كانا يشقان شبه الجزيرة من اقصاها الى اقصاها[١٥١] ، وكان ذلك في الفترة الرطيبة (الدورة الجليدية الاخيرة) التي عاشتها الجزيرة قبل حوالي عشرين ألف سنة ، أي قبل اكتشاف الكتابة • لذلك لا نعرف شيئا عن سكان تلك الفترة الا من آثارهم التي تركوها في البلدان التي هاجروا اليها ، وهذه تعود الى ما بعد اكتشاف الكتابة[١٥٢] ، أما الحضارة التي اسسوها في مستوطناتهم الجديدة بعد نزوحهم من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب فلدينا معلومات مفصلة عنها مما دونوه في كتاباتهم بعد ظهور الكتابة » ، وأهم ما تركه العرب من حضارتهم في مرحلتها الثانية هذه اختراع الحروف الهجائية (الابجدية) وهي من اعظم المخترعات التي أوجدها العقل البشري[١٥٣] ، بل من أجل البركات التي هبطت على البشرية في مسيرتها نحو التقدم الحضاري • ثم تأتي بعدها البركة الروحية في الدعوة لعقيدة التوحيد والاهتداء الى عبادة الاله الواحد • ومن الثابت ان الفضل في كلا الحادثين

يرجع الى الثقافة العربية القديمة التي نمت وازدهرت على يد الاقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب الى أرض فلسطين في النصف الاول من الالف الثالثة قبل الميلاد .

أ ـ اختراع العرب للحروف الهجائية (الأبجدية) :

يتفق العلماء على ان الكنعانيين الذين نزحوا من جزيرة العرب واستقروا في فلسطين كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة ، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء ، ويعود تاريخها الى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد[١٥٤] ، ومن الكنعانيين انتقلت الى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة ٨٥٠ و ٧٥٠ قبل الميلاد الى الاغريقية واللاتينية وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي الاصلي (الالف باء) ، وقد احتفظ اليونانيون بالترتيب نفسه الذي وضعه الفينيقيون من حيث تسلسلها ومن حيث طريقة كتابتها من اليسار الى اليمين وفق الطريقة الفينيقية الاصلية . والفينيقيون والكنعانيون تسميتان لمسمى واحد . هذا وقد حمل الاراميون في ما بعد الحروف الهجائية من سواحل البحر الابيض المتوسط شرقا الى آسيا حتى الهند . وهكذا تغلبت الكتابة بالحروف الابجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك .

وقد اطلق على الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء اسم كتابة طور سيناء أو الابجدية السينائية ، وهذه الكتابة البسيطة جاءت باللغة الكنعانية القديمة ، وتعد حلقة وصل بين

الهيروغليفية التصويرية والابجدية ، وقد عثر عليها في المعبد المصري القديم عند مناجم الذهب المصرية في سيناء ، وهي تحمل اسم الالهة « بعل ايث » وهي الالهة السامية المعروفة باسم (الالهة حتحور) .

وقد وجد عدد من هذه النماذج بالاحرف نفسها في سيناء أيضا كما وجد منها أيضا في جنوبي فلسطين ، وقد كتبت كل هذه النماذج باللهجة الكنعانية القديمة . ويؤكد خبير اللغات «دايرنجر» ان مصدر اختراع الابجدية (الفابيت) اللاتينية يرجع الى منطقة فلسطين وسورية وهي تنفرد بين جميع مناطق الشرق الادنى في هذا الاختراع الذي يمثل شبه جسر يجمع بين حضارتي مصر وبلاد الرافدين(١٥٥) .

كما يؤكد الدكتور ولفنسون « ان الخط الكنعاني (الابجدية) هو من صنع الكنعانيين(١٥٦) واختراعهم وحدهم لانه لا دليل مطلقا على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الامم(١٥٧) » .

ويعلل الخبراء كيفية نشوء فكرة الاخذ بالاحرف بدلا من الصور هو ان الكنعانيين الذين كانوا يعملون في مناجم طور سيناء اهتدوا الى التدوين بالحروف الابجدية بأن اختزلوا الكتابة الهيروغليفية التي تشير الى المعاني ومقاطع الكلمات بصور واشارات واكتفوا بالحروف الاولى من أسماء الصور فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الابجدية الاولى ، فاخذوا مثلا صورة رأس الثور عن الهيروغليفية ، فاغفلوا لفظها باللغة

المصرية وأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم الخاصة بهم فصارت هذه العلامة الالف ، وعلى هذا النمط عالجوا صورة البيت فأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم واعتمدوا على الحرف الاول من اسمها وهو الباء وهكذا دواليك • فتكونت من هذه الاحرف الابجدية وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفا • وقد انتشرت هذه الابجدية التي تعد أقدم أبجدية معروفة حتى الان شرقا وشمالا وجنوبا ، فصارت أصل الابجديات في مختلف الاماكن بعد ان تطورت في كل منها حسبما اقتضته طبيعة لغة أهله ، فمنهم من حافظ على شكلها الاصلي كما وضعت في الاصل ومنهم من غيّر فيها وأضاف اليها أو نقص منها • ويؤكد الدكتور ولفنسون في كتابه «تاريخ اللغات السامية» « ان الخط الكنعاني هو من صنع الكنعانيين واختراعهم وحدهم لان لا دليل مطلقا على وجود ابجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الامم » وقد سبقت الاشارة الى ذلك •

يستدل مما تقدم ان العرب كان لهم أكبر دور في تطوير الثقافة العالمية ، فهم مخترعو الحروف الابجدية التي أظهرها الكنعانيون لاول مرة في طور سيناء وفي جنوبي فلسطين كما تقدم شرحه وبعد ان تنقلت في ارجاء الجزيرة وأطرافها تطورت الى عدة ابجديات ، ثم عادت فاستقرت في قلب الجزيرة في شكلها الاخير (عربية القرآن الكريم) المأخوذة عن النبطية المتأخرة • كما يتضح أيضا ان الكتابة العبرية بمعنى اليهودية لم تكن لها أية صلة في نشوء الابجدية الكنعانية العربية وتطورها وهي لم تتعد كونها واحدة من الابجديات المتفرعة من الابجدية الكنعانية العربية الاصلية •

ب ـ ابتداع العرب لعقيدة التوحيد (عبادة الاله الواحد) :

سبق الكلام على اختراع الكنعانيين العرب للحروف الابجدية ونبحث الان فيما قدمته حضارة العرب القديمة في مجال الديانات السماوية وبخاصة عقيدة التوحيد (وحدانية الاله وعبادة الاله الواحد) فقد كان الكنعانيون العرب أول من نطق باسم الله خالق السموات والارض ، وكان يعرف باسم « ايل » أو الاله أو الله في العربية الفصحى • والمعلوم ان ديانة عرب الجزيرة كانت قائمة على الوثنية ، فلما هاجر سكان الجزيرة العربية الى مناطق الهلال الخصيب جاءوا بدياناتهم الى مستوطناتهم الجديدة مع لغتهم وثقافتهم حاملين معهم آلهتم وأهمها الاله القمر « سين » اذ كانت عبادة هذا الاله شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا جنوبها وشمالها كما كان معروفا في بلاد الحبشة • وكان الاله القمر مذكرا عند سائر الساميين ، في حين ان الاله الشمس الذي كان شائعا لدى القبائل العربية أيضا كان الها مؤنثا عند السكان في جنوبي الجزيرة العربية ومذكرا عند الشماليين ، وعلى العكس من ذلك كانت الزهرة الها مذكرا عند الجنوبيين ومؤنثا عند الشماليين ، ويرى الدكتور ديتلف نيلسن ان هذا التغير في جنس الشمس والزهرة يشير الى انتقال الديانة السامية العربية القديمة من الجنوب الى الشمال وتغيرها بسبب البيئة الجديدة ، ويعتقد ان تسمية سيناء مأخوذة من الاله « سين » المذكور •

وهناك مايدل على ان بعض القبائل العربية في الجزيرة العربية كانت تمارس التوحيد الذي نادي به ابراهيم الخليل من

قبل والذي يرتقي ايمانه به الى زمن يسبق عهد موسى واليهود . فيقول الدكتور غوستاف لوبون : « لقد وجـد بين العـرب في جزيرة العرب من يعبد الها واحدا وسمي هؤلاء بالحنفاء ، وكان محمد (ص) يحب هذا الاسم ، وليست عقيدة التوحيد التي هي من أهم مبادىء القرآن الكريم ، كل ما عند الحنفاء ، بل قالوا أيضا ، كما قال القرآن الكريم فيما بعد ان على الانسان ان يسلم بقضاء الله وقدره تسليم ابراهيم حينما رأى ذبح أبنـه اسـحق (والصحيح ابنه اسماعيل) ولذا لم يكن من الخطأ اخبار محمد (ص) في القرآن الكريم بوجود مسلمين قبل ظهوره[١٥٨] والحنيف ذكر في الغالب مقترنا بابراهيم الخليل في القرآن الكريم مشيرا الى وحدانية الله : « ملة ابراهيم حنيفا » و « حنفاء لله غير مشركين به » وهذا مع العلم ان ذكر « الله » كان شائعا عند شعراء الجاهليـة قبل الاسلام ؛ فمعظمهم كان يدرك معنى الاله العلي الذي يهيمن على كل شيء خالق السموات والارض . فقد جاء في ديوان امرىء القيس الشاعر العربي الشهير ما يشير بوضوح الى رفضه عبـادة الاصنام وميله الى وحدانية الاله[١٥٩] ، فكان الاصطلاح « مـلة ابراهيم حنيفا » شائعا عند العرب قبل ظهور الاسلام وقد اشتهر هذا اللقب أفراد من مفكري العرب سمت نفوسهم عن عبـادة الاوثان اذ كانوا يرون ان التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له ، لذلك فقد اطلق اللقب المذكور على من عرف بنبذه الشرك وميله الى التوحيد[١٦٠] ، والمسعودي يؤيد ذلك بقوله « ان العـرب

كانت في جاهليتها فرقا : منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور ، موقنا بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب المعاصي » •

ويذهب الدكتور ديتلف نيلسن في مجرى بحثه عن تاريخ الاديان الى « ان جزيرة العرب هي الموطن الاصلي للعنصر السامي، والشعوب الشمالية التي نشأت عنها الحضارات السامية الشمالية الرفيعة • والدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الاشوري المعقد .كما ان ذلك الدين العربي القديم هو الذي مهد لهذا التطور التاريخي للدين العبري (اليهودي) مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائي الذي دان به آباء الشعب وأجداده الاولون ، كما انه بقي زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديد بين العقيدتين الدينيتين السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذي تطور أخيرا الى الثالوث الالهي (الاب والابن وروح القدس) ، ومن ثم خطا خطوات اخرى في التوحيد المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة • ويقول العقاد في كتابه « ابليس » (ص ١٠٦) ما نصه : « وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب اساتذة الانبياء العبريين في أهم الاصول الدينية وفي مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب • ففي سفر ايوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول وقد تتابعت النبوءات في بلاد العرب قبل ان يكون للنبوة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العرب هودا وصالحا وشيبا وذا الكفل ، وجاء في التوراة ذكر بلعام وايوب وشعيب » •

وكانت الديانة الكنعانية أرقى ديانات الامم السامية الوثنية، فعلى الرغم من تأثير الثقافة المصرية والثقافة البابليــة والثقافـة اليونانية فيها لاحتكاكها بهذه الثقافات احتفظت بطابعها البدوي السامي وبالتقاليد القديمة السائدة في جزيرة العرب ، فكان أكبر آلهة الكنعانيين واعلاهــا مقاما الاله « ايل » الذي لقب بالالــه العلي أو الاله العظيم (Supreme God) وهو اسم الاله « ايل » الوارد في التوراة(١٦٠أ) وقد ورد اسمه فيها ٢٢٩ مرة واطلق عليه اسم الله (تك ٢٨ : ١٧–١٩) : وقد اقترن اسم الاله « ايــل » بابراهيم الخليل وتؤكد التوراة ان الاله « ايل » هو الاله الذي كان يعبده ابراهيم الخليل وبذلك تكون دعوة ابراهيم الخليل الى وحدانية الاله أول دعوة عامة للتوحيد في تاريخ البشرية بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد وقد اعتبر الكنعانيون جميع أرض كنعان أرض الاله ايل وهو القادر على كل شيء والحاكم المطلق لا ينافسه منافس ولا يستطيع أحد أن يغير من ارادته وحلمه السامي وقد تسمى بسيد الالهة الحامي • ويرى العلامة شافر أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم وتفوق لاله واحد فوق الجميع يدل دلالة واضحة على تقبل الكنعانيين لعقيدة التوحيد(١٦١) والدليل على ان كلمة ايل أي الاله أو الله كلمة عربية الاصل هو ان ملوك العرب في الجزيرة العربية قبل الاسلام كانوا يقرنون اسماءهم باسم الاله ايل تيمنا وتبركا به على غرار ما نستعمله الان باضافة اسم الله الى اسم الشخص مثل عبدالله وعبدالاله وعبدالخالق ••• الخ •

وكان للاله « ايل » المكانة السامية نفسها عند الاراميين ،

فقد ورد اسمه مضافا الى أسماء بعض ملوكهم ، فقد اشتهر بين الملوك الاراميين الملك « متى ايل » ملك ارباد الذي عقد معاهدة دفاع مشترك مع الملك الاشوري « نيراري » (٧٥٤ — ٧٤٥ ق٠م٠)[١٦٢] كما اتخذ الهكسوس الذين حكموا مصر بين سنة ١٧٨٥ وسنة ١٥٨٠ ق٠م٠ اسم الاله « ايل » للتبرك به فاضيف الى أسماء بعض ملوكهم ، اذ ورد ذكر أحد ملوكهم باسم « يعقوب ايل » ، وقد ورد ذكر مكان باسم « يوسف ايل »[١٦٣] ، ومما يثبت جليا ان كلمة « ايل » بمعنى الاله العظيم كنعانية عربية الاصل ان أكثر ملوك معين وسبأ كانوا يضيفون اسم الاله « ايل » الى اسمائهم تبركا به ٠ ويقول الاستاذ الجميلي في كتابه « تاريخ العرب في الجاهلية » : « ان ايل كلمة عربية الاصل وقد كانت منذ القديم في مختلف اللهجات العربية القديمة بمعنى الاله ، وهي تعني الرب أو الاله ، وقد وردت في مختلف اللهجات العربية القديمة في المعينية والسبئية والبابلية والارامية والكنعانية والسريانية والعبرانية فتطورت عنها كلمة الاله او الله في العربية الفصحى » ، ويذكر قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧١ (ص ١٤٢) ان كلمة « ايل » كلمة سامية ومعناها في الاكدية الاله بصورة عامة ، أما في الاوجرتية (نسبة الى اوغاريت) فانها تعني أبو الالهة ٠

وفي موضوع الاله « ايل » ومكانته عند العرب يقول الدكتور ديتلف نيلسن في بحثه التاريخي عن الديانة القديمة في شبه جزيرة العرب : « ان هناك اسما واحدا بين أسماء الهة العرب يجب ان

نذكره وهو مشترك بين جميع الاسماء وبه تتصل اكبر مشكلة في الديانات السامية وذلك الاسم هو « ال» أو اله بمعنى الله ، وكان هذا الاله ال معروفا في كل مجاميع النقوش العربية القديمة ، فذلك الاله وذلك الاسم كانا اذن معروفين فيها قبل الاسلام ليس فقط في شمالي بلاد العرب بل وفي كل جزيرة العرب هذا ويفيد العلامة ديسو Dussaud « ان النقوش الصفوية[١٦٤] اخبرتنا وللمرة الاولى وبدليل لا يقبل الشك كيف ان الله كان معروفا لدى العرب وكان مقدسا خاصة في المجمع الالهي العربي الشمالي قبل ان يبشر به الاسلام كإله للتوحيد » •

« ويؤكد الدكتور منيف الرزاز ان النزوع الى التوحيد كان قائما في جميع الحضارات العربية ، فمنذ فجر التاريخ وحتى الاسلام ثمة نزوع مستمر الى التوحيد ، هذا النزوع الى التوحيد خاص بامم المنطقة التي هي الوطن العربي لليوم •• ومن هذا النزوع ولد بعد ذلك الدين اليهودي ثم ولد الدين المسيحي • وكثيرا ما ننسى لمجرد كون المسيحية منتشرة في أوربا وفي أمريكة ان المسيحية عطاء شرقي وانها ولدت في القدس ولم تولد في رومة، هذه المسيحية منذ ان نشأت انقسمت الى فرعين اساسيين ، فرع عن منطقة الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، وفرع نقله بولص وبطرس عن طريق أثينا الى رومة فانتشر في أوروبه • وكانت المسيحية الشرقية دائما تختلف مع المسيحية الاوروبية فيما يتعلق بالتوحيد وبالتثليث والخلاف يتمثل في النزوع الى التوحيد في كنيسة الشرق يقابله نزوع الى التعدد حسب الفلسفة اليونانية

الافلاطونية وكان أروع من يمثل الفرق بين العقيدتين بطريـرك الاسكندرية اريوس المولـود سنة ٢٥٠ في ليبيـا والمتوفي سنة ٣٣٦ ميلاديـة واصبـح بعـد ذلك اسقفـا في الاسكندريـة طرح رأيا ضـد رأي الكنيسـة الغربيـة الذي كان سائـدا ، وقال ان الله لا يلد ولا يولد وان المسيح ليس ابنا للاله وانه بشر ولكنه آكمل البشر . وقد استدعي اريوس الى القسطنطينية وعقد له أول مجمع كنسي لبحث المواضيع العقائدية بأمـر الامبراطور قسـطنطين وحـوكم بالهرطقـة ونفي ومـات في المنـفى في القسطنطينية »(١٦٥) .

ثم ظهر نسطوريوس بطريـرك القسطنطينية ودعـا الى ان للمسيح شخصيتين منفصلتين (اقنومين) اقنوم الانسان يسـوع واقنوم الله ، ولا يجوز ان تسمى مريم العذراء أم الله بل هي بشر ولدت المسيح بالشخصية البشرية وان المسيح مات على الصليب كانسان . فاعتبرت تعاليم نسطوريوس هذه بدعـة ضالة تخالف المباديء العامة التي تدين بهـا الكنيسـة ، وكان الحكم على نسطوريوس واتباعه سنة ٤٣١م بالضـلال والالحـاد . فعـزل نسطوريوس من أسقفية القسطنطينية وبعد ان قضى خمس سنوات معتكفا في ديره القديم قرب انطاكية نفاه الامبراطور تيئودوسيوس الثاني سنة ٤٣٦ الى أعالي مصر حيث توفى سنة ٤٥١م . وعلى الرغم من اضطهاد الكنيسة البيزنطية للنساطرة انتشرت النسطورية انتشارا واسعا برعاية الفرس أعداء الرومان التقليديين . وقـد اعتبر الملك فيروز الاول (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) النسطورية دينا لجميع

مسيحيي الامبراطورية الفارسية ، وفي سنة ٤٩٦م اجتمع في سلوقية (المدائن) المجمع الديني النسطوري وانتخب أول بطريرك نسطوري ومنذ ذلك الحين سميت الكنيسة النسطورية بكنيسة الشرق[١٦٦] .

وقد ورد اسم الاله « ايل » في الكتابات الفينيقية بصيغة « ايلوس » وهو الاله « ايل » الكنعاني نفسه[١٦٧] .

يتضح مما تقدم ان الكنعانيين العرب اجمالا سبقوا امم العالم طرا في نشر أرقى ديانات الامم السامية الوثنية ، لذلك كان تأثيرهم الديني لا يقل عن تأثيرهم العلمي الصناعي . ففي ذلك يقول الدكتور ولفنسون : « وللكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم المتمدن فضل عظيم آخر وهو تأثيرهم الديني في جميع الامم السامية ، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الامم السامية الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الاراميون والاسرائيليون والعرب هذا التأثير[١٦٨] .

والجزيرة العربية كانت مهبطا لعدد من الانبياء والرسل الذين نادوا بوحدانية الاله وما ابراهيم الخليل الا أحد هؤلاء الانبياء الذين يرجع أصلهم الى الجزيرة العربية ، وكذلك الكاهن الاعلى الموحد » ملكي صادق « ملك اورشليم الذي بارك ابراهيم الخليل باسم الاله العلي خالق السموات والارض . ثم جاء من بعده الكاهن المدياني الموحد « يثرون » الذي زوج ابنته الى النبي موسى والذي كان على ما يرجح الباحثون يعبد الاله « يهوه » وهو اسم الاله الذي اتخذه اليهود الها خاصا بهم فيما بعد . بشر

هؤلاء الانبياء بالتوحيد قبل ظهور موسى واتباعه بألف الى ألفي عام ، ودعوا الى عبادة الاله الواحد خالق السموات والارض • وقد نسبت هذه الدعوات النبوية كلها الى أصل واحد ، هو السلالة السامية التي ختمت بدعوة الرسول العربي محمد (ص) التي جاءت متممة لها •

٢٢ ـ حضارة العرب في مرحلتها الثالثة (في جنوبي جزيرة العرب):

قد يترائى للبعض بعد عرض تفاصيل مراحل تطور حضارة العرب في مرحلتيها الاولى والثانية ـ الأولى في جزيرة العـرب والثانية في وادي الرافدين ـ ان حضارة العرب في جزيرتهم قد فتر نشاطها الحضاري أو توقف تقدمها التمدني بعد أن حل الجفاف في البلاد مما أدى الى انحباس الامطار ويبس الانهر . وهذا ماكان يتوقع حدوثه بعد هجرة أكثر سكان الجزيرة الى الهجرة من وطنهم، ولكن الذي حدث كان خلاف المتوقع اذ تمكن الباقون في جزيرتهم ومعظمهم من جنوبي الجزيرة وبصورة خاصة سكان اليمن « بلاد العرب السعيدة » Arabia Felix من الحفاظ على مقومـات حضارتهم القديمة واستمرارهم في الزراعة التي تعتمد على الري . وقد تم لهم ذلك بفضل ما اكتسبوه من خبرة فنية في الزراعة وتنظيم الري في فترة العصر الجليدي الاخير عندما كانت أوديتهم الحالية أنهرا جارية ، فلجأوا الى انشاء السدود والخزانات والصهاريج على اوديتهم التي تخترق جبالهم ، وما اكثرها بين منعطفات الجبال، وذلك لحبس كل قطرة من مياه السيول وخزنها في داخل الاسداد ثم اطلاقها في جداول ري وقنوات لارواء أراضيهم حسب الحاجة. وبذلك عوضوا عن أنهرهم التي اعترتها اليبوسة بسبب الجفاف . وهكذا تمكن أهل اليمن من استمرارهم في الزراعة التي تعتمد على

الري من الخزانات والسدود التي أقاموها على أوديتهم في طول البلاد وعرضها حتى أطلق البعض على حضارتهم حضارة السدود وعلى رأسها سد مأرب المشهور .

هذا وقد استفاد اليمانيون من موقع بلادهم الجغرافي فاحتكروا نقل البضائع والسلع بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق ، اذ كانت السلع والاطياب تأتي من الهند والحبشة الى شواطيء جزيرة العرب فينقلها اليمانيون على قوافلهم الى مصر والشام والعراق ، كما احتكروا الملاحة في البحر الاحمر . وكان اليمانيون فوق ذلك أهم شعوب العالم المنتجة والمصدرة للمر والبخور التي كانت تؤلف مادة ثمينة في تلك الازمان ، اذ كانت تقدم الى الملوك والى الالهة[١٦٩] .

وأهم المخلفات التي حافظوا أهل اليمن عليها وقد بقيت معهم هي لغتهم القديمة المقدسة ، وهذا يفسر لنا القدسية التي كانت للعربية الفصحى بين عرب الجاهلية ، كما يفسر لنا اجماع علماء النحو المقارن للغات السامية من امثال بروكلمان ووليم رايت وادوار دورم ودافيد بلين ، على ان اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الام ، وأقرب هذه الصور الى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية[١٧٠] .

وقد تمكن أهل اليمن (الباقون منهم) بفضل حضارتهم القديمة من تأسيس عدة ممالك عربية ذات حضارة راقية ، وهذه الحضارة هي حضارة العرب في مرحلتها الثالثة ، وكان لها دور

رئيس في ديمومة حضارة العرب القديمة . وكان أهم هذه الممالك سبأ ومعين وقطبان وحضرموت .

ويؤكد الخبراء على ان الدول التي قامت في اليمن في هذه المرحلة كانت على اتصال بالسومريين والاكديين والاشوريين والعموريين في وادي الرافدين ، كما كانت على اتصال بالكنعانيين في فلسطين وكذلك بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم العصور . وكانت منطقة « مجان » (عمان حاليا) مصدرا مهما للنحاس لسكان وادي الرافدين القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ واستمرت كذلك في العهد السومري والعهود التي اعقبته وتصفها الكتابات المسمارية بانها « جبل النحاس » وقد اشتهرت « مجان » أيضا بحجر الديوريت الاسود المشهور . ويرجح ان الديوريت الذي كان ملوك العراق القدامى يستعملونه في صنع التماثيل والانصاب كان يجلب بالدرجة الاولى من « مجان » وتشير أخبار الدولة الاكدية الى غزو « نرام سين » (٢٢٩٢ ـ ٢٢٥٥ ق.م.) حفيد سرجون لمجان حيث كانت تقوم فيها مملكة يبدو من اسم ملكها « انيثوم » انه من الساميين العرب وكانت الدولة العربية في جنوبي جزيرة العرب ومنها اليمن مصدر تصدير وتجارة مرور للبخور والعطور كما كانت مركزا مهما للاتصال التجاري بين المحيط الهندي والبلاد الواقعة .

« ومنذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام تعتمد فقط على ماجاء في التوراة وما كتبه كتاب اليونان والرومان عنهم . وكان هذا كله شيئا قليلا لا يشفي

غليل العلماء حتى لو أضفنا اليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الاسلام ، أو ما نستطيع ان نحصل عليه من معلومـات اذا درسنا الشعر الجاهلي • ولكن الامر أخذ يتغير منذ بدأت النقوش اليمنية تصل الى ايدي العلماء وأصبح عددها الان اكثر من ٥٠٠٠ نقش فيها معلومات كثيرة عن ممالك الجزيرة العربية في الجنوب ، كما وصل أيضا الى أيدي العلماء عشـرات الآلاف من النقوش القصيرة على واجهات الصخور في شمالي بلاد العرب من ثمودية ومعينية ولحيانية وغيرها ، جعلنا نعرف الشيء الكثير عن شعوب الشمال العربي » • (الدكتور احمد فخري ، « اليمن ماضيهـا وحاضرها » ، ص ٥٢) •

واليك نبذة عن كل من ممالك اليمن التي ازدهرت في المرحلة الثالثة من حضارة العرب :

أ ــ مملكة معين :

ان أقدم شعب عربي وصلتنا أخباره من جنوبي الجزيـرة العربية هم المعينيون مؤسسو الدولة المعينية التي عاشت في اليمن وظهرت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على رأي بعض العلماء ، ويعتبر المعينيون أقدم الشعوب العربية التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية • وقد ظهرت هذه الدولة في المنطقة الواقعة بين نجران وحضرموت ، وقد كانت عاصمة هذه الدولة في مدينـة « القرم » ، وفي القسم الجنوبي من الجوف تقع خرائب مدينـة معين القديمة • وقد عثر على كثير من الكتابات المعينية وهي من

أقدم الكتابات العربية المعروفة • ومن أقدم الاسر التي عثر على أسماء ملوكها اسر « ايل صادق » و « قه ايل » و « صدق ايل » ، ويلاحظ هنا اضافة اسم « ايل » العربي الى اسمائهم مما يدل على ان الاله العربي أو الله كان معروفا في الجزيرة العربية وانه من أصل عربي • وكانت حضرموت جزءا من مملكة معين وما يتعقبها من مقاطعات في عهد الملك « صدق ايل » الذي كان يلقب بملك معين وحضرموت • ويتفق أكثر العلماء المختصين على ان حكومة معين انقرضت وحلت محلها دولة سبأ مع ان اسم المعينيين ورد في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع زمنها الى ما بعد سقوط حكومتهم •

ب ـ مملكة قطبان :

عاصرت الدولة المعينية مملكة عربية أخرى كانت تعرف باسم مملكة قطبان وكانت أراضي هذه المملكة تقع في الاقسام الغربية من الجزيرة العربية والى الجنوب الغربي من أرض المعينيين وتمتد حتى باب المندب • وقد استدل علماء الدراسات العربية من الكتابات التي حصلوا عليها ان هذه المملكة حكمت حوالي ٨٠٠ سنة بين القرن العاشر والقرن الثاني قبل الميلاد . أما عاصمتها فهي مدينة « تمنع » وتعرف حاليا باسم « كحلان » وتقع في وادي بيجان في منطقة كانت تتميز قديما بخصبها وبكثرة مياهها ومزارعها وبساتينها ، وقد كشفت آثار « تمنع » مؤخرا عن بقايا عدد كبير من المعابد •

استفاد القطبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج أحسن أنواع البخور فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة حدت من نفوذ المعينيين وهناك أدلة تشير الى ان حكومة معين خضعت لمملكة قطبان في سنة ٨٢٠ ق٠م٠

ويستدل من بعض الكتابات القتبانية القديمة على ان حكام قطبان كانوا يتلقبون بلقب « مكرب » ووجد في كتابات أخر انهم كانوا يتلقبون بهذا اللقب بالاضافة الى لقب ملك ، ثم صاروا يتلقبون بلقب ملك وحده • وقد نظم علماء الدراسات العربية قوائم بما عثر عليه من أسماء ملوك القتبانيين وبحثوا في سني ملك كل منهم •

ج ــ مملكة اوسان :

وعرفت الكتابات القتبانية اسم شعب يقال له « اوسن » أو « اوسان » كانت له حكومة ومملكة عثر على أسماء بعض ملوكها• وكانت ممتلكات هذه الحكومة تكون جزءا من مملكة قطبان ولكن الاوسانيين ثاروا على قطبان وانفصلوا عنها وكونوا « مملكة اوسان » التي انضمت اليها أو تحالفت معها قبائل أخر •

وكان الاوسانيون مثل المعينيين والقتبانيين من أهم شعوب العالم المصدرة للبخور الذي كان يؤلف مادة ثمينة في ذلك الزمن من حيث انه كان يقدم الى الملوك والى الالهة لكسب رضاها • وقد وصلتنا كتابات اوسانية كانت من جملة الكتابات التي اعتمد عليها الهمداني في الحصول على معلوماته عن أخبار اليمن القديمة•

وقد وصلت الى أيدي المنقبين من هذه المملكة الصغيرة عدد من التماثيل الرخامية لبعض ملوكها تعد من أنفس ما عثر عليه من آثار في الجزيرة العربية ، وهي أول تماثيل تصل الينا للملوك العرب وقد كتب على قاعدة كل واحد منها اسـم الملك الذي يمثـله • ومن هؤلاء الملوك أحدهم يدعى « معد ايل سلحان » بن مصدق ايل وهنا يلاحظ اضافة اسم الاله ايل الاله العربي الى اسمه على غرار الملوك المعينيين •

د ـ مملكة حضرموت :

ومن الممالك الاخر من حكومات جنوبي الجزيرة العربيـة التي عاصرت ممالك معين وقتبان واوسان وغيرهـا من الممالك العربية الصغيرة مملكة حضرموت وقد ظهرت قبل المسيح بمئات من القرون ، وهي تتميز عن الحكومات العربية الاخر التي عاشت قبل الميلاد في كونها لم تزل تحتفظ باسمها القديم حتى هذا اليوم • وقد ورد اسم حضرموت في التوراة (تكوين ١٠ : ٢٦) كما ورد اسمها في الكتابات اليونانية والرومانية وفي الكتابات المعينية •

وكان الحضرميون يعبدون من بين آلهتهم الاله « سـين » الاله القمر الذي كان يعد الاله القومي الرئيس لشعب حضرموت • وقد تمكن العلماء المختصون بالدراسات العربيـة من الوقوف على أسماء عدد من حكام هذه المملكة فنظموا قوائم بهم حسب تسلسل سني حكمهم ومن هؤلاء « صدق ايل » الذي كان ملـكا على حضرموت ومعين وقد ذكر انه حكم في أواخر القرن الخامس قبل

الميلاد • وتشير الكتابات الحضرميـة الى الروابط القوية بين حضرموت ومعين • ففي الوقت الذي كان معد يكرب ملكا على حضرموت كان شقيقه ملكا على معين ، كما تشير هذه الكتابات الى ان عدد من المكربيين حكموا في حضرموت •

وقد اتخذ ملوك حضرموت مدينة « شبوة » عاصمة لهم وقد ذكرها الكتاب الكلاسيكيون في كتاباتهم كما ذكرها الهمداني ، وقد زار فيلبي موضع هذه المدينة وكشف آثار معابدها وقصورها القديمة ، كما كشـف عن آثار السـدود التي كان قد اقامها الحضرميون في وادي شبوة لخزن مياه الامطار واستغلالها في ارواء الاراضي الزراعية •

هـ ــ مملكة سـبأ :

ان هذه الدولة العربية اليمانية التي ورثت حكومات معين وقتبان واوسان وحضرموت تمثل دولة اليمن الكبرى • فقد ورد ذكر السبئيين في النقـوش الاشورية حيث يذكر كل من تفلاث فلاسر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق•م•) وسنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق•م•) واسرحدون (٦٨١ ــ ٦٦٩ ق•م•) بأنهم أخذوا الجزية من « يثعمر » و « كرب ايلو » من ملوك سبأ • كما ان التوراة ذكرت سبأ وهي تارة تدخل أهل سبأ في اسرة الحاميين وتعدهم من لوش بن حام (تكوين ١٠ : ٧ : ١ اخ : ٩ : اش ٤٣ : ٣) وتارة اخرى تذكرهم في الساميين (تكوين ١٠ : ٢٨) • وقد ورد ذكر السبئيين في الكتابات اليونانية والرومانية ، كما ورد اسـم

سبأ في القرآن الكريم (سورة سبأ الرقم ٣٤ الآية ١٥) وما في ذلك من أخبار سيل العرم (سورة سبأ الرقم ٣٤ الآية ١٦) ٠

أما عن أصل السبئيين فيرى البعض انه من المحتمل انهم كانوا في الاصل قبائل بدوية من سكنة الجوف الشمالي من جزيرة العرب غير انهم تركوا مواطنهم في القرن الثامن قبل الميلاد وارتحلوا الى جنوبي الجزيرة وهناك استقروا وأخذوا يتوسعون في ممتلكاتهم مستفيدين من ضعف المعينيين حتى وصلوا الى الجوف الجنوبي من الجزيرة ٠ وهناك اتخذوا « صرواح » و « مأرب » عاصمتين لهم ٠ وتقع « مأرب » التي اكتسبت شهرتها من سدها العظيم على نحو ٦٠ ميلا الى الشرق من صنعاء ٠ وكان ملوك سبأ الاقدمون يلقبون بلقب مكرب شأنهم في ذلك شأن ملوك قطبان الاوائل ، ثم أخذوا يتلقبون بلقب ملك ، وقد وصلت الينا أسماء ١٥ مكربا و ١٢ ملكا ٠

وقد اشتهر دور المكارب ببناء السدود الشهير المعروف بـ« سد مأرب » الذي يعد أعظم سد انشيء في الجزيرة العربية اذ كان من أعاجيب العالم القديم ٠ فأول مكاربي سبأ وصل اسمه الينا « سمح علي » (حوالي ٨٠٠ ــ ٧٨٠ ق٠م٠) ثم تلاه في الحكم المكرب « يدع ايل ضريح » و « يدع ايل بين » وقد تولى بعد ذلك المكارب « سمح علي بناف » و « يثمر وتر » وكرب « ايل بين » وهم الذين قدموا الجزية لسنحاريب واسرحدون ٠ وفي عهد

« ذمر علي وتر »خلف كرب « أيل يين » يدىء بتشييد سد مأرب أو سد العرم الذي ظل يردده الناس فدخل خبره كثير من المبالغات والاساطير ، (انظر ما يلي عن سد مأرب) .

و ـ العصر الحميري :

كان السبئيون قد خلفوا المعينيين في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق فكانت السلع والاطياب تأتي من الهند والحبشة الى شواطيء جزيرة العرب فينقلها السبئيون على قوافلهم الى مصر والشـام والعـراق فكان ان ازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتد سلطانهم الى أطراف الجزيرة شمالا وشرقا فعمروا بلادهم بحفر الترع وانشاء السدود وبناء القصور والهياكل والحصون ، وقد مارسوا الزراعة على أوســع نطاق حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر الى البحر الاحمر وتنزل بضائعها في الموانيء المصرية أو في العقبة . وقد أدى ذلك الى تدهور أحوال المدن اليمانية التي كانت تعتمد في الاكثر على التجارة المارة بها ، وذلك في حين تحول الانتعاش الى المدن اليمانية الواقعـة على ساحل البحر الاحمر فأخذت قوة هذه المدن تزداد تدريجيا حتى استطاعت ان تتغلب على السبئيين وان تكون دولة مسـتقلة . وكان أصحاب هذه المدن هم « الحميريون » وهم فرع من السبئيين اتخذوا « ريدان » التي هي ظفار الواقعة على بعد مائة ميل من مخا عاصمة لهم .

ويبدأ العصر الحميري سنة ١١٥ ق.م. حين انتقلت عاصمة

السبئيين الى ريدان وينتهي بانقراض دولة حمير على عهد ذي نؤاس ٥٢٥م . وبذلك يكون الحميريون قد حكموا في اليمن ٦٤٠ سنة، وقد عثر علماء الآثار على أسماء ٢٨ ملكا من ملوك حمير حكموا في الفترة بين سنة ١١٥ ق.م. وسنة ٥٢٥ ب.م.

وقد ساعد الحميريين موقعهم الساحلي واحتكارهم الملاحة في البحر الاحمر على الاسهام في الحركة التجارية حتى سنحت لهم الفرصة فتغلبوا على اخوانهم السبئيين أو اتحدوا معهم في آخر أيام دولتهم فصار لقب زعيمهم « ملك سبأ وذى ريدان » وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين .

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن فاتخذ الاحباش من نصارى اليمن سندا لهم واستولوا على اليمن سنة ٣٤٠م . غير ان الحكم الحبشي لم يدم طويلا فقد استطاع اليمانيون اخراجهم سنة ٣٧٨م . وكان لهذه الحملة رد فعل عند اليمانيين الحميريين ضد النصارى ، فلما جاء ملك ذونؤاس (٥١٥ ــ ٥٢٥ م) عزم على اجتثاث المسيحية من اليمن وفرض على النصارى ترك دينهم ولما أبوا أحرقهم بالنار وحرق الانجيل . ويروى ان ذا نؤاس اعتنق اليهودية وتسمى يوسف او فنحاص ، غير ان اضطهاد ذي نؤاس للمسيحيين أثار البيزنطينيين فأوعزوا الى الاحباش بالهجوم على اليمن انتصارا للنصارى ، وكان ان جهز الاحباش حملة على الدولة الحميرية واستطاعوا ان يقضوا عليها ، فقتلوا أهلها وهدموا حصونها ، أما ذو نؤاس فقد رمى بنفسه في البحر وقال الموت في البحر خير من الاسر ، ولكن لم

يلبث أهل اليمن طويلا حتى استنجدوا بالساسانيين الفرس وهم اعداء البيزنطيين فانجدهم انو شروان بقوة استطاعت ان تخرج الاحباش من اليمن وبذلك تحررت اليمن على الرغم من محاولة الفرس البقاء فيها .

ز ـ الصفويون(١٧١) :

١ ـ الصفويون هم قبائل عربية من جنوبي جزيرة العرب كانوا يتنقلون من مكان الى آخر طلبا للماء والـكلاء ، فكانت رحلاتهم تسير وفق نظام فصول السنة ، اذ كانوا يقضون الشتاء في جزيرة العرب وخاصة في نجد ، وفي الربيع كانوا يتجهون نحو الشمال بحثا عن المراعي فيصلون الى أطراف حدود أهل الحضر ، وكانوا يغزون أيضا المراعي الطبيعية مثل مراعي الجولان . فكانت هذه القبائل تقوم بهذه الرحلة نفسها كل عام الى منطقة الصـفاء أو الصفا الكائنة في الجنوب الشرقي من الشام ، ما جعل الباحثين المحدثين ان يطلقوا عليهم اسم الصفويين نسبة الى أرض الصفا التي تركوا فيها كتاباتهم على الاحجار . لذلك ان كلمة (الصفويون) لا تعني شعبا معينا أو قبيلة معينة وليست لدينا أية معلومات عن الاسم القديم لسكان اقليم الصفا ، كما اننا لا نعلم شيئا عن كيانهم الاجتماعي والسياسي فيما اذا كانوا يتكونون من قبائل او قبيلة معينة أو كانوا يشكلون امارة مسـتقلة ، مع انه عثر على نص اغريقي يسمى الاقليم « صفائن » Saphathene واسم الـله عرف بـ « زيوس الصفوي » ، أي نسبة الى هذه الارض ، والى اليوم يطلق على العرب الذين يعيشون حول الصفا اسم « عرب

الصفا » وأول من اصطلح مصطلح « صفويين » على سكان اقليم الصفا دي غوية الذي نشر اول قائمة من النصوص الصفوية تعد على جانب كبير من الاهمية • ويرى البعض ان الصفويين قد أقاموا منذ زمن طويل في ذلك الاقليم قبل ان يأخذوا في حفر نصوصهم على الصخور البركانية(١٧٢) •

٢ ـ كتابات الصفويين :

وقد ترك الصفويون في أرض الصفا نصوصا كثيرة من كتاباتهم محفورة على كتل الصخور البركانية ، وترجع هذه النصوص الى القرون الاولى الميلادية ، وقد كتبت بلهجة عربية تمت الى الكتابات التي وجدت في جنوبي الجزيرة العربية ، وهي أقرب أنواع الكتابات صلة بكتابة أهل شمالي الجزيرة • وتعد هذه النصوص على جانب كبير من الاهمية ، فبفضل اكتشافها تعرف العلماء على لهجة من تلك اللهجات العربية التي كان يتكلم بها العرب في بادية الشام قبل الاسلام ، وذلك قبل ان تمتزج هذه القبائل بغيرهم وقبل اختلاطهم بسكان المدن • وبذلك تختلف كتابات الصفويين عن كتابة غيرهم من العرب مثل النبط الذين اندمجوا بأهل الحضر ، اذ كان الصفويون في أثناء تدوينهم كتاباتهم لا يزالون محافظين على صلاتهم بالجزيرة العربية ولاسيما بالعربية الجنوبية منها موطنهم القديم ، غير انهم تأثروا بالطبع بمن اختلط معهم من العرب الشماليين ، ويظهر هذا الاختلاط على الاسماء والكلمات والتعابير الخاصة التي نقرأها على هذه النصوص •

وعلى هذا فالنصوص الصفوية زودت العلماء بالمادة الاساسية التي ساعدتهم على معرفة الشيء الكثير عن القبائل العربية قبل دخولهم الى الشام أو وصولها على مقربة منها . وقد كان لهذه الكتابات أهمية من الناحية الجغرافية اذ قدمت الينا أسماء مواضع عديدة لايزال بعضها يسمى بالاسماء الواردة في تلك الكتابات .

ومما يلفت النظر ويثير عجب الباحثين من أمر الاعراب الصفويين ، ذلك انهم كانوا يقرأون ويكتبون مع انهم بدو ، وقد عاشوا قبل الاسلام بزمن طويل فكتبوا بلهجتهم العربية الخاصة ولم يكتبوا باللغة الارامية كما فعل غيرهم من العرب المتحضرين . أما خطهم فكان خطا عربيا أيضا وهو قريب من الخط الثمودي والخط اللحياني ولم يستعملوا قلم بني ارم كما فعل غيرهم من العرب في مدن العراق والشام وغيرها . ويعني هذا ان العرب كانوا يكتبون قبل الميلاد بخط عربي قديم منه تفرعت الاقلام العربية المتنوعة فيما بعد . وذلك ان دل على شيء انما يدل على ان الصفويين وأمثالهم من الاعراب لم يتأثروا بالثقافة الارامية مع قربهم منها واتصالهم بها في العراق وفي بلاد الشام فبقوا محافظين على لهجتهم الاصلية وقلمهم القديم(١٧٣) .

وقد عثر على كتابات صفوية في مناطق عديدة تمتد من حماة في سورية الى نهر الفرات في العراق في الشرق ، والى فلسطين والمملكة الاردنية الهاشمية فأعالي الحجاز وكانت كلها كتابات شخصية(١٧٤) .

وقد بلغ عدد النصوص الصفوية التي نشرت حتى الآن ١٧٥٠ نصا تقريبا(١٧٥) • وقد بذل العلماء جهودا كبيرة لفترة أكثر من نصف قرن حتى تمكنوا من فك رموز اللغة الصفوية وخطها •

ويرجع علماء الصفويات عمر أقدم الكتابات الصفوية الى القرن الاول قبل الميلاد أما آخر ما عثر عليه من كتابات فترجع الى القرن الثالث بعد الميلاد ، وبذلك تكون الكتابات الصفوية من عهد تبلغ مدته زهاء أربعة قرون(١٧٦) •

وكان أول رحالة زار منطقة الصفا وأشار الى النصوص المنقوشة فيها هو « سيرل جراهام » في سنة ١٨٥٧ وقد لفت الانظار اليها في عدة مناسبات وخاصة في مجلة الجمعية الجغرافية في لندن (١٨٥٨ و ١٨٦٠) • وفي سنة ١٨٥٨ كان يوهان جتفريد فزشتين قنصل بروسيا في دمشق قد بدأ ينقب في حوران وفي المناطق المجاورة لها ووضع كتابا ظهر في برلين عام ١٨٦٠ نشر فيه عددا من النصوص الصفوية التي جمعها فانه قد اعتقد بأن الكتابة كتابة قوم جاءوا من جنوبي جزيرة العرب • ثم زار عدد من الباحثين حرة الصفا وجمعوا الكثير من النصوص(١٧٧) •

٢ ــ اقليم الصفا :

يقع اقليم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق عند مدخل بادية الشام حيث يوجد ثلاث مجموعات بركانية ذات طوابع مختلفة ، هي « تلول الصفا » و « ديرة التلول » و « جبل حوران » وأهم هذه المجموعات « جبل حوران » في جنوبي دمشق

فالصخور البركانية بجبل حوران التي يبلغ ارتفاع قمتها ١٨٠٠ متر قد تفتتت بحيث أصبحت أرضا زراعية خصبة تمتد على طول السفح الغربي للجبل الذي ينتهي عند سهل وادي النقرة حيث يزرع قمح حوران الشهير بجودة نوعه •

وتقع « ديرة التلول » شرقي دمشق وهي محرومة من الماء غير انها في موسم الامطار تغطيها الاعشاب والازهار •

أما اقليم الصفا فيشتمل على مقذوفات من الصخور البركانية السوداء قد اختلط بعضها ببعض حول الفوهات البركانية المفتوحة يمتد حوله واد تغطيه الاحجار البركانية وينبع هذا الوادي من جبل حوران ويجري جنوبا حتى يختفي في مستنقعات ماؤها ملح اجاج على مقربة من قلعة الازرق ، ولكنه في الربيع يصبح حقلا زراعياء ويعرف هذا الوادي اليوم باسم « وادي برحيل » وقد وصفه ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢ : ٢٤٨) فسماه « وادي رجيل » وقال انه يقع بين السبي ومشارف حوران • وحرة وادي راجل[١٧٨] هي الموطن الحقيقي للصفويين عثر فيها على نصوص صفوية كثيرة منقوشة على صخور البازلت البركانية •

وفي اقليم الصفا واديان متوازيان يتبعان من السفح الشرقي لجبل حوران هما وادي الغرز من الشمال ووادي الشام من الجنوب يتجهان نحو الشرق ويصبان في منخفض يكون واحة الرحبة على الحافة الشرقية للاقليم طولها عشرون كيلومترا تقريبا وعرضها يتراوح بين خمسة وستة كيلومترا ، وفي الشتاء تصير هذه الواحة

بحيرة كثيرة المستنقعات • وكانت الرحبة من المواضع التي ورد اسمها في الكتابات الصفوية فسميت بـ (رحبت) •

٤ ـ الآثار في اقليم الصفا :

وفي حرة الصفا آثار كثيرة ترجع الى العهد الروماني تتألف من مراكز حصينة على جانب من الاهمية ، وهي من الشمال الى الجنوب ، نقطة جبل سيس في الشمال ، ثم قصر الابيض في الرحبة والنمارة في وادي الشلم، ثم دير الكهف وقلعة الازرق في الجنوب•

والاطلال التي عند جبل سيس على هيئة حصن منيع مربع الشكل يمتد ضلعه الجانبي حوالي ثلاثين مترا وبه ابراج مستديرة ، والجدار مبني بسمك مترين تقريبا ، ويحميه خندق صغير من الخارج •

أما قصر الابيض فقد انشيء في الحربة وهو مبني بدوره على شكل مربع وبه أبراج ذات زوايا وفي وسطه استحكامات ؛ وجدار السور مكون من واجهتين مرصوصتين مملوء الفراغ بينهما بالاحجار والملاط • وهناك برج عال يتصل بجدار السور • وفي القصر الابيض أنواع من البناء قد تأثرت بالفن الساساني الذي كان يمارسه العرب في الحيرة •

وأما اطلال النمارة فتقوم على تل وسط وادي الشام عثر فيه على نقوش آثارية اغريقيةبجوار النقوش الصفوية ، وكلاهما يحمل أسماء أعلام صفوية • وقد ورد اسم النمارة في الكتابات الصفوية فسميت بـ (النمرت) • وعلى مقربة من النمارة ، توجد اطلال

قبر امرىء القيس « ملك العرب » المتوفى في السابع من كانون الاول سنة ٣٢٨ ميلادية كما يـدل عليـه النص الذي عثر على القبر[١٧٩] أما كون وجود قبر امرىء القيس ، وهو ملك الحيرة التابع للنفوذ الساساني ، في النمارة في اقليم روماني . فتعليل ذلك ان امرىء القيس كان على ما يظهر على اتصال بالروم وقيل انه زار بالذات القيصر « ليو » فأكرم وفادته وبالغ في اكرامه واحترامه ومنحـه هدايا سـخية كما منحـه لقب « نبيل » Patrician ودرجة « فيلارخ » (Phylarch) على الجزيرة وعلى جميع ما استولى عليه وعلى أرضين اخرى لم يكن قد أخذها من قبل . هذا ما يدل على ان سلطان امرىء القيس كان يمتد على جميـع عرب الحيرة كما امتد على القبائل المقيمة على تخوم الشـام . فكان أقوى القبائل في بادية الشام وفي شمالي جزيرة العرب . والظاهر ان مراجعة سادات القبائل العربية للبيزنطينين ليستمدوا العـون منهم وللحصول منهم على اعتراف رسمي برياستهم على الاعراب النازلين في ديار خاضعة لسلطانهم أو خارج نفوذهم كان من الامور المألوفة ، اذ كان هذا الاعتراف يكسبهم قوة وان كان الروم بعيدين كل البعد عنهم ولا يستطيعون ان يقدموا لهم أي عون مادي .

ويقع بناء دير الكهف في الجنوب الشرقي من جبل حوران وهو يشبه تماما تصميم بناء جبل سيس والقصر الابيض على شكل مبان داخلية بامتداد جدران السور وابراج بارزة ذات زوايا في الوسط والجوانب ، وقد نقش على اسكفة باب الدخول اسماء الاباطرة فوتستانز ، وكلورو جليريوس وأسماء القيصرين سفيروس

ومكسمينيوس في تاريخ تذكاري يرجع الى مارس ــ اغسطس عام ٣٠٦ ميلادية •

وكانت قلعة الازرق الواقعة الى الجنوب من جبل حوران تشبه هذا التصميم ايضا قبل ان يعدلها المسلمون من العرب • لقد كان فيها هيكل مهدى الى الامبراطور دقلبانوس ، وهذا يدل على ان القلعة قد وجدت في أواخر القرن الثالث للميلاد[١٨٠] •

وفي جنوب خط الحصون الذي يمتد من جبل سيس الى قلعة الازرق كان خط آخر من المراكز المحصنة يميل الى جهة الغرب قليلا • فمنذ عام ١٠٦ للميلاد اسس الرومانيون الى جهة الغرب مقاطعة رومانية في حوران مركزها بصرى[١٨١] ، التي كانت قديما سوقا تجارية نبطية • وقد شيدوا خط مواصلات من بصرى يتجه نحو الجنوب مارا بعمان حتى يصل الى خليج اتلات (العقبة)• فكان هناك طريق يبدأ ببصرى ويتجه الى اذرعات[١٨٢] وطريق ثان يصل الى دمشق ، ثم طريق ثالث يصل الى صلخد ومنها الى اعناك وقلعة الازرق حيث اقيم آخر حصن عند مدخل الصحراء فكانت القوافل القاصدة جزيرة العرب والذاهبة الى جنوبي الجزيرة تمر ببصرى[١٨٣] •

ومن أهم حصون وأبنية المقاطعة الرومانية عمارة المشتى المشهورة التي نقلت أحجار جدرانها المزخرفة الى متحف (قيصر فريد رش ويلهم) ببرلين سنة ١٩٠٤ • وقد اختلف العلماء في تعيين أصل هذا البناء فقد نسبه بعضهم الى امرىء القيس ملك الحيرة

مستدلين على ذلك بطرز البناء الذي يشبه الطراز (الحيري) على رأيهم وذهبوا الى انه اقامه في هذا المكان بعد فراره من أرض الحيرة ومن الساسانيين سنة ٢٩٣م ليكون مقرا له وحصنا يدافع به عن ملكه الجديد(١٨٤) • هذا في حين يرى آخرون نسبته الى الغساسنة لانه يضاهي الحصون الرومانية المقامة في الشام • والظاهر ان الغرض الاخير هو الذي يلقى اليوم تأييدا من أكثر الباحثين المتخصصين في فن العمارة العربية مع انه قد تأثر بالفن الساساني في شأنه في ذلك شأن القصر الابيض الذي مر ذكره(١٨٥) •

وقد عثر على نقوش كثيرة للصفويين فيها صور مرسومة لمختلف المناظر التي تتصل بحياتهم اليومية • وتدلنا هذه الرسوم على طريقة تسليحهم ، فالمحارب الفارسي يحمل رمحا طويلا وهو سلاح البدو التقليدي القديم الذي كانوا يحاربون به خصومهم في المعارك القبلية البدائية • أما المحارب الماشي على قدميه فيحمل القوس وبيده الفرس كما يظهر في بعض الصور • وأهم هذه النقوش تشير الى أعمال الصفويين الخاصة بتربية المواشي وهي الجمل والابل والدولول والخيل والضأن والشاة والمعز والحمار والبقر وقد اكتشف حديثا الاسد والذئب من الحيوانات المفترسة•

٤ ــ ديانة الصفويين :

وكان الصفويون شأنهم شأن عرب الجزيرة يعبدون الاله اللات ، فالنصوص الصفوية اولتها أهمية عظمى وسط المجموعة

الدينية العربية • اذ ورد ذكرها أكثر من ستين مرة في النصوص التي عثر عليها في حرة الصفا • وقد دخلت عبارة اللات حوران بواسطة النبطيين والصفويين ، ولم تلبث طويلا حتى اكتسبت الطابع اليوناني ، وقد أخذت عن العبارات الدينية اليونانية أسم « أثينا » . وقد ادخلت عبارة اللات كذلك في تدمر • وقد اختصت اللات بالوادي الخصيب الذي تقع فيه مدينة الطائف ، ففي حمى اللات كان محرما على الناس قطع بعض الاشجار وصيد الحيوان هناك(١٨٦) •

وتقدم النصوص الصفوية لاول مرة الدليل القاطع على ان « الله » كان الها عبده عرب الشمال قبل أن يصبح الاله الواحد عند المسلمين(١٨٧) •

ومن الآلهة التي كان يعبدها الصفويون الاله « هجيل » أو اله الجبل • ويستدل من هذه التسمية على ان عبدته كانوا من سكان الجبل وهو كناية عن الشمس وكان يعبد في حمص(١٨٨) ، ومن آلهة الصفويين أيضا : (ديان) و (هلة) و (جدعوز) و (بعل سمن) و (شيع القوم) و (اثع) و (صالح) و (ذو الشرى) و (رضي) و (جد ضيف) و (رحيم)(١٨٩) •

٢٣ ـ حضارة اليمن :

لقد شرحنا فيما تقدم كيف تمكن أهل اليمن في جنوبي جزيرة العرب ان يواصلوا مسيرة حضارتهم القديمة باستمرارهم في ممارسة الزراعة التي تعتمد على الري حتى أسسوا ممالك عربية ذات حضارة راقية ، كما شرحنا كيف عوضوا عن أنهرهم المندرسة اثر الجفاف الذي حل بالبلاد فلجئوا الى بناء السدود وخزن مياه السيول والتحكم فيها وترويضها بالصورة التي تلائمهم لارواء الارضين المرتفعة كما يفعل في الوقت الحاضر في بناء السدود والخزانات ، ولدينا من أخبار هذه السدود الكثير مما يرويه المؤرخون العرب عما فعله العرب القدماء من مشروعات هندسية رائعة للتغلب عما واجهوه من صعاب في هذا المضمار كان أشهرها في التاريخ سد العرم أو سد مأرب وغيره من مئات السدود التي تكاثرت بتكاثر الاودية ، فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسد . وكان كل سد يسمى باسم الوادي الذي يقع عليه أو اسم صانع السد .

وقد عنى الاخباريون العرب بصورة خاصة بموضوع الاسداد في العربية الجنوبية ، فتناول الهمداني بحث موضوع السدود في اليمن وهي الاسداد الحميرية أولها سد مأرب وسد الخانق بصعدة بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن في القرن السادس للميلاد ، وسد ريعان لابن ذي مأذق ، وسد سياق وأسداد بلاد عنس منها سد خيرة وسد بيت كلاب في ظاهر همدان وآخر في ظاهر دعان(١٩٠) وسد شيام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ

منها[١٩١] وأسداد يحصب وهي على ما يقال ثمانون سدا ، والى ذلك أشار أحد الشعراء بقوله :

« وفي البقعة الخضراء من أرض يحصب

ثمانون سدا تقذف الماء سائلا »

ويجمع العلماء بأن أساليب استخدام السدود في جزيرة العرب كانت غاية في الفعالية والاصالة[١٩٢] .

ومن المعلوم ان الامطار الموسمية في اليمن تهطل عادة في فصل الصيف وعندما تهطل هذه الامطار تفيض أودية جبال اليمن الكثيرة العدد بمياه السيول المتدفقة فتسقى في طريقها الاراضي الزراعية الواقعة على جانبي الاودية . ولما كانت هذه الاودية تفيض في وقت معين فقد دفعت الحاجة أهل اليمن ، وقد سبقت لهم خبرة في انشاء أعمال الري اكتسبوها في العصر الجليدي الاخير عندما كانت أوديتهم انهارا جارية ، الى استغلال هذه الكميات الهائلة من المياه بخزنها داخل سدود والاستفادة منها في زراعة أراضيهم واروائها حسب مقتضى الحاجة وبالمقادير المطلوبة. ومن هنا ظهرت فكرة انشاء السدود التي اشتهر من بينها سد مأرب وسيأتي البحث عنه فيما يلي .

وكانت هذه السدود تساعد على رفع مستوى الماء في الوادي بحيث يمكن ارواء الاراضي المرتفعة عن قاع الاودية وذلك عن طريق المنافذ المختلفة الارتفاع حسب التصميم في هيكل السد . ولم يكن من الصعب على أهل اليمن تنظيم شبكة الأرواء على

المزارع اذ سبقت لهم خبرة فنيـة في تنظيم الري على الانهـر والجداول التي كانت تجري في العصر الجليدي الاخير كما تقدمت الاشارة اليه فكانت البوابات في السدود تحمل المياه من داخـل السد الى قنوات رئيسـة لتوزعها على المزارع عن طريق قنوات فرعيـة .

وقد اشتهرت اليمن في ابتداع ما يسمى بنظام المدرجـات أو المدارج أو السلالم حيث كانت طوبوغرافيتها الملائمة بما احتوت عليه من جبال ومرتفعات ومنخفضات حارة رطبة تساعد على تطبيق هذا النظام . وهذا النظام هو عبارة عن انشاء مدرجات على سفوح الجبال والمرتفعات واصلاح تربتها ، وذلك لحصر مياه الامطار عند نزولها ضمانا لدخولها التربة وارووائها حيث الاشجار والنباتات . وكانت هذه المدرجات تعتمد على مياه الامطار والسيول في بعض الاحيان وعلى مياه الينابيع الجارية وفي أحيان اخرى وبخاصة في المناطق الخصبة وسط اليمن . وفي هذه المدرجات مزايا كبيرة هي أولا توسيع رقعة الارض المزروعة ، ثم الاستفادة من اختـلاف ارتفاع هذه المدرجات بين مكان وآخر حسب مقتضى الظروف بالنسبة لنوع النبات والمناخ الذي ينمو فيه النبات ، وذلك على عكس زراعة السهول حيث تتحكم التربة الواحدة والارتفـاع الواحد بمحصول واحد في معظم الحالات ، فمثلا اشجار البن تزرع عادة على هذه المدرجات ذات المناخ المعتدل وحيث لا تتعرض لاشعة الشمس المحرقة في رابعة النهار . وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي :

« وقد حبت الطبيعة اليمن بتربـة جعلتها تحتضن مختلف النباتات . وتنبت أكثر أنواع المزروعات . وذلك بانعامها عليهـا بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة ، هيأت لها ثلاثة أجواء ، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ : منتوج المناخ المرتفـع البارد ، ومنتوج المناطق المعتدلة ، ومنتوج المناطق الحارة .

« وقد عرف أهل اليمن الاذكياء كيف يستغلون تربتهم ، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات . أصلحوا تربتها، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله ، ضمانا لدخوله التربة وارووائها، وزرعوا تلك المدارج او السلالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الاسلام بأمد طويل . فأمنوا بذلك خيرا وافرا لهم ، جعـل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب ، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة ، وهي موطن الحضارة وارقى مكان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الاسلام »[١٩٣] .

وبالاضافة الى نظام السدود ونظام المدرجات . فقد طـور اليمانيون القدماء نظام الري من الآبار بطريقة فريدة أيضا ، فقـد وجد علماء القنوات المائية كثيرا من الاثار لنظام الابار القديم في منطقة (بيجان) حيث وجدت بقايا الانابيب الخزفية التي كانت تستعمل في نقل المياه عبر جدران الخنادق الرئيسة (الاعبـار) وكثير منها لايزال في حالة جيدة . وبعض هذه الابار القديمـة لايزال قائما الى الوقت الحاضر بعد اعادة استخدام مياهها . وقد اشتهر بهذا النظام (نظام الآبار) الفريـد القتبانيون فأبدعوا في تطوير قنوات الري وتوزيع المياه المستخرجة من الابار .

ثم كان هناك نظام رابع لتجميع وخزن المياه في الخزانات والصهاريج وأشهرها صهاريج عدن ، ففي ذلك يقول نبيه العظم في كتابه « رحلة في بلاد العربية السعيدة (ج ١ ، ص ١٧) : « ويوجد الى الجنوب الغربي من مدينة عدن سلسلة من الجبال العالية بنى الاقدمون بين شعابها السدود والصهاريج العظيمة يسع الواحد منها الألوف المؤلفة من الغالونات ويأخذ بعضها برقاب بعض فحينما يمتليء الاعلى تفيض مياهه الى الاسفل وهكذا دواليك الى ان تمتلىء بأجمعها ويجري الماء الى هذه الصهاريج من الامطار التي تمطر في الجبال فيبقى مخزونا فيها الى أيام القيض فيستعمله الناس لقضاء حوائجهم » . ويقول الدكتور احمد زكي في مقال نشره في مجلة العربي الكويتية (العدد ٦٨ تموز ١٩٦٤ ، ص ٥٧) ما نصه : « وتعد صهاريج عدن القديمة من أروع آثار العرب في الهندسة وهي مبنية في وادي الطويلة (طوله ٧٥٠ مترا) قرب مدينة عدن وكانت السيول تندفع خلاله فتصيب المدينة بالاضرار ، ولكن عندما بنيت هذه الصهاريج أصبحت مياه الامطار تسقط عليها فتمتليء بها الصهاريج الاثنا عشر ، التي تتسع لعشرة ملايين جالون من الماء ، ولكنها نادرا ما تمتليء بالماء ، فالامطار في عدن شحيحة للغاية . أما بناة هذه الصهاريج فمن المؤسف انه لا يوجد أثر يشير اليهم ولو من بعيد ، البعض يقول انهم بنو حمير في القرن الاول الميلادي ، والبعض يصل بها الى ١٥٠٠ عام قبل المسيح . وكانت هذه الصهاريج منسية مهملة مغطاة بالركام والاوساخ ، وبطريق الصدفة اكتشفها الكابتن بليفير البحار

الانكليزي (Playfair) عام ١٨٥٤ فازيلت القاذورات وهدمت بعض الصهاريج القديمة ، ورممت الجدران ، حتى اصبحت تستوعب اليوم ٢٠ مليون جالون ... ولكنها لم تعد تستعمل كخزان بل أصبحت أثرا يزوره أبناء البلد والسياح » .

ومما اشتهرت به اليمن أيضا انتاجها للبخور واللبان والصموغ والمر والمنتوجات الزراعية الاخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، فكان لهذه المنتوجات الزراعية أهمية كبرى تتنافس الدول عليها حتى شبهت ببترول العالم في ذلك الزمان ، لذلك كانت التجارة بهذه المواد مصدر رخاء اليمن .

« وكان لمادتي المر والبخور أهمية خاصة في العالم القديم توازي أهمية الذهب والبترول في عصرنا الحديث اذ كان لكلتا السلعتين استخدامات كثيرة . فمثلا كان البخور يستخدم اساسا عند تقديم النذور للالهة في المعابد . وكانوا أيضا يستخدمونه أثناء حرق جثث الموتى من أجل القضاء على الروائح الكريهة المنبعثة منها من جهة ومن جهة أخرى من أجل استرضاء الالهة . ولاشك في ان الحاجة الى البخور كانت بالغة الاهمية قبل ظهور المسيحية وعندما كانت العادة هي ان تحرق الجثث بدل ان تدفن دفنا عاديا . كذلك كانت حاجة شديدة الى البخور من أجل استخدامه في تحضير الروائح العطرية وايضا لبعض خاصيته الشفائية . فقد كانوا يستعملونه لوقف النزيف وضد التسمم . وهو مع مادة المر كانا يستخدمان أيضا كعقاقير طبية لتخفيف الشلل ووجع الرأس وداء الاستسقاء .

« والمر بالذات كانت له اســتخداماته المتنوعة • فقد كان يستخدم من أجل رائحته الطيبة في اعداد الدهون وأدوات التجميل والعقاقير الطبية وكدهان للالتهاب والجروح • وفي مصر كانوا يستخدمونه في المومياء •

« ان مادتي المر والبخور لم تكونا تزرعان الا في اليمن أو في بلاد الصومال وذلك بسبب توفر الشروط الملائمة لزراعتهما من حيث التربة والارتفاع والحرارة • وكانت كلما زادت الحاجة الى تينك السلعتين ارتفعت بالمقابل أسعارهما لان زيادة الطلب عليهما لا تقابلها زيادة المنتوج منهما • والمنطقة اليمنية التي كانت توجد فيها هاتان المادتان هي منطقة ظفار »(١٩٤) •

وقد احتكر اليمانيون التجارة في نقل البضائع برا وبحرا ، فكانت هناك شبكة للمواصلات التي كانت تستخدم لنقل البضائع ، اذ كانت القوافل تنطلق في الاساس من الموانيء الثلاثة الرئيســة وهي (فانا) و (عدن) و (موزع) • وبالنســبة لســلعتي المر والبخور فقد كانتا في البداية تحملان من ظفار على الجمال والسفن الصغيرة الى الخليج العربي ومنه الى العراق وبقية بلدان الشرق القديم ، ولكن بعد حدوث الفوضى والقلاقل في العراق تغيرت طريق التجارة لهذه البضائع فصارت قوافل المر والبخور تمر في عواصم المملكة اليمنية القديمة الى ان تصل الى شمال الجزيرة العربيــة •

وكانت عدن الميناء الرئيسي الذي تجلب اليه بضائع الهنــد

وشرق أفريقيا ومنها تحملها القوافل الى (تمنع) ثم تستمر من هناك في اتجاه الشمال نحو حوض البحر الابيض المتوسط ، الا ان عدن فقدت مركزها في أوائل القرون الميلادية الاولى بعد أن قام أحد ملوك سبأ بتخريبها ، وفي عهد الحميريين أصبحت (موزع) هي الميناء الرئيس لليمن وملتقى البضائع الشرقية والافريقية ومن (موزع) كانت الطريق التي تتجه نحو الشمال الشرقي تخترق مدينة ظفار ، العاصمة الجديدة للدولة الحميرية . ومن هناك تتجه أيضا نحو شمال الجزيرة العربية(١٩٥) .

ويقول الاستاذ سلطان ناجي في مجمل الوضع في هذه المرحلة الثالثة من حضارة العرب ما نصه : « وعلى الرغم من عدم وجود الانهار الجارية ومن صعوبة الارض اليمنية نفسها فقد استطاع الانسان اليمني بعبقريته الفذة ان يوسع من رقعة الارض المزروعة ويطور انظمة الري بأساليب لاتزال تذهل العالم الى يومنا هذا . وقد تأتى له ذلك عن طريق بناء السدود وقنوات الري والمدرجات الزراعية . وبذلك دلل عن ابداع وحيوية واستجابة خلاقة لتحديات الطبيعة . وفي مجال التجارة استغل الشعب اليمني القديم موقع البلاد استغلالا أمثل وجعل منها مكانا (للترنزيت) التجاري بين الشرق والغرب ، فأصبحت التجارة المحلية أو الخدمات التجارية التي كان يقدمها هي المقوم الثالث بجانب السدود والمدرجات ، في بناء الحضارة اليمنية القديمة » . وينتهي في تعليقه على اسس الحضارة اليمنية القديمة قائلا : « ونحن اذا طبقنا هذه المقاييس الاساسية في قيام الحضارات على الحضارة اليمنية القديمة سنجد

ان الشعب اليمني قد بز بالفعل أقرانه من شعوب الشرق القديم في مسألة تطويع الطبيعة لصالح الانسان وعلى حسن استخدام موقع بلاده لمصلحة تنمية اقتصاده وتجارته وبذلك استطاع ان يقيم حضارة يمنية زاهرة امتدت حوالي ألف وخمسمائة سنة قبل الاسلام »(١٩٦) .

سد مارب وسد العرم :

يعد سد مأرب أو سد العرم كما سماه العرب أعظم أسداد بلاد العرب وأشهرها ، فهو أكبر عمل هندسي شهدته الجزيرة العربية حتى اعتبره البعض من معجزات وعجائب العالم القديم لا تزال آثاره قائمة حتى هذا اليوم . والحق انه لو قورن تصميم سد مأرب بمخارجه المائية (مخارج الري ومخارج الفائض من المياه) بتصاميم السدود الحديثة (المتعددة الاغراض) لجاز لنا القول بأن أهل جزيرة العرب كانوا أول من وضع اسس صناعة السدود (انظر « قصة السدود » تأليف پيتر فارب ترجمة المهندس محمد توفيق محمود ، القاهرة ١٩٦٤) . بني سد مأرب في مدينة مأرب عاصمة السبئيين على مسافة ١٤٥ كيلومترا تقريبا الى الشرق الشمالي من صنعاء(١٩٧) . وتدلنا الوثائق التاريخية على ان السد بقي قائما حوالي ١٣٠٠ سنة ، وطيلة هذه المدة تعرض أكثر من مرة الى التصدع ، وعلى الرغم مما ادخل عليه من اصلاحات وترميمات من قبل ملوك اليمن المتعاقبين لم يقو على الصمود امام النوائب الطبيعية وغير الطبيعية فانفجر فجأة على قول بعض المؤرخين العرب، فكان سقوط السد نكبة كبيرة من النكبات التي أصابت العربية

الجنوبية حتى صار يضرب المثل بسقوطه ، فقيل (تفرقوا أيدي سبأ) ، ذلك لأن سقوطه أدى الى تفرق السبئيين والى هجرتهم من بلادهم فتفرقت قبائل الازد وغيرها في جزيرة العرب بسبب ذلك .

ان أقدم ما دون من خبر هذا السد هو ما ورد في القرآن الكريم على سبيل العبرة باشعار العرب بما أصاب مأرب بانفجار السد ، والى ذلك أشار القرآن الكريم في سبأ بقوله :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

واوثق روايات العرب عن سد مأرب ما قاله الهمداني في الجزء الثامن من الاكليل وقد شاهد خرائبه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة وكان يحسن قراءة خط المسند اليمني القديم فوصف تلك الخرائب مع تطبيقها على قول القرآن الكريم « وهذان القولان أصدق ما جاء عن خبر هذا السد وأكثر مطابقة لما وجده النقابون الذين اكتشفوا آثار ذلك الخزان في القرن الماضي »[١٩٨] . قال

الهمداني : « قال الله تعالى (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وهي (أي سبأ) كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان والغامر العافي وانما عفتا لما اندحق السد فارتفع عن أيدي السيول ووجدت في احداهما عريق اراك وفي أصله جذع نخلة أسود قد كست باقيه السوافي فقال بعض من كان معي لا أظنه الا من بقايا نخل الجنتين ، وما أحسب أنه بقي من العصر القديم • وأما مقاسم الماء من مداخل السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا وهو الذي يخرج منه الماء قائما تخاله على أوثق ما كان ولا يتغير الى أن يشاء الله عز وجل وانما وقع الكسر في العرم ، وقد بقي من العرم شيء مما يحاذي الجنة اليسرى ويكون عرض أسفله خمسة عشر ذراعا قال تبارك وتعالى (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) • قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء والسدر المعروف وهو العلب وبها من الاراك ما ليس ببلد • ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة • وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن (من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان) والوادي اسمه (اذنة) ، وفي هذا السد يقول الاعشى :

كفى ذلك للمؤتسي اسوة ومأرب قضى عليها العرم
رخام بناه له حمير اذا جاء ماؤهم لم يرم

فأروى الحروث وأعنابهم على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة فحارمهم حارف منهزم

« وكان العرم مسندا الى حائط ما بين عضاد بالمذخر بسعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الاساس بالقطر » ، انتهى كلام الهمداني .

وتدل الكتابات التي عثر عليها منقوشة على صخور السد على ان بناء السد يرجع الى عهد المكرب (سمه علي ينف) بن المكرب (ذمر على) ، ثم ادخل (بثع امر بين) ابن (سمه على ينف) تحسينات كثيرة على السد وانشأ له فروعا جديدة وزاد بعمله هذا في التحكم والسيطرة على مياه السيول ، وبذلك يكون هذان المكربان هما المؤسسان الاصليان لسد مأرب الذي نما على مرور الايام وتوسع حتى كمل في زمن (شهر يرعش)في نهاية القرن الثالث للميلاد . ويستدل من روايات الاخباريين على ان السد بقي قائما الى قبيل ظهور الاسلام (حوالي سنة ٥٧٥ ب٠م٠) . ولما كان منشأ السد يرجع الى عهد المكربين (سمه علي ينف) وابنه (يثع امربين) وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد فيكون السد قد بقي قائما مايزيد على ١٣٠٠ عام[١٩٩] . فقد عثر المنقبون فيأنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه أهمها نقشان أحدهما وجد على الصدف الايسن الملاصق للجنة اليمنى تفسيره « ان (يثع امر بين) بن (سمه علي ينف) مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرفا رحبا لتسهيل

الري » ، والآخر وجد على الصدف الأيسر الملاصق للجنة اليسرى تفسيره « أن (سمه علي ينف) بن (ذمر علي) مكرب سبأ اخترق بلق وبنى مصرفا رحبا لتسهيل الري »[٢٠٠] • وقد وردت اسماء عدة مكارب على نقوش الصخر في السد مما يدل على ان السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد •

ويؤخذ من مجمل أقوال العرب ان السد تهدم حوالي تاريخ الميلاد ، أي نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبأ وريدان) وانتقال عاصمة السبأيين الى ظفار ، فالظاهر ان السد تصدع حينئذ للمرة الأولى فرمموه فتحولت عنايتهم الى تعمير ظفار وقل تمسكهم بالبقاء في مأرب وأخذوا ينزحون بطونا وأفخاذا الى تعمير ظفار فأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه الى قبيل الاسلام فتهدم واهملوه[٢٠١] •

ويبدو ان أكبر الاصلاحات وقعت في عهد الملك (شرحبيل بن يعفر) الذي حدد المنافذ في عامي ٤٤٩ و ٤٥٠ ب•م• وأخيرا ورد في آخر الاخبار ان الملك الحبشي (أبرهة) أصلح الكسر الأخير فيه مرتين وكان ذلك بعد دخول اليمن في حوزة الاحباش في احتلالهم الثاني لليمن (٥٢٥ ــ ٥٧١م) • فقد وفق غلازر في أثناء زيارته لانقاض السد سنة ١٨٩٧ الى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد احدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ والآخر سنة ٥٦٥م احدهما كتبه أبرهة ، وهذه نبذة مما جاء فيه :

« بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان ابرهة

عزيز الاحباش الاكسوميين ملك اراخميس زبيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في نجد وتهامة قد نقش هذا الاثر تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشه عامله الذي كان ولاه كندة وديء وعينه قائدا ومعه اقيـال سبأ الصحاريين .. وبعث (الملك) الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجـر الخـام والاخشاب ورصاص الصب .. لترميم السد في مأرب .. فتوجه أولا الى مأرب صلّى في كنيستها ثم عمد الى الترميم فنبشـوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه .. ورجع الملك الى مأرب بعد ان عقد تحالفا مع الاقيال الآتي ذكرهم ... الخ . وجاء اليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة وآخرون جاؤا يعون الرحمن يخطبون مودته .. وبعثوا اليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ما انفق فيه من الحجارة والاطعمة للعملة والحيوانات للعمل) واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوما و ١١ شهرا وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ (وهذه السنة في حساب الحميريين تساوي سنة ٥٤٣ للميلاد)[٢٠٢] .

وكان الوادي الذي بني عليه السد يعرف باسم « وادي ذنة وهو يتكون من عدة روافد من سيول اليمن الغربية التي تأتي من بلاد ذمار ويريم وجهران والحدى وخولان وبـلاد مراد وقيفـة وغيرها ويقال لها سيل ذنة ، وهذه تجتمع مع سيول اخرى تأتي

من الشمال والجنوب فتؤلف الوادي الرئيس على شكل بحيرة كبيرة مستطيلة تصب فيها السيول من جهة الغرب والشمال والجنوب وهذه كلها تنحدر صوب الشرق وتدخل جميعها في فرجة كبيرة شبه دائرية هي (خزان العرم في جبل يقال له بلق . وهو جبل بركاني كبير يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ متر ، فتقسمه الفرجة الى جبلين ، الشمالي ويقال له جبل بلق قطوطة أو بلق الايسر . والجنوبي ويطلق عليه بلق الواسط أو بلق الايمن ، ويدعى مدخل الفرجة الضيق بين الجبلين بـ (باب الضيقة) . وتبلغ سعة هذه الفرجة في أولها نحو مائتي متر وهذا هو مدخل الماء الى الخزان . ويزداد اتساع هذه الفرجة بين البلقين كلما سار المرء الى جهة الشرق الى ان يبلغ عرضها في منتصفها نحو خمسمائة متر ، ثم تعود فتأخذ في الضيق الى ان تبلغ نحو ١٧٥ مترا في مخرج الخزان ، وهنا يعرف هذا المخرج الضيق باسم (مربط الدم) ، وفيما وراء هذا المخرج انشيء السد الرئيس . ويبلغ طول هذا الخزان من المدخل الضيق (باب الضيقة) الى مخرج الماء عند (مربط الدم) حوالي أربعة كيلومترات . (انظر خارطة وادي ذنة وخزان العرم المرتسمين) .

وأما السد نفسه فهو عبارة عن حائط ضخم مبني على عرض الوادي على زاوية منفرجة يمتد من الجنوب الى الشمال مسافة ٦٥٠ مترا . وفي السد ثلاثة مخارج للمياه ، مخرجان لارواء الاراضي الزراعية ، المخرج الشمالي لارواء الجنة اليسرى أو

الجنة الشمالية والمخرج الجنوبي أو الايمن لارواء الجنة اليمنى أو الجنة الجنوبية . أما المخرج الثالث فهو صمام امان ومخرج الفائض من المياه اذا عصفت الانواء العاتية بالمنطقة تخفيفا للضغط عن السد .

ويتكون المخرج الشمالي الواقع في نهاية السد من الشمال من فتحتين (عبارتين) قائمتين الواحدة الى جانب الاخرى يفصل بينهما جدار صغير (أي بغلة) سمكها أربعة امتار وربع متر ، وعرض الفتحة (العبارة) الاولى ثلاثة امتار وعرض الفتحة الثانية ثلاثة امتار ونصف متر . والسد بالجهة الشمالية ظاهر للعيان أكثر منه في الجهة الجنوبية وبعض بقاياه لا تزال قائمة الى هذا اليوم كأنها مبنية من عهد قريب ، وهي كناية عن قطعتين من السد الاصلي وجدارين عظيمين متقاطعين في منتهاه بالجهة الشمالية . ويبلغ عرض القطعة الاولى ٣٥ مترا وعرض الثانية ٢٠ مترا وهما مبنيتان على زاوية منفرجة من الحجارة البركانية السوداء والبيضاء الصغيرة ، والبناء يشبه في تركيبه الخرسانة الحديثة المصبوبة صبا فنيا بحيث يظهر البناء وكأنه كتلة واحدة ، ولابد ان يكون قد استعمل نوع من الاسمنت الذي كان معروفا عندهم في صب الكتل . ويجري الماء من الفتحتين (العبارتين) في سائله الى مسافة ١١٦٥ مترا من السد شرقا حيث تقسم تقسيما فنيا جميلا في مقاسيم خاصة تسيل سبعة منها الى الشرق والشرق الجنوبي ، وسبعة تسيل الى الشمال وعدد مجهول يسيل الى الجنوب ، وينتهي

هذا التقسيم الى ٢١ نهرا • أما بناء هذه المقاسم والمجاري فعلى شكلين : المجاري الكبيرة مبنية من الحجارة البركانية المنحوتة والصغيرة مبنية من الاحجار البركانية السوداء ومحشو بينها شيء من اللبن الاسود الكبير المصنوع بقوالب خاصة من الرمل والحصى البركانية الناعمة ونوع من أنواع الاسمنت وهذا اللبن قوي جدا •

ويتكون المخرج الجنوبي في بداية السد من الجنوب من فتحة (عبارة) واحدة اتساعها ٤٥٥ سنتمترا (أربعة أمتار ونصف متر) وجدارا هذا المخرج مبنيان بالتوازي الى جانب جبل بلق الايمن • أما الجدار الايمن فهو كناية عن صخرة عظيمة في جانب الجبل وعليها بعض النقوش (أي الكتابة الحميرية) ، وأما الجدار الثاني فهو جدار عظيم مبني من الحجر المنحوت ويبلغ سمكه في جانب العبارة ١٣ مترا وربع متر يقوم خلفه جدار ثان هو (بغلة) العبارة وطولها نحو ٨٠ مترا ، وهذا الجدار أو (البغلة) كان ولا يزال قائما في أول السد من الجهة الجنوبية على زاوية قائمة للارض وللسد • وبناء هذا الجدار (بغلة العبارة بناء متقن الى حد بعيد ولا يمكن للمرء ان يدخل بين الحجر والحجر ابرة ويظهر انهم كانوا يستعملون في البناء مادة شبيهة بالاسمنت بين الاحجار • ويرى في أرض العباره أو الفتحة ثقوب كبيرة يظهر انها مكان عمدان حديدية كانت تستعمل كباب متحرك يفتح ويغلق بحسب الحاجة •

وتوجد في جميع مقاسم المياه نقوش حميرية كثيرة ، ويوجد

أمام عبارتي السد في الجهة الشمالية الى جانب بلق الايسر عمودان كبيران مبسطان عليهما نقوش كثيرة هي بدون شك تاريخ هـذا السد العظيم وكيفية تقسيم مياهه ولكن واحدا منهما قد كسر الى قطعتين واما الثاني فلا يزال سليما .

أما المخرج الثالث فيتكون من خمسة أبواب متحركة لتصريف المياه الزائدة فتسيل المياه المتراكمة الى الجهة الشمالية ويخف الضغط عن السد وعن العبارتين في آخر السد من الشمال وعن العبارة في بداية السد في الجنوب(٢٠٣) .

٢٤ ـ سقوط حضارة اليمن

ويشرح الاستاذ سلطان ناجي في مقال مستفيض بعنوان « مظاهر الحضارة اليمنية القديمة ـ محاولة تطبيق تفسير توينبي عليها » نشر في مجلة (آفاق عربية) في عددها لشهر تشرين الاول ١٩٧٨ (٨٤ ـ ٩٣) العوامل التي أدت الى سقوط حضارة اليمن في ضوء تفسير توينبي لسقوط الحضارة والذي يرده الى اسباب ثلاثة هي :

١ ـ ضعف القوة الخلاقة في الاقلية الموجهة وانقلابها الى سلطة تعسفية •

٢ ـ تخلي البروليتارية (أي الاكثرية) عن موالاة الاقلية الجديدة المسيطرة وكفها عن محاكاتها •

٣ ـ الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله •

ويرى الاستاذ ناجي بعد ان استعرض الصورة للتاريخ السياسي للدول اليمنية القديمة وقدم موجزا لمظاهر الحضارة اليمنة القديمة واحدة واحدة ان تفسيرات توينبي لسقوط الحضارة تنطبق على حضارة اليمن القديمة ، فبالفعل انقلبت الاقلية الموجهة الى سلطة تعسفية في اواخر حياة الحضارة اليمنية عندما بدأ العمل يقل تدريجيا بنظام الاستشارة ، ثم زال من الوجود منذ القرن

الثالث للميلاد بعد قيام دولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات ، كذلك تخلت البروليتارية اليمنية ، وهم القبائل عن موالاة الاقلية المسيطرة • فقد بدأ نجم قبائل (همدان) و (مرشد) و (سخيم) و (خولان) و (تبع) و (سمعي) و (حمير) الخ •• يرتفع في اواخر تاريخ الدولة اليمنية ، بل وينازعون سبأ السلطة وينتزعون الحكم منها في بعض الاوقات • لقد أصبح لتلك الاكثرية من القبائل التأثير الهام في توجيه سياسة دولة سبأ • اما البروليتارية الخارجية أو البرابرة التي ساعدت على انهيار الحضارة اليمنية القديمة ، فكانت في هذه الحالة القبائل الحبشية الغازية • وبالنسبة لزمن الاضطرابات فأن أخطر الاضطرابات ما يحدث بين الدول الاقليمية داخل الكيان الحضاري الواحد • ويرى توينبي ان (زمن الاضطرابات) هذا يشكل بدوره تحديا عنيفا يحفز الاقلية المسيطرة الى خلق (الدولة الجامعة) محاولة ان تسترد بها ما فقدته من سلطان ايجابي ولكن دون فائدة • وفي هذا الدور يتعرى الفساد الروحي عن فوضوية تعم الاخلاق والعادات ، وانحطاط يسود الاداب والفنون واللغات ، وتكون المحاولات العقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة • وتسعى الاقلية المسيطرة في حالات معينة الى ان تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة او دينا مختارا ولكنها تخفق في محاولاتها هذه • وهذا تفسير توينبي ينطبق تماما على الحضارة اليمنية القديمة ، حيث نرى في الاخير الحروب تشتعل بين دول (معين) و (حضرموت) و (قتبان) و (اوسان) وتنتهي هذه الدول جميعها بعد القرن الرابع للميلاد •

هذا وبالنسبة للدولة الجامعة فقد كان تشكيل (دولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويسنات واعرابها في الجبال والتهائم) بعد القرن الرابع للميلاد تحقيقا للدولة الجامعة بالقوة بعد الحروب العنيفة المدمرة التي شنها كل من (تسريهرعش) و (اب كرب اسعد). اما الفلسفة الخاصة او الدين المختار الذي حاولت الاقلية المسيطرة في اليمن القديمة ان تفرضـــه على رعاياها فكان المسيحية . وقد حاولت في الاخير ايضا محاولات عقيمة للتوفيق بينها وبين اليهودية ولكن زاد الامر سوءا فادى الى تقســيم اليمنيين الى فريقــين متناحرين يتقاتلان من اجل تينك الايديولوجيتين الدخيلتين ، ومن ورائها القوتان العظميان في ذلك الحين (فارس وبيزنطة) ، مما كان ابلغ الاثر في سقوط الحضارة اليمنية القديمة .

وينقل الاستاذ ناجي عن بييك قوله في هذا الصدد ما ترجمته : « مما لا ريب فيه ان الوثنية القديمة في اليمن قد تعرضت لضربات عنيفة من هذه الايديولوجيات الدينية الجديدة . والاحتمال كبير في ان القيم السابقة قد تلطخت سمعتها ، وان مثل هذه التبدلات المتتالية في الاديان قد تركت اليمنيين في حالة ضياع فكري وبدون اية قيم ومعتقدات واضحة يهتدون بها ويرجعون اليها . ومن الجلي ان فتورا قد خيم على ثقافتهم القديمة التي شاخت بحيث لم يعد بمقدورها مواكبة الحياة الجديدة او الاستجابة لمطالبها واتجاهاتها ... وعندما ظهر الاسلام الى الساحة لم يعد هناك من الثقافــة القديمة ما هو جدير بالبقاء او بمقاومة الحياة الجديدة المتكاملــة التي اتى بها الاسلام » .

وينتهي الاستاذ ناجي الى القول : ان كثيرا ما يعزى سقوط الحضارة اليمنية الى انفجار سد مارب ولكن الواقع ان عوامل كثيرة قد تشابكت خلال الثلاثمائة سنة الواقعة بين القرنين الرابع والسابع بعد الميلاد ادت تدريجيا الى افول الحضارة اليمنية القديمة وسقوطها • واول تلك الاسباب بلا مراء كان العامل الاقتصادي وذلك من جراء فقدان اليمنيين لتجارة المر والبخور منذ بداية القرن الرابع • ولا شك ان فقدان اليمن لتلك التجارة الرئيسية قد قطع ورود الثروة اليها وبالتالي عزلها سياسيا واقتصاديا وثقافيا عن مراكز الحضارات الاخرى في حوض البحر الابيض المتوسط وبلاد الرافدين • ثم كنتيجة حتمية أفقدها حركة التواصل والتأثير في الافكار والقيم الحضارية المشتركة • لقد هجرت اعمال الري الرئيسية واهملت بسبب ما طرأ من تبدل وتفسخ على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • ان التفسير لانهيار السدود وتعطيل شبكة انظمة الري في المناطق اليمنية هو لان التمزق في الحالة الاجتماعية نتيجة للحروب الداخلية والغزو الخارجي قد اعاق اجراء الصيانة الضرورية لانظمة الري • لقد كانت الترميمات تؤجل حتى فات الاوان ، وفي النهاية تداعى كل شيء الى الخراب •

(مجلة افاق عربية ، السنة الرابعة ، عدد تشرين الاول ١٩٧٨ ، ص ٩٢ ـ ٩٣) •

٢٥ ـ حضارة العرب وحضارة الغرب :

وختاما نخلص مما تقدم ان الحضارة التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين الواحدة تلو الاخرى عبر التاريخ كانت كلها عدا السومرية عربية كان منبعها وخزانها البشري جزيرة العرب ، فقد بدأت حضارة العرب قبل أكثر من عشرين ألف سنة في جزيرة العرب وعادت فانتهت في جزيرة العرب أيضا بظهور الامبراطورية العربية الاسلامية • وكان مؤسسو تلك الحضارات عربا يتكلمون اللغة العربية الام • وأهم ما تميزت به حضارة العرب هذه انها ذات طابع أصيل وذات طابع استمراري متواصل عبر العصور التاريخية فقد كانت في كل الادوار التي مرت بها ، تزدهر حينا ثم تنهار حينا آخر ، ثم تنبعث من جديد وتختفي عدة مرات ، كل ذلك دليل على أن هذه الحضارة لاتزال حية بجذورها العميقة ومقوماتها التراثية لم تمت واستدلالا بالماضي ، نقول : كما انبعثت هذه الحضارة ثم انقرضت ثم انبعثت من جديد عدة مرات كذلك ستعود بعد سباتها اذا تهيأت لها ظروف ملائمة والتاريخ يعيد نفسه • وذلك بخلاف حضارة وادي النيل والحضارات الاخر مثل الحضارة السومرية والحضارات القديمة التي نشأت في البلاد اللاتينية كالمايا والانكا وغيرها التي اندثرت بلا عودة • وفي ذلك يقول جورج سارتون : « سبق للعرب ان قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل

التقدم الانساني طوال ألفي سنة على الاقل قبل أيام اليونان ، ثم في العصور الوسطى مدة اربعة قرون تقريبا ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من ان تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد » • ويجب أن لا ننسى ان جميع الحضارات التي قامت على الارض العربية هي ملك الامة العربية • وان حضارة العرب على امتدادها التاريخي هي الوريث الشرعي لتلك الحضارات القديمة•وفي ذلك يقول المفكر والخبير الروسي الشهير سولجنتسين : « فكل حضارة عريقة أصيلة دامت قرونا طويلة ، واتسعت حتى شملت مساحة واسعة نسبيا من الارض ، هي في الواقع عالم قائم بذاته ، مليء بالالغاز وبالمفاجئات التي لا تخطر (للعقل الغربي) • تلك مثلا هي حالة الصين ، وحالة الهند ، وحالة العالم الاسلامي خصوصا اذا حسبنا امتداداته في أفريقيا ، فقد فوجيء العقل الغربي بما حدث فيها »(٣٠٤) •

ويعلق الخبراء بمزيد من الافاضة على أهمية الوحدة العربية التي يستند اليها ازدهار الحضارة العربية • فتوينبي متفائل في امكانية تحقيق الوحدة العربية التي يستند اليها ازدهار الحضارة العربية ، فهو يشير الى الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية وكيف ازيحت اماميهما العقبات حتى تمت وحدتهما في خلال ٥٦ عاما ويخلص توينبي الى القول بأن يكون للعرب على هذا الاساس من الوقت الكافي لكيما ينجزوا وحدتهم • ويمضي توينبي فيتساءل « أية عقبات هناك أعظم من العقبات التي قهرتها ايطاليا القرن التاسع عشر حقيقة ؟ ••• وليست نكبة العالم العربي

الحاضرة اذا أمكنت المقارنة ، على قدر من السوء يوازي نكبة ايطاليا القرن التاسع عشر في بداية الامر • فالعالم العربي اليوم على وشك ان يتخلص تماما من آخر آثار السيطرة الاجنبية على أرجائه(٢٠٥) •

ويرى توينبي امكانية شعوب أفريقيا ان تعمل معا نحو هدف افروء ـ عربي مشترك لان هناك عددا من المسلمين في شمالي السودان فان هؤلاء الزنوج الناطقين بالعربية هم عرب واما النيجيريون الزنوج فهم مسلمون أولا وقبل كل شيء • ويعتقد توينبي ان محاولة كل قطر عربي ان يحرز تقدمه الخاص معتمدا على نفسه يجعله مغلول اليد ، لذلك يرى ان خطة اقتصادية شاملة للجميع تسندها مصادر الوطن العربي بمجموعه سوف تسارع في نجاح كل قطر عربي مشارك فيها •• فمعرفة العربي تجعله يسعى الى وحدة مصيره ، والى حقائق قضايا امته ونضاله من أجل ان يكون غد هذه الامة موحدا وممتلكا لاستقلاله السياسي والاقتصادي والثقافي(٢٠٩) •

واذا قارنا بين مستقبل حضارة العرب وحضارة الغرب نجد ان هناك شبه اجماع على تنبوء العلماء بقرب سقوط حضارة الغرب مستدلين بأدلة كثيرة تدعم هذا التنبوء ، وأكثر ما يستند اليه الباحثون في تنبوئهم هذا النظرية القائلة بأن الحضارات تمر

بدورات متعاقبة تنمو وتزدهر ثم تشيخ وتذبل وتندثر مسترشدين بما وقع للحضارات القديمة عبر التاريخ مثل حضارة الفراعنة في مصر وحضارة الصين وحضارة البابليين والاشوريين وغيرها من الحضارات المتأخرة مثل حضارة الاغريق والرومان والحضـارة العربية الاسلامية وغيرها ، وهناك عدد من المفكرين من يرى ان الحضارة الغربية الحالية قد دخلت مرحلة الانهيار والاندثار وانها تخطو خطوات سريعة في هذا الاتجاه . وقد ذكر عن نابليون انه قال بأن اوروبا شاخت وان القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكرا : أمريكا بشبابها الطاغي وروسيا بذلها الشديد الذي لابد ان يتفجر عن شيء جديد قوي .

وكان من العلماء العرب من أخذ بنظرية اعمار الحضارات ، ففي رأي ابن خلدون ان لدى الامم والدول اعمار طبيعية كمـا للانسان ، فبعد ان تأخذ الامم بالدعة والراحة وتنغمس في الملذات والشهـوات وتميل الى الرخاء والترف تأخـذ بمبادىء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضى عليهـا .

وقد كان أول من تنبأ تنبوءا قاطعا بانهيار حضارة أوروبا الحالية الفيلسوف الالماني « اوزوالد شبنجلر »[٢٠٧] الذي أعلن رأيه هذا قبل أكثر من خمسين سنة معززا رأيه بالنظرية القائلة ، ان التاريخ الانساني ليس خطا مستقيما الى التقدم ، ولكنه دورات

متعاقبة النمو والانحلال وان كل حضارة هي أشبه بانسان ، يولد وينمو ويزدهر ثم يشيخ ويذبل ويموت ، ثم تبدأ دورة جديدة في مكان آخر من العالم وهكذا • ومن أقوال شبنجلر أيضا : « ان الحشرات تشبه البشر لانها تولد وتنمو وتنضج وتموت ، ويتكون البشر من حجيرات بايولوجية ، أما الحضارة فانها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة تماما كالحجيرات التي تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات ، ثم يقول : «ليس هناك مهرب ، اننا الآن في آخر مراحل التدهور ، ويجب علينا ان تؤمن بهذا • وليس هناك احتمال في ظهور دين جديد أو فلسفة جديدة ، لأن تربة الغرب منهوكة ميتافيزيكيا ، والشك هو الطريق الوحيد الذي يتفتح أمامنا » وهذا الشك كما يعتقد شبنجلر ، يجب ان يرتكز على تدهور الغرب ، وينتهي الى « ان هذا العصر سيكون المرحلة الاخيرة من الحضارة الغربية ، وهذه المرحلة النهائية حتمية بالنسبة للتاريخ الغربي » ولم يكن شبنجلر الكاتب الوحيد الذي احتضن فكرة تطور الحضارات وازدهارها زمنا ثم انقراضها بعد شيخوختها ، فقد سبق شبنجلر من اعتنق مثل أفكاره ومن أهم هؤلاء جيوفاني باتستافيكو الذي ولد في نابولي ، ١٦٦٨ ، كان تفكيره متجها نحو ما اتجه اليه كتاب شبنجلر ، فقد ادرك فيكو ان الحضارات تبدأ بالتفكير الديني • وبعد مرور قرن على مولد فيكو ، ولد في ليون مفكر فرنسي عظيم اسمه « بيير بالانش » وكانت طريقة بالانش أكثر اقترابا من طريقة شبنجلر ، وكان كتابه

الذي لم يكمله يضم عددا من الافكار تبدأ من الانسان كما كان قبل ظهور الاديان وينتهي بالانسان كما يجب ان يكون في مرحلته النهائية نحو الكمال ، ولقد كانت وجهة نظر بالانش دينيـة في جوهرها ، وقد ادرك بالانش الحاجة الى النظام والسلطة ؛ وقبل ٢٠ سنة من تأليف شبنجلر لكتابه ظهر في بوسطن شقيقان همـا الاخوان هنري وبروكس ادمز ، بحثا المشاكل التي عالجها شبنجلر، فقد ألف الثاني كتابا سماه « قانون الحضارة والانحلال » ، وقد بحث في هذا الكتاب قوانين التجارة والسكان وصرح فيه بـأن الانحلال يحدث حين يكون فائض الطاقة قد خلق توترا وضغطا داخليين لا يمكن احتمالهما ، وقد أكد بأن المادية تشتد والخيال يضمحل ، وتكون النتيجة الفشل في التعبير عن الذات في المجتمع عامة ، وهذا يؤدي الى انفجار هذا المجتمع ، أما هنري ادمز فقد حاول ان يكون أكثر دقة بشأن انحلال الغرب . فانه يواجه ، في كتابه « اتجاه التاريخ » كل الاحتمـالات التي تنتظر حضارتنـا وينكران تقدمنا المادي يمكن ان يستمر بلا نهاية أو ان الشيوعية العالمية يمكن ان تنقذنا ، أما بالنسبة للفكرة الجديدة أو الدين الجديد فانه يصرح بأن هذا سيكون انتحارا ولا أمل هنالك الا في « علم للتاريخ » يكون في استطاعته ان يكشف عن طريق جديد غير مشكوك فيه يمكن ان تسير فيه الحضارة(٢٠٨) .

وقد آمن ارنولد توينبي بفكرة سبنجلر في ان للتاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت ، ولكنه قال ان هذا لن

يحدث الحضارة الراهنة ، والسبب في رأيه ان الحضارة الراهنة تعلمت من التاريخ وعرفت الخطر فهي سوف تتمكن من ان تتجنب تكرارها[٢٠٩] ، لذلك فهو يقول بأن الحضارة الغربية قد تستمر في البقاء في حين ان الحضارات السابقة فشلت في أن يكون لها مثل هذا الامل . ويضيف الى ذلك قوله في نهاية البحث بان خلاص الغرب لا يكون الا بالانتقال من الاقتصاد الى الدين . ويقول بطريقته الخاصة : « لقد اغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعهم المصابيح الجديدة مقابل المصابيح القديمة . ولقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلا منها السينما والراديو ، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك الصفقة الجديدة افقارا روحيا »[٢١٠] .

ويستعمل توينبي لوصف العوامل التي تؤدي الى تفسخ الحضارة وهي (Hybris) ويمكن ترجمتها بمعنى : الزهو والغرور والتكبر والانانية . ويعتبر توينبي (Hybris) السبب في سقوط الحضارات[٢١١] .

ويعلق الاستاذ طه باقر على دراسات توينبي في تفسير نشوء الحضارات ونموها وتدهورها وانحلالها وسقوطها فيقول : « ان توينبي تفرد من بين فلاسفة التاريخ ومؤرخي الحضارات بأنه تناول في حقل بحثه جميع الحضارات والمجتمعات البشرية ، قديمها وحديثها ، حاملا اياها موضوع درس مقارن » . ويضيف الى ذلك قوله : « وعندي ان الذي مكن توينبي من أن يتميز بهذه السعة

والشمولية في بحثه المقارن تلك الكشوف المثيرة التي حققتها التحريات الاثارية في اكتشافها عدة حضارات قديمة لم يكن الباحثون وفلاسفة التاريخ القدامى وفي مقدمتهم ابن خلدون يعرفون عنها شيئا حتى مجرد أسماء الكثير فيها ، فوضعت تلك الكشوف في متناول أيدي الباحثين في الحضارات وفلسفة التاريخ مادة غزيرة لم تكن متيسرة للقدامى منهم . ان توينبي تناول في درسه المقارن ما لا يقل عن ست وعشرين حضارة أو مجتمع من المجتمعات البشرية التي احصاها في التاريخ البشري العام منذ نشوء اولى الحضارات في وادي الرافدين ووادي النيل التي اطلق عليها مصطلح الحضارات الاصلية أو الحضارات الاصيلة ، أي الحضارات التي لم تستق من حضارات سابقة عليها وانما نشأت ونمت من الاطوار البدائية في عصور ما قبل التاريخ ، وبعبارة أخرى درس توينبي احداث التاريخ البشري العام منذ أقدم عصوره وفي مختلف عهوده وأدواره ، عارضا اياها باسلوب جذاب مشوق مزينا ذلك العرض بين الحين والحين باستشهاده بالآداب العالمية وأساطير الاقوام والحضارات المختلفة ، وهذا في رأيي سر ما تميزت به دراسات توينبي في التاريخ من أهمية وجاذبية بغض النظر عن مدى صحة ما توصل اليه من نظريات وآراء في تفسير التاريخ وما استنبطه من نواميس لتفسير نشوء الحضارات ونموها وتدهورها وانحلالها وسقوطها(٢١٢) .

نحن نؤمن بأن الحضارة العربيـة هي التي سـتحل محل الحضارة الغربية في المستقبل بعد انهيارها اذا تحققت النبوءات بقرب انهيارها وسقوطها . لان الحضارة العربية لا تزال حيـة لها جذور عميقة في تاريخ الحضارات البشرية ، وفيها من الحيوية وقوة الصمود بمقوماتها الحضاريـة العريقة ما يسـاعدها على الانبعاث من جديد والتاريخ يعيد نفسه كما يقال . لقد سبق لهذه الحضارة (الحضارة العربيـة) أن كونت أعظم الامبراطوريات مما عرفه التاريخ ، الواحدة تلو الاخرى ، (خمس امبراطوريات في خلال خمسة آلاف عام) ، لذلك ان هذه الحضارة لا يمكن ان تموت وستنهض من جديد كما نهضت في الماضي عدة مرات في التاريخ بعد سباتها .

ان الاستعمار الغربي على حداثته أخذت شعوبه تشعر بالهرم نسبيا وتشكو من نقص مواردها الطبيعية على عكس الشعوب العربية والشعوب الاخرى التي أخذت تجمع شـملها في وحدة متماسكة فيما لو توافرت لها الظروف الملائمة حيث لم تزل محافظة على نضارتها وسريان ماء الشباب في عروقها وتحتفظ بفائض في مواردها الطبيعية ولاجيال عديدة لا يمكن حصرها . وعندئذ ماذا سيكون مصير الغرب والى ماذا سـتؤول حضارته الهرمة التي بناها على الأخذ دون العطاء وامتصاص دماء الشـعوب فيما لو قيض لها قيام مثل هذه الوحدة .

وأخيرا جاء سولجنتسين ، وهو الخبير الذي عاش في الشرق والغرب ، في روسيا وفي أمريكا ليضم صوته الى شبنجلر ورفاقه فيقول : « ان الغرب كما هو الان فاقد لصحته الداخلية ، مهما أخفت ذلك مظاهر القوة والرخاء •• وحضارة شأنها البحث عن اللذة ، والاستمتاع ، والمزيد من الرخاء ، لا يمكن الا ان تكون حضارة شائخة ، خائفة ، تهاب الموت وتكره التضحية ، فهي تتنازل أمام خصومها خطوة بعد خطوة ، طلبا للسلامة »(٢١٣) •

الهوامش :

(١) تكوين ، ١٠ : ٢١ — ٣١ ؛ ١١ : ١٠ — ٢٦ .

(٢) نولدكه ، « اللغات السامية » ، الترجمة العربية ، ص ٨ .

(٣) طه باقر ، « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٦٥ .

(٤) محمد عزة دروزة ، « تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والادوار والاقطار » ، صيدا لبنان ، ١٩٤٦ ، ج١ ، ص١٨ .

(٥) تكوين ١٠ : ٢٢ .

(٦) تكوين ١٠ : ٦ .

(٧) تكوين ٩ : ٢٥ — ٢٧ .

(٨) تكوين ١٠ : ١٥ .

(٩) تكوين ١٠ : ٥ .

(١٠) طه باقر ، مرجع سابق ، ص ٦٨ ؛ الدكتور حسن ظاظا ، « الساميون ولغاتهم » ، ١٩٧١ ، ص ١٧—٢٣ .

(١١) طه باقر ، مرجع سابق ، ص ٦٦—٧١ .

(١٢) الدكتور جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ج١ ، ص ٢٢٩ .

(١٣) طه باقر ، مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(١٤) الدكتور جواد علي ، « المفصل » مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٣٤ .

(١٥) G.A. Barton, Ency.of Religion and Ethics, vol. 11 p. 579

(١٦) دكتور ديتلف نيلسون ورفاقه ، « التاريخ العربي القديم » ، ص ٥٣ .

(١٧) محمد عزة دروزة ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٨ .

(١٨) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ج١ ، ص ١٤٩ ، ج٢ ص ٢٨٧–٢٨٨ . يلاحظ ان الدكتور جواد علي عاد فتراجع عن رأيه في التسمية التي صوبها بحق ، وذلك في الطبعة الجديدة لكتابه . اذ عاد فاندمج في ذلك الخطأ واستمر عليه حيث ظل يذكر من انساح من جزيرة العرب باسم الساميين والشعوب السامية وبذلك يفصل بين تاريخهم وتاريخ سكان الجزيرة والعرب . فيقول في هذه الطبعة الجديدة ما نصه : « نعم ، لقد قلت ان مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح ممكن اطلاقه على تلك الشعوب ، وان الزمان قد حان لاستبدال مصطلح سامي وسامية بعربي وعربية ، وقلت أشياء اخرى شرحتها في الجزء الثاني من الكتاب السابق في تقليل ترجيح هذه التسمية ، ولكني لم أقصد ولن أقصد ان تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية اصطلح عليها اصطلاحا ، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية وتاريخية ، وبين المفهومين فرق كبير » (المفصل في تاريخ العرب ، ج١ ، ص ٨) .

(١٩) محمد عزة دروزة ، « تاريخ الجنس العربي » ، ج١ ، ص ص ١٦ – ١٧ .

(١٩أ) طه باقر ، مصدر سابق ، ص ٦٥ – ٦٦ .

(٢٠) دكتور علي حسني الخربوطلي ، « العرب والحضارة » ، ص ١٣ – ١٤ .

(٢١) تك ١٠ : ٣٢ .

(٢٢) تك ١١ : ١٢ – ٢٦ .

(٢٣) تك ١٠ : ٢٢ .

(٢٤) اوليثاري ، « القواعد المقارنة للغات السامية » (النص الانكليزي) ، ص ٢ .

(٢٥) **H. Fleisch, "Introduction a l'etude des langues Semitiques", Paris, 1947, p. 18.**

(٢٦) لقد اشار الدكتور جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » (١ : ١٦٩) ان اقدم اشارة الى العرب وردت في نص آشوري يعود الى زمن الملك شلمنصر الثاني ملك آشور، غير ان التحقيق الحديث ينتهي الى ان اقدم اشارة الى العرب في النصوص الآشورية ترجع الى زمن شلمنصر الثالث كما ذكرنا اعلاه. ويلاحظ ان الدكتور حتي هو الآخر ذكر ان أول اشارة الى العرب ترجع الى زمن شلمنصر الثاني والصحيح هو شلمنصر الثالث . وقد اعتمدت الدكتورة باكزة رفيق حلمي على المرجعين فذكرت في بحثها عن لغات الجزيرة العربية (مجلة المجمع العلمي) العراقي م ٢٤/ ١٩٧٤ ، ص ١٧٦) ان النص الآشوري يرجع الى شلمنصر الثاني .

(٢٧) الدكتور جواد علي (مصدر سابق) ١ : ١٦٩ .

(٢٨) Rogers, "Cuneiform Parallels to the Old Testament", pp. 357—359.

(٢٩) اشعيا ٢١ : ١٣ ، ٢ اخ ١٧ : ١١ .

(٣٠) اشعيا ١٣ : ٢٠ ، ارميا ٣ : ٢ .

(٣١) ارميا ٢٥ : ٢٤ ، ٢ اخ ٩ : ١٤ .

(٣٢) غلاطية ١ : ١٧ ، ٤ : ٢٥ .

(٣٣) اشعيا ٢١ : ١٣ .

(٣٤) نحميا ٢ : ١٩ .

(٣٥) الدكتور جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ج١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(٣٦) يشوع ١٨ : ١٨ .

(٣٧) تثنية ١ : ١ و ٢ : ٨ .

(٣٨) حزقيال ٤٧ : ٨ .

(٣٩) الدكتور جواد علي مصدر سابق ١ : ص ١٧٥ .

(٤٠) المرجع السابق ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

(٤١) مجلة المجمع العلمي العراقي م ٢٤ (١٩٧٤) ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٤٢) الدكتور جواد علي (مصدر سابق) ، ج ١ ، ص ١٧٦–١٧٧ .

(٤٣) الدكتور جواد علي ، « المفصل في تاريخ العرب » ، ١ : ٢٢ .

(٤٤) كتابة بهستون هي المنحوتات التي وجدت في ايران في واجهة احد الجبال على الطريق بين همدان وكرمنشاه على بعد ٣٢ كيلومترا الى الشرق من كرمنشاه ، وقد نقشت على هذه المنحوتات كتابات بثلاث لغات البابلية بالخط المسماري واللغة الفارسية واللغة السوسيانية (نسبة الى بلاد السوس) . وهذه الكتابات ساعدت العلماء على حل رموز اللغة البابلية القديمة بمقابلتها مع الترجمة الفارسية . وقد اكتشف العلماء فيما اكتشفوه من أسرار الكتابة السومرية البابلية ان الكتابة السومرية تقرأ من اليمين الى اليسار في حين البابليين اتخذوا الطريقة المعاكسة في كتاباتهم أي من اليسار الى اليمين (انظر حول منحوتات بهستون كتاب « الري والحضارة في وادي الرافدين » للدكتور احمد سوسه ، ص ٦٣ – ٦٤) .

(٤٥) انظر كتاب « الحضر مدينة الشمس » لفؤاد سفر ومحمد علي مصطفى بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ١٧ .

(٤٦) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ج ١ ص ١٨٢ – ١٨٥ .

(٤٧) محمد مصطفى بازامة ، « تاريخ ليبيا » ، بنغازي ، ١٩٧٣ ، ص ٨٢ – ٨٣ ، طه باقر ، مصدر سابق ، ص ١٦٨ ، فؤاد سفر ، « البيئة الطبيعية القديمة في العراق » سومر ١٩٧٤ ، ص ١ – ٩ ، انظر ايضا : C.E.P. Brooks, "Climate through the Ages", 1926.

(٤٧) G.E. Smith, "The Origin of Civilization", New Ed. London, 1932.

(٤٧ب) K.A. Witfogel, "Oriental Despotism", Yale University Press, 1962.

(٤٨) الباليوليثية يقصد بها العصر الحجري القديم الذي يبدأ حسب تقدير العلماء قبل حوالي ٣٥ الف سنة .

(٤٩) العصر النيوليثي هو العصر الحجري الحديث ويحدد العلماء زمنه في الفترة مابين سبعة آلاف وخمسة آلاف سنة قبل الميلاد .

(٥٠) الاستاذ طه باقر « علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب » سومر ، ١٩٤٩ ، م ٥ ، ص ١٢٨ نقلا عن :

Dougerty, "The Sealand", pp. 157, ff.

(٥١) « الربع الخالي ــ انهار مندرسة » ، النص الانكليزي ص ١٤٠ . انظر ايضا :

Philby, "The Heart of Arabia", p. 31 f., Journal of Central Asian Society, VII, p. 116 f.

(٥٢) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ١ : ٩٧ ــ ١٠٢ .

(٥٣) الدكتور رفيق التميمي ، المقتطف ، عدد يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .

(٥٤) الدكتور احمد سوسه ، (ري سامراء ، ٢ : ٥٣٩) .

(٥٥) « دراسات تاريخية عن أصل العرب » ، ص ٤١ ــ ٤٢ .

(٥٦) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ج١ ، ص ٩٨ .

(٥٦أ) V.G. Childe, "The Most Ancient East", Chap. II.

(٥٧) طه باقر ، سومر ١٩٤٩ ، ص ١٣١ .

A. Sprenger, "Das Leben und Lehre des Mohammed", Berlin, 1861, pp. 241 f.; "Die Alte Geographie Arabiens", Bern, 1875, p. 293. (٥٨)

Sayce, "Assyrian Grammar", Oxford, 1872, p. 13; Barton, "Semitic and Hamitic Origins", p. 4. (٥٩)

E. Shrader, ZDMG, XXVII, 1873, pp. 397—420. (٦٠)

De Goeje, "Het Vaderland der Semitiche Volken", Leyden 1882. (٦١)

Wright, "Comparative Grammar of the Semitic Languages", p. 8. (٦٢)

C. Brockelman, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitichen Sprachen", Berlin, 1908-1913. (٦٣)

L.W. King, "History ofsumer and Akkad", London 1915, p. 119. (٦٤)

J.L. Meyers in "Cambridge Ancient History", 1923 I, p. 38; Barton, "Semitic . . .", p. 6. (٦٥)

S. A. Cook, in "Cambridge Ancient History", I, pp. 192 ff. (٦٦)

D. Nielson, "Handbuck der Altarbischen Altertum kunde", I, Kopenagen, Paris, Leipzig, 1927. pp. 47, 55. (٦٧)

Wright, "Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages", Cambridge, 1890, p. 8. (٦٨)

R. Smith, "Kinship and Marriage in Early Arabia", p. 178. (٦٩)

F. Hommel, "Ethnologie und Geographie der Alten Orient", Muenchen, 1926, p. 10. (٧٠)

(٧١) Glaser, "Skieze der Geschte und Geographie Arabiens", Vol. II, 1890.

(٧٢) Contenau, "Manuel d'archeologie orientale; La civilisation d'Assur et de Babylone", p. 43.

(٧٣) Fleisch, "Introduction a l'étude des langues Sémitiques", pp. 24—25.

(٧٤) Dussaut, "La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam",

(٧٥) J.A. Montgomery, "Arabia and the Bible", 1934.

(٧٦) D. B. Macdonal. "The Hebrew Literary Genius", Princeton University Press, 1933.

(٧٧) E. Huntington, "Palestine and its Transformation", 1911 vide Chap. XII, "Climate and History".

(٧٨) رينيه ديسو ، « العرب في سورية قبل الاسلام » ، ص ٢٠ .

(٧٩) الدكتور حسن ظاظا ، « الساميون ولغاتهم » ، ١٩٧١ ص ١٣ ، انظر ايضا فيما يتعلق بجزيرة العرب والحضارة السامية : الدكتور جواد علي « العرب قبل الاسلام » ج١ ص ١٤٨ وما بعدها و ج٢ ص ٢٨٧ ما بعدها ؛ « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ج١ ص ٢٢٢ وما بعدها ؛ « تاريخ مصر منذ العصور القديمة » لبريستد ، « تاريخ العصور القديمة » له ايضا ؛ « تاريخ سورية » للدبسي ، م ١ ، ج١ ، ص ٢٥٥ وما بعدها ؛ ويلفنسون ، « تاريخ اللغات السامية » ؛ حتي ورفقاؤه ، « تاريخ العرب المطول » ج١ ؛ الابراشي وعنان ومحرز « الاساس في اللغات السامية والامم السامية » ؛ الدكتور حسن كمال « تاريخ السودان » ؛ غوستاف لوبون « الحضارة المصرية » ؛ محمد عزة دروزة « تاريخ الجنس العربي » ؛ احمد نجيب ، « سكان وادي النيل » .

(٨٠) يطلق عادة مصطلح « الهلال الخصيب على القسم الخصيب الهلالي من جزيرة العرب الواقع على اطرافها الشرقية والشمالية الغربية ، ويشمل سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وبعضهم يدخل الجزء الشمالي من وادي النيل ضمن الهلال ، وكان اول من قال بهذا المصطلح « بريستد » وسماه بالانجليزية
The Fertile Cerscent

(٨٠ أ) «دليل الراغبين في لغة الاراميين » لقس منا الكلداني • ص ٧٠

(٨٠ب) يقصد العلماء عندما يتحدثون عن سورية في التاريخ القديم مفهومها الواسع الذي يشمل ـ عدا سورية ـ فلسطين ولبنان وفينيقية وسيناء .

(٨٠ج) S. Moscati "Ancient Semitic Civilizations", London, pp. 13, 108.

(٨١) الدكتور فرج بصمهجي ، « اقوام الشرق الادنى القديم وهجراتهم » سومر (١٩٤٧) ص ٨٧ ـ ٩٩ .

(٨٢) سومر ، م ٣٠ ، ١٩٧٤ ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٨٢أ) A.T. Clay, "Amuru, The Home of the Northern Semites", 1909; "The Empire of the Amorites", 1919; A. Haldar, "Who were the Amorites?", Leiden 1971.

(٨٢ب) يقع تل باغوز في منطقة البو كمال في محافظة دير الزور بسورية عند قرية باغوز الواقعة في اسفل هضبة عالية ويسمى الموقع باسم العرسي ، اما الباغوز فلفظة تركية تعني المضيق ، وعلى قمة هضبة الباغوز آثار حصن قديم لم يبق منه غير ثلاثة ابراج متباعدة عن بعضها البعض (انظر : « منطقة البو كمال في محافظة دير الزور » ، للمحامي عبدالقادر عياش ، دير الزور كانون الثاني ، ١٩٧٣ ، ص ١٦) .

(٨٣) الدكتور جواد علي ، « المفصل في تاريخ العرب » ، ١ : ٤٩٣ .

(٨٤) لسان العرب لابن منظور اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي م ٢ ص ٧٢٣ .

(٨٤أ) محب الدين الخطيب ، « اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب » القاهرة ، سنة ١٣٤٤ هـ .

(٨٤ب) القي هذا البحث على المؤتمر الخامس للجمعية الملكية لاسيا الوسطى للدراسات الاسلامية والعربية المنعقد في بروسل (٣١ آب – ٧ ايلول ١٩٧٠) . انظر :

Arabs and Norsemen", by Nevill Barbour Journal of the Royal Central Asian Society, June 1961, Vol. 58 (New Series, Vol. II part II), pp. 159-165.

(٨٥) H. St. J.B Philby, "The Back Ground of Islam", Alexandria", 1947, p. 9.

(٨٦) « كيش » هي من أقدم المدن العراقية القديمة وهي سامية تقع في جنوبي العراق وتعرف اطلالها اليوم بتلول الاحيمر ، وقد وصفت كونها أول مدينة انشئت بعد الطوفان، تقع شمالي المداين السومرية مباشرة على بعد حوالي ٢٥ كيلومترا من شمال شرقي بلدة الحلة ، تمتد اطلالها الى مسافة حوالي ثمانية كيلومترات طولا وثلاثة كيلومترات عرضا .

(٨٧) S. Langdon, "Excavations at Kish", Vol. I, 1924.

(٨٨) L.C.H. Watelin, "Excavations at Kish", IV, 1934, p. 1.

(٨٩) اولمستيد ، « تاريخ فلسطين » ، ص ٣٦ .

(٩٠) Philby, "The Back Ground of Islam".

(٩١) الدكتور جواد علي ، « المفصل في تاريخ العرب » ج١ ، ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٩٢) الدكتور جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ج٧ ، ص ٢١ .

(٩٣) ولفنسون ، « تاريخ اللغات السامية » ، ص ٧ .

(٩٤) اوليئارى ، « قواعد المقارنة للغات السامية » .

(٩٥) « الساميون ولغاتهم » ، ١٩٧١ ، ص ١٥ .

(٩٦) S. Moscati, "Histoire et Civilisation des peuples Semitiques", Paris, 1955, pp. 32—33.

(٩٧) Philby, "The Back Ground of Islam", p. 9.

(٩٨) Toynbee, "A Study of History".

(٩٩) Ibid.

(١٠٠) V.G, Childe, op, cit.

(١٠١) هوليون كايتاني Leon Caetani مستشرق ومؤرخ ايطالي من اهل رومه (١٨٦٩ — ١٩٢٦) تعلم في جامعتها وقام برحلات الى الشرق منها الهند وايران ومصر والشام ، كان يحسن سبع لغات منها العربية والفارسية ؛ الف بالايطالية كتاب « تاريخ الاسلام » في ثمانية مجلدات بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٨ مزينة بالرسوم والخارطات ، انتهى فيها الى سنة ٤٠ للهجرة ، وكتب في تراجم عدد كبير من علماء المسلمين وادبائهم في الاندلس ، وقد نشر بالعربية كتاب « تراجم الامم » لمسكويه . (انظر حول كيتاني : مجلة المقتبس ٨ : ٤٧ — ٥٠ ، مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٣ ، ص ٢٢٩ ؛ المستشرقون ١٥٩ ، المشرق ١٢ ، الاعلام ٦ : ١١٨) .

(١٠٢) Caetani, "Studi di Storia Orientale", p. 63.

(١٠٣) الدكتور رنيق التميمي ، المقتطف ، عدد يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٨ .

(١٠٤) الدكتور انطون مورتكات : « تاريخ الشرق الادنى القديم » الترجمة العربية ، ص ١٠ — ١٤ .

(١٠٥) « قصة الحضارة » الترجمة العربية ، ج٢ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(١٠٦) سومر ، م ٥ (١٩٤٩) ج٢ ، ص ١٣٠ .

(١٠٧) « قصة الحضارة » ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(١٠٨) « العرب قبل الاسلام » ، ص ٣٤ .

(١٠٩) ماري ، عاصمة دولة «عموزو» السامية تقع اطلالها المعروفة باسم « تل الحريري » على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة حوالي عشرة كيلومترات الى الشمال من بلدة « البو كمال » وهي المدينة العاشرة التي اسست بعد الطوفان كانت مركزا لحضارة عريقة عظم شأنها في الالفين الثالثة والثانية قبل الميلاد . نقب فيها جورج برو الاثاري الفرنسي المعروف وكشف فيها عن آثار حضارة وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ ومن عصور فجر السلالات . ومن أهم الآثار التي اكتشفت فيها قصر عظيم يرجع الى القرن العشرين قبل الميلاد يحتوي على ٣٠٠ حجرة وقاعة واسعة تزيد مساحته على ١٥ دونما عراقيا عثر فيه على مجموعة من الالواح الآثارية يبلغ عددها حوالي ٢٤٠٠٠ لوح .

(١١٠) A. T. Clay, op. cit.

(١١١) انظر مقال الدكتور احمد سوسه المنشور في مجلة آفاق عربية في عددها لشهر كانون الاول ١٩٧٧ بعنوان « حول الاكتشاف الحديث لموقع ابلا » .

(١١٢) تمثل آثار تل حلف عصرا من العصور الثقافية التاريخية يتميز بها قد سماه علماء الآثار عصر حلف وهو اول ادوار

العصر الحجري المعدني لتمييزه عن بقية الادوار التاريخية . وقد أصبحت منطقة تل حلف في منتصف الالف الثانية قبل الميلاد من ضمن دولة ميتاني الحورية ، ثم اتخذ الاراميون من موضع هذا التل عاصمة لاحدى ممالكهم المسماة « بيت بحياني » في القرن العاشر قبل الميلاد وقد كشف عن آثار العمارة الارامية فوق طبقات عصر حلف منها بقايا قصر الملك « كبارا » الذي يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد .

(١١٣) انطون موورتكات ، « تاريخ الشرق الادنى القديم » ترجمة توفيق سليمان ، ص ٨٤ .

(١١٤) A. Parrot, "Syria", p. 225 f.

(١١٥) L. Woolley, "The Sumerians", Oxford, 1929, pp. 5-6.

(١١٦) W. Saggs, "Every Day Life in Babylonia and Assyria. p. 30.

(١١٧) انظر : كوردن جايلد « ماذا حدث في التاريخ ؟ » ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٩٦ : انظر ايضا : ابراهيم شريف « الموقع الجغرافي للعراق » ٢ : ٦٩ .

(١١٨) سومر م ٣٠ (١٩٧٤) ، ص ٧٠ نقلا عن :

Pritchard, "Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament", (1950), p. 265; Jacobsen, "The Sumerian King List", p. 70.

(١١٩) S. Moscati, "The Face of the Ancient Orient", p. 59.

(١٢٠) هنري فرانكفورت ، « فجر الحضارة في الشرق الادنى القديم » ، ترجمة ميخائيل خوري ص ٩١ .

(١٢١) تعرف الفترة التي سبقت تاسيس الدولة الاكدية في تاريخ العراق القديم باسم عصور فجر السلالات ، وتبدأ من بداية الالف الثالثة قبل الميلاد وتنتهي بقيام الدولة الاكدية في حدود ٢٣٥٠ ق . م . تقريبا . كان القسم الجنوبي من العراق خلالها

يتكون من عدد من المدن المعتمدة على نفسها اقتصاديا واداريا اذ لكل منها سلالتها الادارية الحاكمة واقتصادها المعتمد على الزراعة والتجارة ، وقد اعتقد سكان العراق القديم بأن الالهة مصدر السلطة وان نظام الحكم ينزل من السماء (من الالهة حيث كانت السماء مركزا لها) ممثلا بالحاكم او الملك ، وقد جعلوا الطوفان الذي حدد في حدود الالف الثالثة قبل الميلاد حدا فاصلا لعدد من السلالات القديمة التي حكمت قبل حدوثه في عدد من المدن ، ولعدد آخر من السلالات التي حكمت بعده . وقد قسم الاستاذ هنري فرانكفورت في عام ١٩٣٦م تلك العصور الى ثلاثة اقسام : عصر فجر السلالات الاول (٣٠٠٠ — ٢٨٠٠ ق٠م) والثاني (٢٨٠٠ — ٦٠٠ ق٠م) والثالث (٢٦٠٠ — ٢٥٠ ق٠م) حيث تأسست الدولة الاكدية وحدت تلك السلالات تحت ادارتها . (سومر م ٣٠ ١٩٧٤) ص ٦٠ .

(١٢٢) المرجع السابق ص ٧٦ .

(١٢٣) A. Toynbee, "A Study of History", Abridgment by D.C. Somervell, complete in one volume (1962 ed).

(١٢٤) طه باقر ، مصدر سابق ، ص ٣٦٠ .

(١٢٥) « الساميون ولغاتهم » ، ص ١٠ .

(١٢٦) سيتون لويد « الرافدان » ، ص ٤٧ ، ٥٤ .

(١٢٧) وول ديورانت ، « قصة الحضارة » ، ٢ : ١٩ .

(١٢٨) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ ، ص ١٢٦ .

(١٢٩) جيمس هنري بريستد ، « انتصار الحضارة » نقله الى العربية الدكتور احمد فخري ، ١٩٦٢ ، ص ١٨٠ .

(١٣٠) يرجع الخبراء دور الوركاء الى الحقبة الممتدة من سنة ٣٨٧٠ ق٠م٠ الى سنة ٣٢٠٠ ق٠م٠

(١٣١) يرجع الآثاريون دور جمدة نصر الى الفترة الممتدة من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٠٠٠ ق.م.

(١٣٢) انطون مورتكات ، مرجع سابق ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

(١٣٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ ــ ٥١ .

(١٣٤) J.G. Macqeen, "Babylon", London, 1964, p. 38.

(١٣٥) الفقرة ١٥ من كتاب ويلكوكس « من جنة عدن الى عبور نهر الاردن » نقله الى العربية الدكتور احمد سوسه ومحمد الهاشمي ، ص ٦١ .

(١٣٦) دي لابورت « بلاد ما بين النهرين » ، ص ١٢٩ .

(١٣٧) Musil, "The Middle Euphrates", p. 259.

(١٣٨) الكور نوع من المكاييل السومرية ويقابل عندنا الفرقة ويعادل حوالي ١٨٠ حقة . اما الايكو فهو من مقاييس المساحات البابلية ويعادل ⅞ من الفدان .

(١٣٩) سجل حمورابي هذه الشريعة على مسلة من حجر الديوريت الاسود ، طولها ٢٢٥ سنتمترا وقطرها ٦٠ سنتمترا ، وهي في البلاد البابلية. وقد عثر عليها الآثاري الفرنسي «دى مورغان»
في البلاد البابلية . وقد عثر الآثاري الفرنسي « دى مورغان »
وتقع هذه القوانين في اربعة واربعين حقلا ، كتبت باللغة البابلية (السامية) وبالخط المسماري الاكدي . ويظهر فيها ٢٨٢ مادة ومن المرجح انها كانت تزيد على ٣٠٠ مادة بقليل . وفي قسم المسلة الاعلى يظهر نحت بارز يمثل حمورابي وهو يتسلم الشريعة من الاله شماش اله الشمس وهو جالس على عرشه . ويغلب على الظن ان امر افل (ملك شنعار) الوارد في العهد القديم في العدد الاول الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين هو حمورابي نفسه (راجع نشرة قوانين حمورابي ، ترجمة وتعليق الدكتور محمود الامين نشرت في مجلة كلية الاداب لشهر كانون الثاني ١٩٦١ ونشرت ايضا في مستل مستقبل) .

(١٤٠) جيمس بريستد « انتصار الحضارة » ترجمة الدكتور احمد فخري .

(١٤١) يقول الاب انستاس الكرملي (مجلة لغة العرب ٢ : ٥٧٨) ان مؤسس الدولة الكلدانية شيخ عربي ينتمي الى القبائل العربية اسمه كلده .

(١٤٢) يرجع زمن سلالة القطر البحري الاولى الى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان عدد ملوكها المعروفين احد عشر ملكا حكموا ٣٦٨ سنة ، ثم ظهرت سلالة القطر البحري الثاني كان عدد ملوكها ثلاثة حكموا ٢١ سنة ١٠٢٤ ـ ١٠٠٤ ق.م.

(١٤٣) يلاحظ ان توينبي المؤرخ المشهور هو الآخر يعتبر السومرية هي حضارة وادي الرافدين اذ يقول ان هناك اعظم حضارتين اصالة واوغلها في القدم هي الحضارة المصرية والحضارة السومرية ولاشك في أن توينبي يعتمد في قوله هذا على خبراء الآثار واكثرهم مندفعون مع تيار التزمت ضد السامية والعرب .

(١٤٤) K. A. Witfogel op. cit.

(١٤٥) الدكتور حسين مونس ، « تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس » مدريد ، ١٩٦٧ ، ص ٩٥ .

(١٤٦) حسين سري بك « علم الري » القاهرة ١٩٣٣ ، الجزء الاول.

(١٤٧) K. A. Witfogel op. cit.

(١٤٨) انظر كتاب ولكوكس ، « من جنة عدن الى عبور نهر الاردن » ترجمة الدكتور احمد سوسه ومحمد الهاشمي . مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٤٣ ، ص ١٧ .

(١٤٩) تقرير عن ري العراق مقدمة عن مستقبل العراق ، بقلم سير ويليام ويلكوكس عنيت بتعريبه ونشره مديرية الري العامة ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٧ ، ص ٤ ـ ٥ .

(١٥٠) انظر ما تقدم في الفقرة ٦ (ازدهار حضارة العرب في اقدم مراحل تطورها) .

(١٥١) الدكتور حسن ظاظا « الساميون ولغاتهم » ص ١٥ .

(١٥٢) اخترع السومريون اصول الكتابة في النصف الثاني من الالف الرابعة قبل الميلاد . وقد سميت هذه الحقبة الحضارية من تاريخ العراق القديم بروتولزايت او عصر بدء الكتابة وذلك لما يرمز اليه ظهور بوادر الكتابة من اهمية بالغة في تقدم الحضارة . وقد بدات الكتابة على هيئة صور بسيطة ، ثم تقدم فن الكتابة فانتقل من طور الصور الى رموز وعلامات صارت بعد ذلك مقاطع ذات قيم صوتية مؤلفة من اسافين أو خطوط اسفينية عند طبعها على الواح الطين أو حفرها في الحجر ، ولما كانت هذه الخطوط تشبه المسامير شكلا فقد سميت بالكتابة المسمارية ، ثم تكاملت الجملة الكاملة بادخال الصيغة الفعلية فسهل التدوين بها . وقد انتشر استعمال الكتابة المسمارية في العصور التالية في الشرق الادنى ، حيث استعملت للتعبير فيها عن اللغات المختلفة كالاكدية والبابلية والفينيقية والآشورية ثم الفارسية القديمة .

ومن المعلوم ان اختراع الكتابة في بلاد سومر كان عاملا مهما في التقريب بين الناس المتباعدين فسهل وسيلة الجمع والتعاون بين الاقوام بمبادلة الرسائل والكتب . ولاشك في ان الحضارة التي ازدهرت في بلاد سومر لم تتكون وتزدهر لولا توافر الكتابة . قد أكد العلماء اهمية الدور الذي لعبته الكتابة في تقدم الحضارة السومرية ، فقال العالم ديورانت « ان تطور الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقا » . انظر : « قصة الحضارة » ج٢ ، ص ٣٤ .

(١٥٣) انظر ما تقدم في الفقرات ١٣ — ١٨ .

(١٥٤) لقد اختلفت الاراء في تعيين تاريخ هذه الحروف ، فبعضهم حدده في التاريخ المذكور اعلاه ، غير ان البعض الاخر يرى ان تاريخ هذه الحروف لا يتعدى النصف الثاني من الالف الثانية قبل الميلاد .

(١٥٥) Diringer, "Writing", p. 120.

(١٥٦) كان الكنعانيون من اقدم الاقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب وقد توجهت الى ارض فلسطين في النصف الاول من الالف الثالثة قبل الميلاد حسب اوثق التقديرات وارجع البعض سكنى الكنعانيين في فلسطين الى ما قبل ذلك بزمن بعيد ، اذ توصل الاثاريون الذين نقبوا في بعض المدن الكنعانية القديمة ان بعض هذه المدن مثل اريحا يرجع الى ماقبل سبعة آلاف سنة . وقد توصل الآثاريون الى ان أقدم المعابد الكنعانية كانت تقع في اريحا وفي مجدو وهي ترجع الى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد. ومما لاشك فيه ان الكنعانيين الذين استقروا في أرض فلسطين اسسوا أقدم حضارة عربية سامية في فلسطين . وكانت لغتهم في الاصل اللغة العربية الام التي كان يتكلم بها اهل الجزيرة قبل هجرتهم الى الهلال الخصيب . وترجع الحضارة الكنعانية الى عصور واغلة في القدم ، فمنذ العصر الحجري الحديث النيوليثي (٧٠٠٠ — ٥٠٠٠ ق.م.) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن ، فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطرى ، ثم اهتدوا الى الجمع بين النحاس والقصدير في انتاج البرونز، وبذلك كانوا السباقين في صناعة التعدين مما اعطاهم أدوات واسلحة فتاكة ومن المحتمل ان الكنعانيين اخذوا بصناعة الحديد من الاقوام المجاورة لهم . وقد اشتهر الكنعانيون بما ابتكروه من وسائل الدفاع عن مدنهم ، ومن الوسائل التي برعوا فيها انشاء القلاع والحصون وما يرافقها من تحصينات دفاعية . وقد ازدهرت التجارة على يد الكنعانيين الذين مارسوها بكفاءة تامة . والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة واهتدوا الى عمل الزجاج .

(١٥٧) « تاريخ اللغات السامية » ص ٩٩ .

(١٥٨) « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(١٥٩) انظر : « اديان العرب قبل الاسلام » مجلة العربي ، العدد ١٦٨ (تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ٤٤ — ٤٩) .

(١٦٠) ولفنسون « تاريخ اليهود في بلاد العرب » ، ص ٧٨ — ٨٠ .

(١٦٠أ) الدكتور جواد علي « اصنام العرب » ، سومر م ٢٢ (١٩٦٧) ص ٣ — ٤٦) .

(١٦١) C.F.A. Schaffer, "The Cuniform Texts of Ugarit", London 1939, p. 59—72.

(١٦٢) سومر ، م ١٩ ، ١٩٦٣ ، ص ١١٣ .

(١٦٣) Olmstead, "History of Palestine and Syria", 1931, p. 106.

(١٦٤) يقصد هنا بالنقوش الصفوية الكتابات التي تعد هي واللحيانية والثمودية من اقدم الخطوط السامية في جنوبي الجزيرة العربية وقد اندثرت قبل الاسلام . وقد عثر على كتابات صفوية في منطقة الصفاة شرقي الشام وفي بادية الشام ايضا فسميت باسمها ، وهذا الاسم لا يطلق على قوم او قبيلة وانما يطلق على تلك النقوش التي عثر عليها في ناحية الصفاة (انظر كتاب رينيه ديسو) « العرب في سورية قبل الاسلام » ترجمة عبدالحميد الدواخلي والدكتور محمد مصطفى زيادة (١٩٥٩) ، ص ٥٥ — ١٦٣ .

(١٦٥) آفاق عربية ، عدد آذار ، ١٩٧٨ ، ص ٤ — ٥ .

(١٦٦) الدكتور احمد سوسه « مفصل العرب واليهود في التاريخ » ص ٥٢٣ .

(١٦٧) يوسف الحوراني « نظرية التكوين الفينيقية » ، ص ٦٧ .

(١٦٨) ولفنسون « تاريخ اللغات السامية » ، ص ٥٣ .

(١٦٩) الدكتور احمد فخري ، « دراسات في تاريخ الشرق القديم » ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(١٧٠) دكتور حسن ظاظا « الساميون ولغاتهم » ، ١٩٧١ ، ص ١٥ .

(١٧١) ان هؤلاء الصفويين هم غير الصفويين الذين ينتمون الى الدولة الصفوية التي تولت مقاليد الحكم في ايران في اوائل

القرن السادس عشر الميلادي وحكمت من سنة ١٥٠٤ الى سنة ١٧٣٦م . وتنسب هذه الدولة الى الشيخ صفي الدين الذي كان أحد رجال الدين من ذوي المكانة في اردبيل ، وكان أول ملوكها الشاه اسماعيل السليل السادس للشيخ صفي الدين ، وبلغت ايران في عهده درجة لم تبلغها منذ ايام الساسانيين . واتخذت هذه الدولة مذهب الشيعة الاثني عشري مذهبا رسميا للدولة ، وظل سائدا فيها حتى اليوم (انظر كتاب « تاريخ الادب الفارسي » لادوارد برون ، ج ٤) .

(١٧٢) رينيه ديسو ، « العرب في سورية » ترجمة عبدالحميد الدواخلي ، ١٩٥٩ .

(١٧٣) الدكتور جواد علي « مفصل تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ٣ : ١٤٤ .

(١٧٤) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(١٧٥) رينيه ديسو ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(١٧٦) الدكتور جواد علي « مفصل تاريخ العرب » ٣ : ١٥٢ .

(١٧٧) يوجد لدى مديرية الآثار العامة ببغداد سبعة عشر نصا صفويا جاءت الى المتحف العراقي في فترات مختلفة نشرها في عام ١٩٥٠ الاستاذ هاردنك (راجع سومر م ٦ (١٩٥٠) ص ١٢٤) . وفي سنة ١٩٥٧ عثر على كتابة صفوية من صحراء الرطبة . وهذه الكتابة منقوشة على حجر من الصوان وجدت في منطقة محطة (اج ثري) . وفحوى هذا النص ان شخصا اسمه « مارد بن محارب » قد قضى الشتاء في مكان يعرف باسم « عرال » وهو اسم المنطقة التي وجد النص فيها . وذلك في السنة التي توفى فيها عباده الذي ينبغي ان يكون شخصا مشهورا بحيث كان موته حدثا مهما يؤرخ به ويرجح انه أحد ملوك النبط في البتراء (« كتابة صفوية من صحراء الرطبة » بقلم عادل ناجي نشر في سومر م ١٨ (١٩٦٣) ص ١٦٥ ـ ١٧٠) .

(١٧٨) الحرة هي مجموعة بركانية محاطة بمقذوفاتها البركانية . كتلا وأحجار بركانية يسميها العرب « الحرة » وجمعها « حرار » أو حرات . والحرة كما يقول ياقوت (٢ : ٢٤٧) ارض ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت بالنار . ويضيف الى ذلك قوله : « ان بلاد العرب بها كثير من الحرات وخاصة بين المدينة ودمشق » .

(١٧٩) يذكر الطبري ان وفاة امرىء القيس كانت على عهد سابور أي سابور ذي الاكتاف (٣١٠ — ٣٧٩ م) وانه كان عامل سابور على ضاحية مضر وربيعة (الطبري ٢ : ٦١) .

(١٨٠) ريني ديسو ، مرجع سابق ، ص ٢٨ — ٣٧ .

(١٨١) « بصرى » مدينة عربية قديمة تقع في الجنوب الشرقي من دمشق في بسيط من الارض في حوران كانت لها مكانة كبيرة في زمن اليونان والرومان فتحها اسكندر المدوني ، كانت اشبه بتدمر في عمرانها ، ثم فتحها خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ ، ولا تزال اطلال قصورها ومعابدها وهياكلها موجودة حتى يومنا هذا . وتعرف بصرى اليوم باسم « اسكي شام » أي شام القديمة بالتركية .

(١٨٢) « اذرعات » بلد في اطراف الشام مجاور لارض البلقاء وعمان ينسب اليها الخمر وردت في شعر امرىء القيس وبعض الاعراب ، وخرج منها طائفة من أهل العلم منهم اسحق بن ابراهيم الاذرعي أحد رواة الحديث المتوفى سنة ٣٤٤هـ وغيره ممن ذكرهم ياقوت .

(١٨٣) رني ديسو ، مصدر سابق ، ص ٨—٩ ، ٣٧ .

(١٨٤) الدكتور جواد علي « المفصل في تاريخ العرب » ٣ : ١٩٤ .

(١٨٥) ريني ديسو، مصدر سابق ، ص ٣٨ . انظر ايضا : «القصور الاموية في بادية الشام » بقلم شريف يوسف ، نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٢٧ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(١٨٦) رينيه ديسو ، مصدر سابق ، ص ١١١ — ١٣١ .

(١٨٧) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(١٨٨) الدكتور جواد علي « المفصل في تاريخ العرب » ٣ : ١٥٢ .

(١٨٩) المرجع السابق ٦ : ٣٢٢ .

(١٩٠) Muller, "Die Burgen und Schlosser Sudarabiens nach dem Iklil des Hamadani, 88.

(١٩١) ياقوت ، ج ٣ : ٢٤٩ .

(١٩٢) مجلة آفاق عربية ، العدد ٢ تشرين الاول ١٩٧٨ ، ص ٨٦ .

(١٩٣) الدكتور جواد علي ، « المفصل في تاريخ العرب » ، ١ : ٢١١ .

(١٩٤) آفاق عربية السنة الرابعة ، العدد ٢ تشرين الاول ١٩٧٨ ، ص ٨٨ .

(١٩٥) المرجع السابق ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٩٦) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(١٩٧) كانت عاصمة السبئيين في صرواح من عام ٨٠٠ الى ٦٥٠ ق.م. تعاقب على حكمها ثمانية مكربين (ملوك) سبئيين ، ثم انتقلت العاصمة من صرواح الى مأرب حيث ظلت عاصمة السبئيين فترة حكم فيها ٦٧ ملكا سبئيا تعاقبوا عليها ، أي من تاريخ بناء السد حتى تاريخ خرابه .

(١٩٨) جرجي زيدان « كتاب العرب قبل الاسلام » ، ١٩٠٨ (ج ١ ، ص ١٥١) .

(١٩٩) الدكتور جواد علي ، « المفصل في تاريخ العرب » ، ٢ : ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢٠٠) جرجي زيدان ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ نقلا عن :
Muller, Burg II, 13, 15.

(٢٠١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٢٠٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٢٠٣) انظر كتاب نزيه مؤيد العظم ، « رحلة في بلاد العربية السعيدة » ، الجزء الثاني ، ص ٨٨ – ١٠٤ . انظر ايضا : جرجي زيدان ، « العرب قبل الاسلام » ، ج١ ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ١٤٩ – ١٦٠ ؛ مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٨٤ ، آذار ١٩٧٤ ، ص ٦٦ – ٩٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ٤ : ٣٨٣ . انظر ايضا المراجع الاجنبية :

Arnaud, "Plan de la digue et de la ville de Mareb", Journal Asiatique 7me Serie IV, Paris, 1874; Halevy, "Etudes Sabeenne, Journale Asiatique 7me Serie, I, II, IV, Paris, 1873 —74; Glaser, Der Damme von Marib; Muller, Die Burgen und Schlosser sudarabiens nach dem Iklil des Hamadani, 2 heft Wien 1881.

(٢٠٤) مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٣٧ ، اغسطس (آب) ١٩٧٨ ، ص ٩ .

(٢٠٥) ارنولد توينبي « الوحدة العربية آتية » ، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٨ .

(٢٠٦) المرجع السابق .

(٢٠٧) شبنجلر (كاتب الماني) كان يعمل حتى عام ١٩١٠ مدرسا في ساربروكن ودوسلدروف وهامبورغ دون ان يكون لديه شهادة اختصاص اكاديمي ، وما ان انتهى عام ١٩١٨ الا وظهر كتاب ضخم في مكتبات المانيا يحمل عنوانا مثيرا « تدهور الغرب » ولم يلاحظه القراء في بادىء الامر ثم اكتشف الناس اهمية الكتاب الذي يضم لاول مرة محاولة لتقرير ما سيحدث في تاريخ المستقبل ومحاولة لمتابعة مراحل لم تحدث بعد من مصير حضارة الغرب . ولعل هذا هو السبب الذ يجعل الناس ترغب في الاطلاع على ما تضمنه الكتاب من آراء فارتفع عدد النسخ المباعة منه حتى طبع عدة مرات ، ولم تمض عشر سنوات حتى بيعت من الكتاب مائة الف نسخة وكانت طريقة شبنجلر تعتمد على مقارنة

الحضارات كما كان يعتقد بأن التاريخ يمكن ان يكون علما كعلم الاحياء والفيزياء (انظر سقوط الحضارة لمؤلفه كولن ويلسون ، ترجمة انيس زكي حسن بيروت ، ١٩٧١ ص ١٢٦ - ١٤٢) .

(٢٠٨) « سقوط الحضارة » مصدر سابق ، ص ١٤٤ .

(٢٠٩) المرجع السابق ، ص ١٤٦ - ١٦٨ .

(٢١٠) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٢١١) المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٢١٢) جريدة الثورة ليوم ١٩٧٧/١٠/٢٦ (الصفحة الثقافية) .

(٢١٣) مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٣٧ ، اغسطس (آب) ١٩٧٨ ، ص ١٢ - ١٣ .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
١٤ــ حضارة العرب تنتقل في مرحلتها الثانية من جزيرة العرب وتستقر في وادي الرافدين وتؤسس حضارتها الكبرى فيه	١٣١ــ١٣٤
١٥ــ اول امبراطورية عربية تؤسس في وادي الرافدين ــ الدولة الاكدية (٢٣٥٠ــ٢١٥٩ ق٠م٠)	١٣٥ــ١٣٨
١٦ــ المملكة البابلية الاولى (١٨٩٤ــ١٥٩٤ ق٠م٠)	١٣٩ــ١٥١
شريعة حمورابي	١٤٩ــ١٥١
١٧ــ الامبراطورية الاشورية (١٥٩٥ــ٦١٢ ق٠م٠)	١٥٣ــ١٥٨
١٨ــ المملكة البابلية الثانية او الدولة الكلدانية (٦٢٦ــ ٥٣٩ ق٠م٠)	١٥٩ــ١٦٢
١٩ــ حضارة وادي الرافدين ــ حضارة سامية ام سومرية ؟	١٦٣ــ١٧١
٢٠ــ حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل	١٧٣ــ١٧٨
٢١ــ حضارة العرب في مرحلتها الثانية ودورها في تقدم المدينة وازدهارها	١٧٩ــ١٩١
أ ــ اختراع العرب للحروف الهجائية (الابجدية)	١٨٠ــ١٨٢
ب ــ ابتداع العرب لعقيدة التوحيد (عبادة الاله الواحد)	١٨٣ــ١٩١
٢٢ــ حضارة العرب في مرحلتها الثالثة في جنوبي جزيرة العرب	١٩٢
أ ــ مملكة معين	١٩٥ــ١٩٦
ب ــ مملكة قطبان	١٩٦ــ١٩٧
ج ــ مملكة اوسان	١٩٧ــ١٩٨
د ــ مملكة حضرموت	١٩٨ــ١٩٩
هـ ــ مملكة سبأ	١٩٩ــ٢٠٠

الموضـــــوع	الصفحـة
و ـ العصر الحريري	٢٠١ـ٢٠٣
ز ـ الحميرون	٢٠٣ـ٢١٢
٢٣ـ حضارة اليمن	٢١٣ـ٢٣٠
سد مأرب او سد العرم	٢٢١ـ٢٣٠
٢٤ـ سقوط حضارة اليمن	٢٣١ـ٢٣٤
٢٥ـ حضارة العرب وحضارة الغرب	٢٣٥ـ٢٤٤
الهوامش	٢٤٥ـ٢٦٧





فهرس الرسوم

الرسم رقم ٢٢ حدود المملكة البابلية الثانية او الدولة الكلدانية (٦١٢ ـ ٥٣٨ ق٠م٠)

الرسم رقم ٢٣ منظر عام لخرائب مدينة بابل يظهر في الصورة بقايا باب عشتار

الرسم رقم ٢٤ اسد بابل الشهير (انظر الفقرة ١٨) ٠

الرسم رقم ٢٥ نحت بارز من الاجر المطلي بالميناء يمثل اسدا (انظر الفقرة ١٨) ٠

الرسم رقم ٢٦ هذه صورة الجنائن المعلقة البابلية الشهيرة التي انشاها نبوخذ نصر

الرسم رقم ٢٧ عثر على هذا التمثال في سيناء نقشت عليه كتابة كنعانية في شبه احرف

الرسم رقم ٢٨ « ابوالهول » عثر عليه في المعبد المصرى (انظر الفقرة ٢١ أ)

الرسم رقم ٢٩ جدول تطور الابجديات (انظر الفقرة ٢١ أ) ٠

الرسم رقم ٣٠ نموذج من السفن الكنعانية (الفينيقية) ذات المناقر (انظر الفقرة ٢١ أ) ٠

الرسم رقم ٣١ نقش لفتاة كنعانية من مجدو في كنعان (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)

الرسم رقم ٣٢ تمثال من الطين المشوي يمثل فتاتين عربيتين تمتطيان جملا على الهودج

الرسم رقم ٣٣ الملك « معد ايل » سلحان (يصدق ايل) ملك اوسان (انظر الفقرة ٢٢) ٠

الرسم رقم ٣٤ خارطة اليمن (انظر الفقرة ٢٣) ٠

الرسم رقم ٣٥ صهاريج عدن (انظر الفقرة ٢٣)

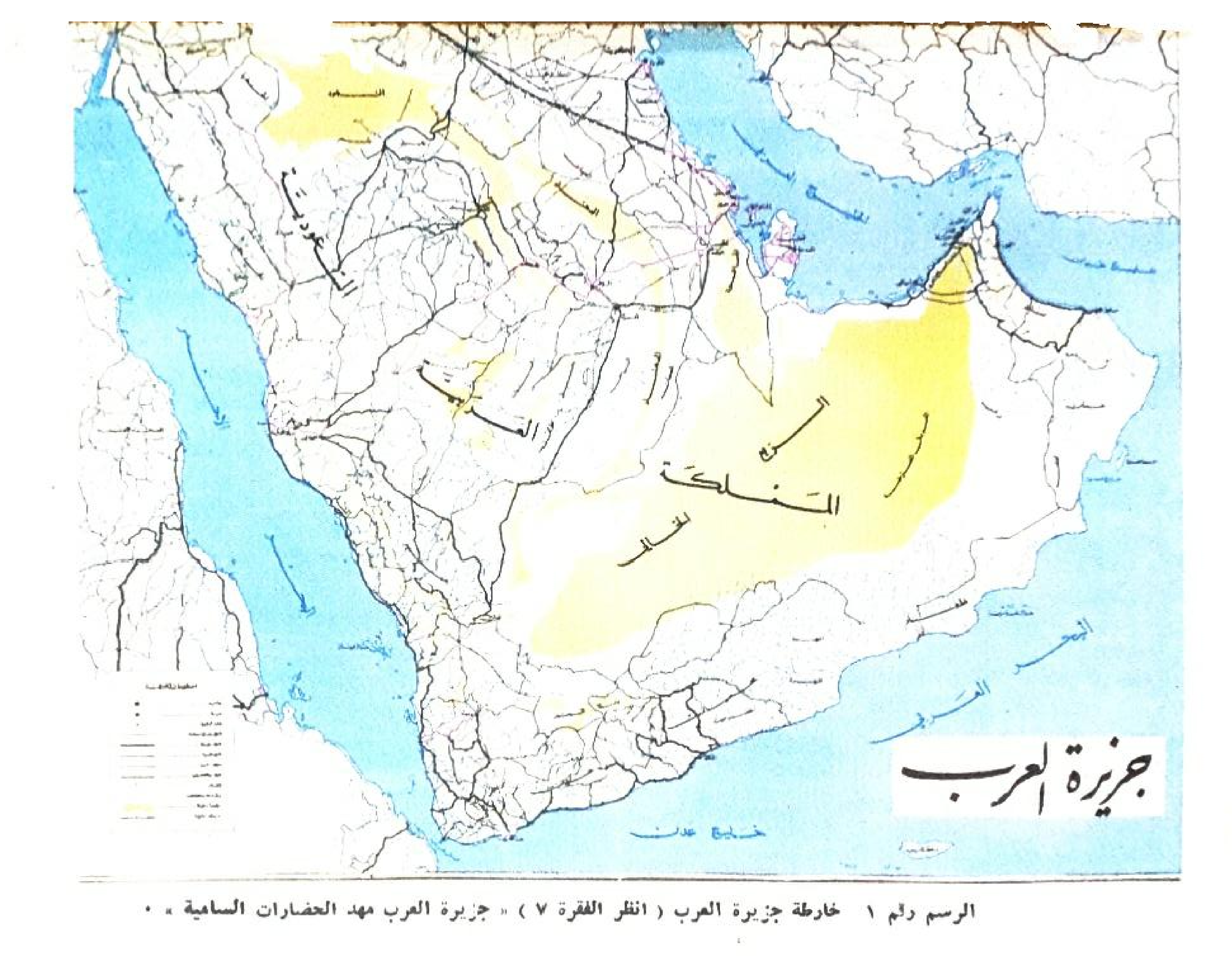
الرسم رقم ٣٦ احد التماثيل البرونزية المكتشفة في مقبرة في « تمنة » (تمنـــع)

الرسم رقم ٣٧ فلاح يمني يحرث الارض (انظر الفقرة ٢٣)

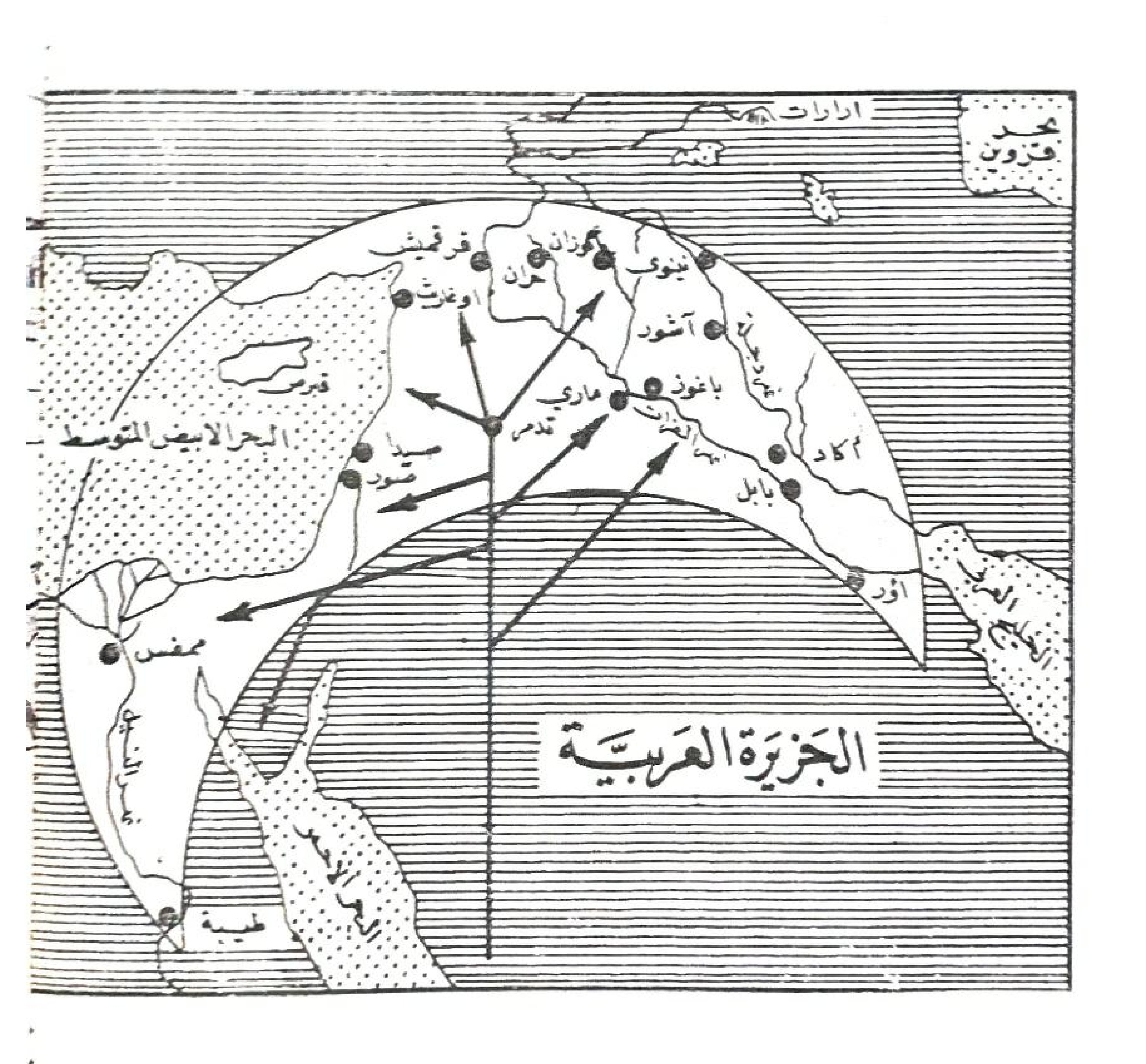
الرسم رقم ٣٨ سد مارب ـ خارطة وادى ذنة وخزان سد العرم (انظر الفقرة ٢٣) ٠

الرسم رقم ٣٩ سد مارب ـ خزان سد العرم ومخارج المياه منه ٠

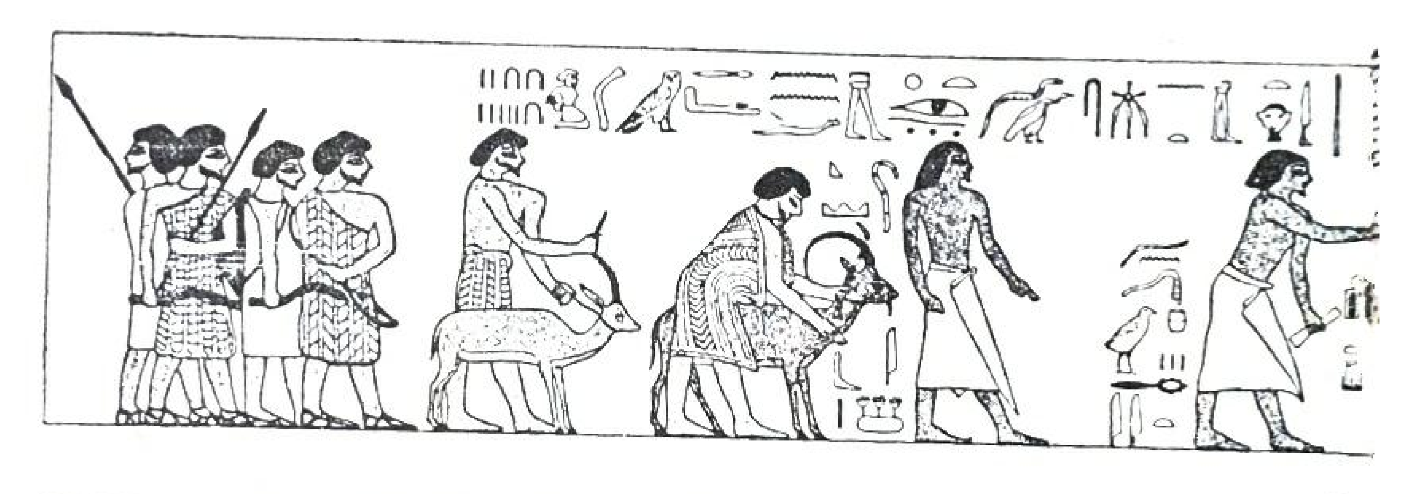
الرسم رقم ٤٠ سد مارب مخارج المياه من السد ٠

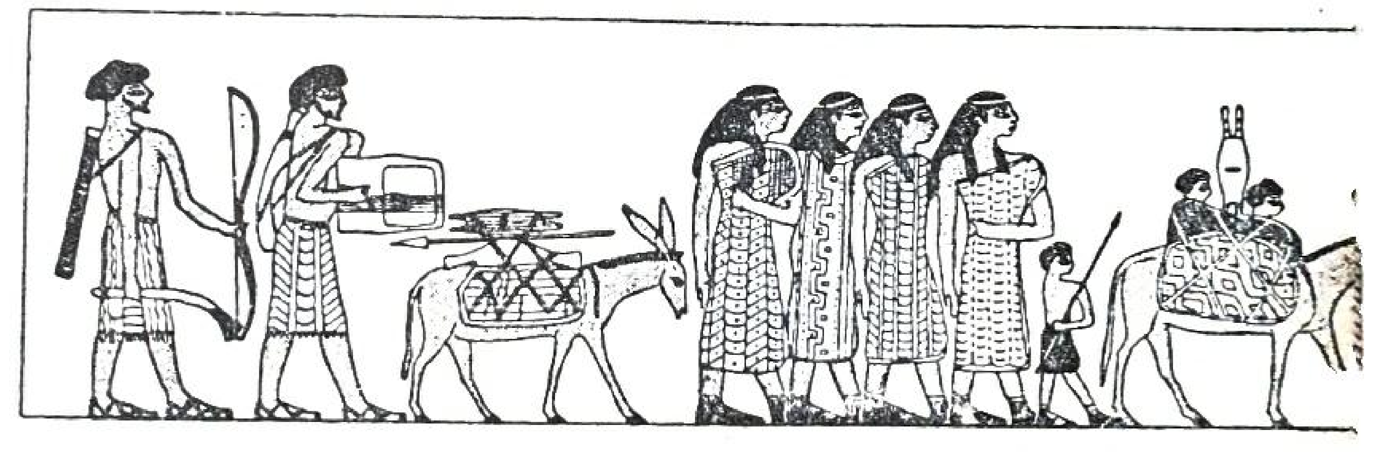


الرسم رقم ١ خارطة جزيرة العرب (انظر الفقرة ٧) « جزيرة العرب مهد الحضارات السامية » .



الرسم رقم ٢ مرتسم الهجرات السامية من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب (انظر الفقرة ٨) « هجرات سكان جزيرة العرب اثر الجفاف الذى حل بها » .



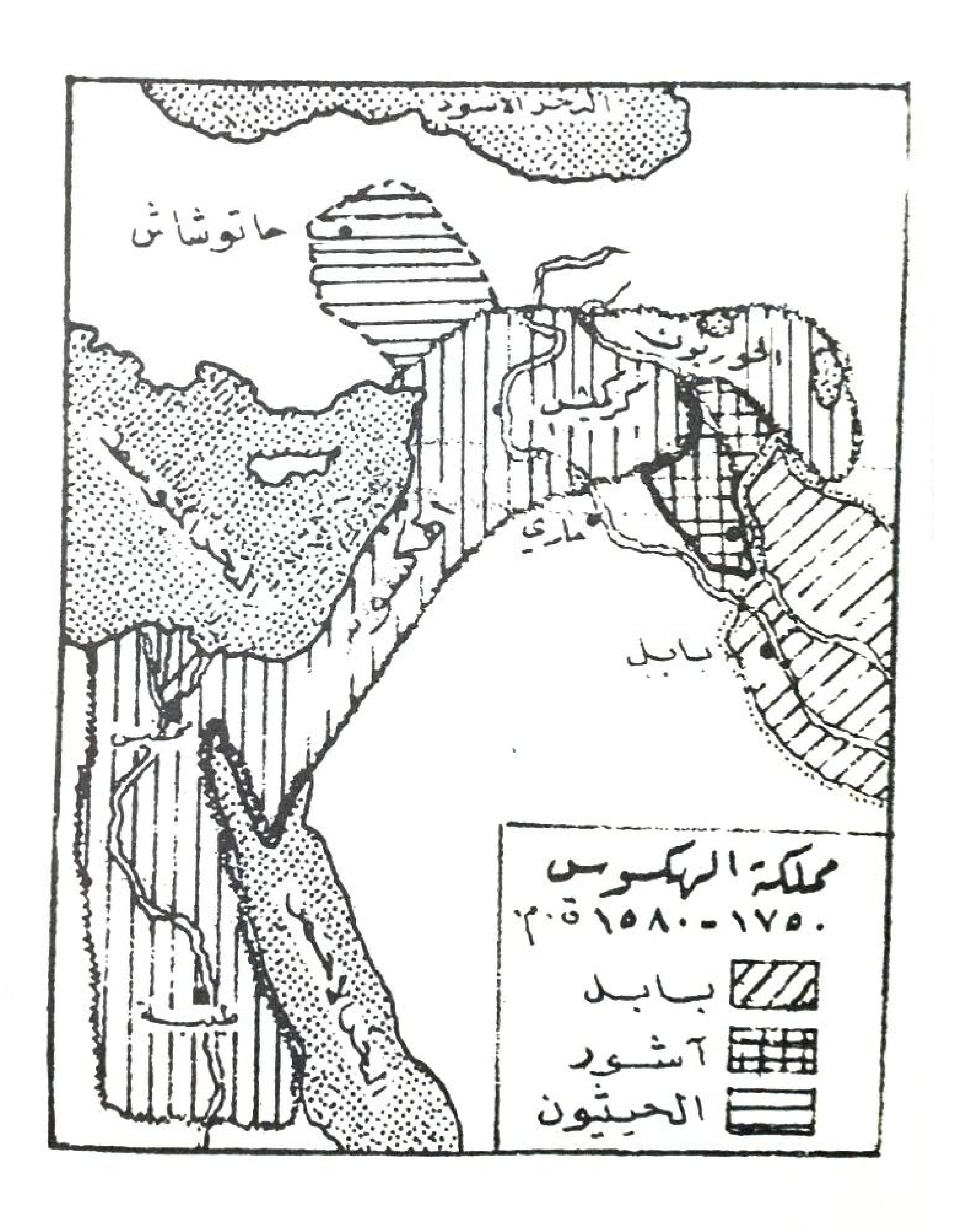


الرسم رقم ٣ نقش مصرى قديم يمثل عائلة عربية نازحة من جزيرة العرب الى وادى النيل ، ويرجح ان العائلة النازحة هي اسرة عربية (عمورية) ، عثر على هذا النقش على جدران الحاكم المصرى « ختوم هوتيب » ويرجع تاريخه الى زمن الفرعون « سيزوستريس الثاني » (حوالى سنة ١٩٠٠ ق ٠ م ٠) ويمثل المنظر رئيس قبيلة عربية (كنعانية او عمورية) اسمه « ابيشاى » ومعه افراد اسرته واتباعه جاؤا نازحين من جزيرة العرب الى مصر (انظر الفقرة ٨)

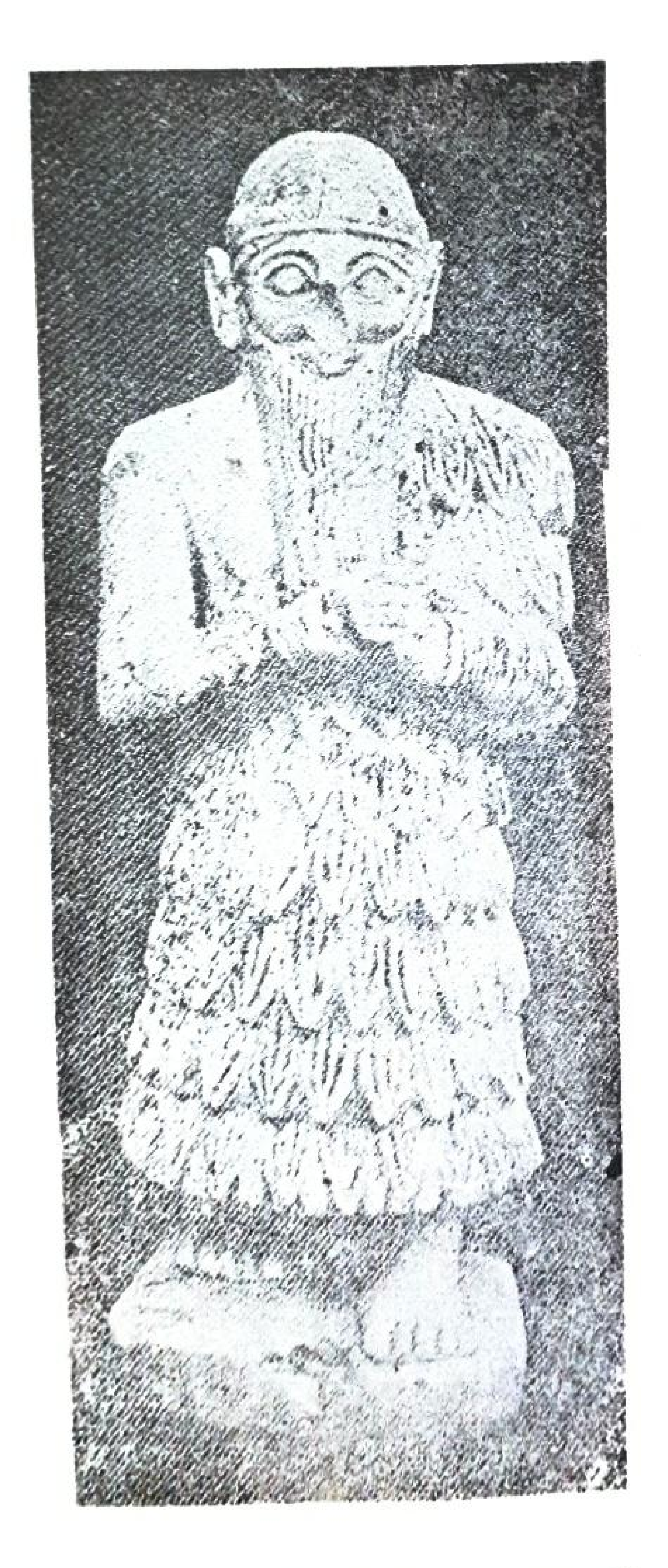


الرسم رقم ٣ ا ملتقى العرب بالنورمان

هذه كتابة عربية كوفية واحدة من عدة كتابات نقشت عل سقف الكنيسة التي بناها بناؤون عرب الى الملك النورماندى رجار الثاني (١١٠١ - ١١٥٤ م) في صقلية وهي مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني . وهذه الكتابة مع انها كوفية الا ان النقوش المتداخلة فيها تجعل من الصعب قراءتها ، وهذا ما تمكنا قراءته من العبارات المتكررة : « مكنا لكم النجاح والنصر ، مكنا لكم العز التالد والسلامة » الخ .. (انظر الفقرة ٨)



الرسم رقم ٤ . مملكة الهكسوس السامية التي حكمت في مصر (١٧٥٠ ــ ١٥٨٠ ق.م.)
(انظر الفقرة ٨)



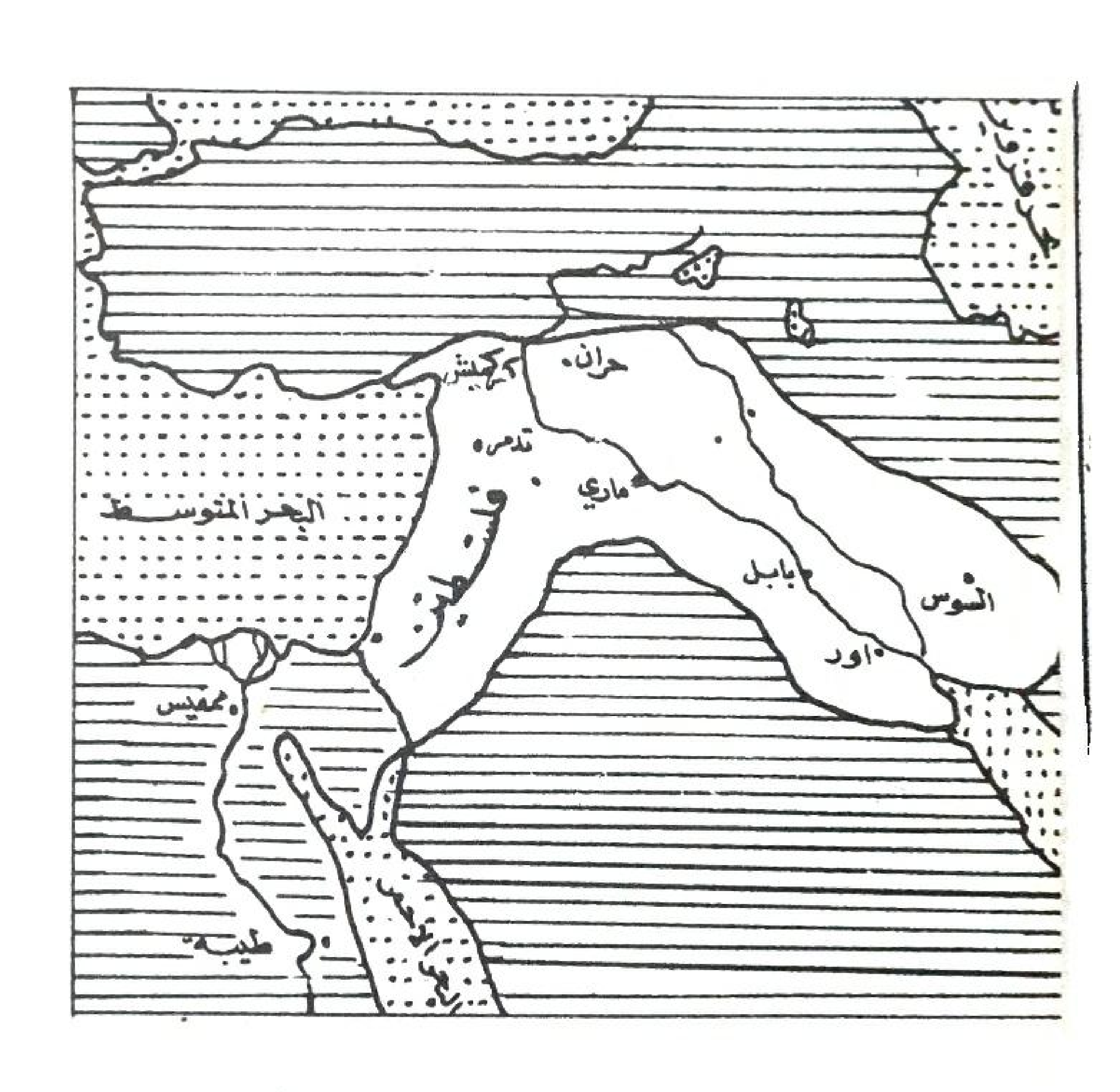
الرسم رقم ٥ الملك لانكي مارى ملك ماري العمورية (حوالي سنـة ٢٥٠٠ ق٠م٠)
(انظر الفقرتين ٨ و ١٣)



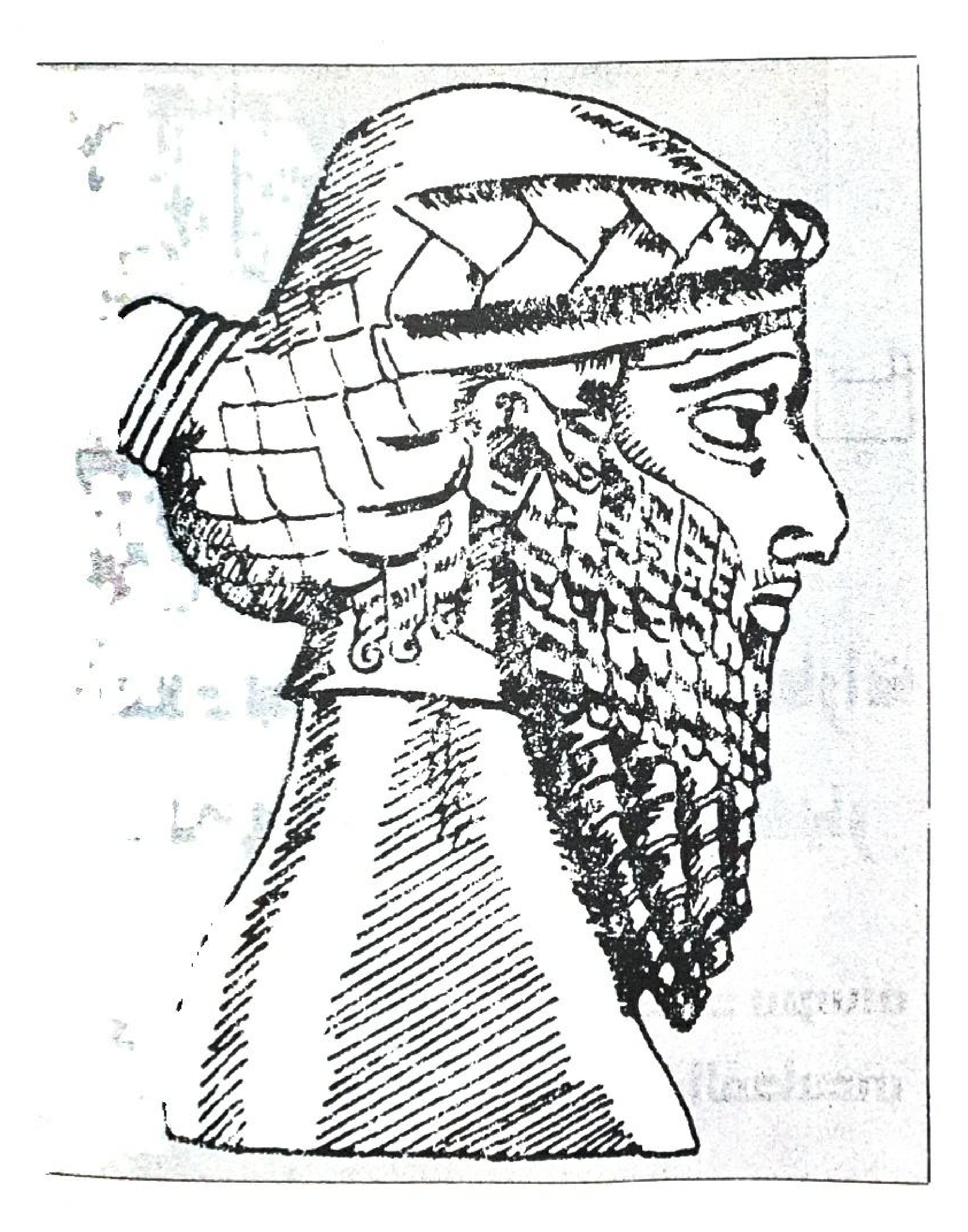
الرسم رقم ٦ الهة المياه والينابيع العمورية من اثار بلدة ماري (منقولة عن المتحف الوطني بدمشق) تشاهد في هذا النقش الالهة وهي مرتدية ثوبا طويلا يستر جسمها ، والثوب مموج يشير الى تموجات الماء ومجرى النهر ، وقد مسكت الالهة بيدها كاسا تنبجس منها المياه رمز الحياة والخصب وعلى راسها عمامة وفي جيدها طوق وفي معصمها سواران (انظر الفقرتين ٨ و ١٣) .



الرسم رقم ٧ الشعار السامي لوادى الرافدين ، دجلة والفرات ، يتالف هذا الشعار من اناء سماه الباحثون « الكاس الفوارة » ، ينبع منه مجريان رئيسان يتكون كل منهما من ثلاثة فروع يعتقد انها تمثل الروافد الرئيسة الثلاثة التي تنصب في كل من نهرى دجلة والفرات ، والشعار سامي الاصل من ابتداع الساميين الذين نزحوا من جزيرة العرب الى وادى الرافدين ، وذلك لارتباط حياتهم المعاشية بنهرى دجلة والفرات وروافدهما ، وهم اول من عرف الروافد التي تنصب بدجلة والفرات لاستقرارهم على ضفافها ، فاستوحوا تصميم شعارهم من البيئة التي كانوا يعيشونها ٠ وكان طبيعيا ان يقدر الساميون الذين دفعتهم الصحراء الى ضفاف نهرى دجلة والفرات اهمية الماء في حياتهم اكثر من مجاوريهم السومريين الذين احاطت بهم المياه من كل صوب ونلاحظ ان السومريين والساميين كانوا يتصورون ان دجلة والفرات ينبعان من منبع واحد (انظر الفقرة ١٤) حضارة العرب تنتقل من جزيرة العرب الى وادى الرافدين » ٠



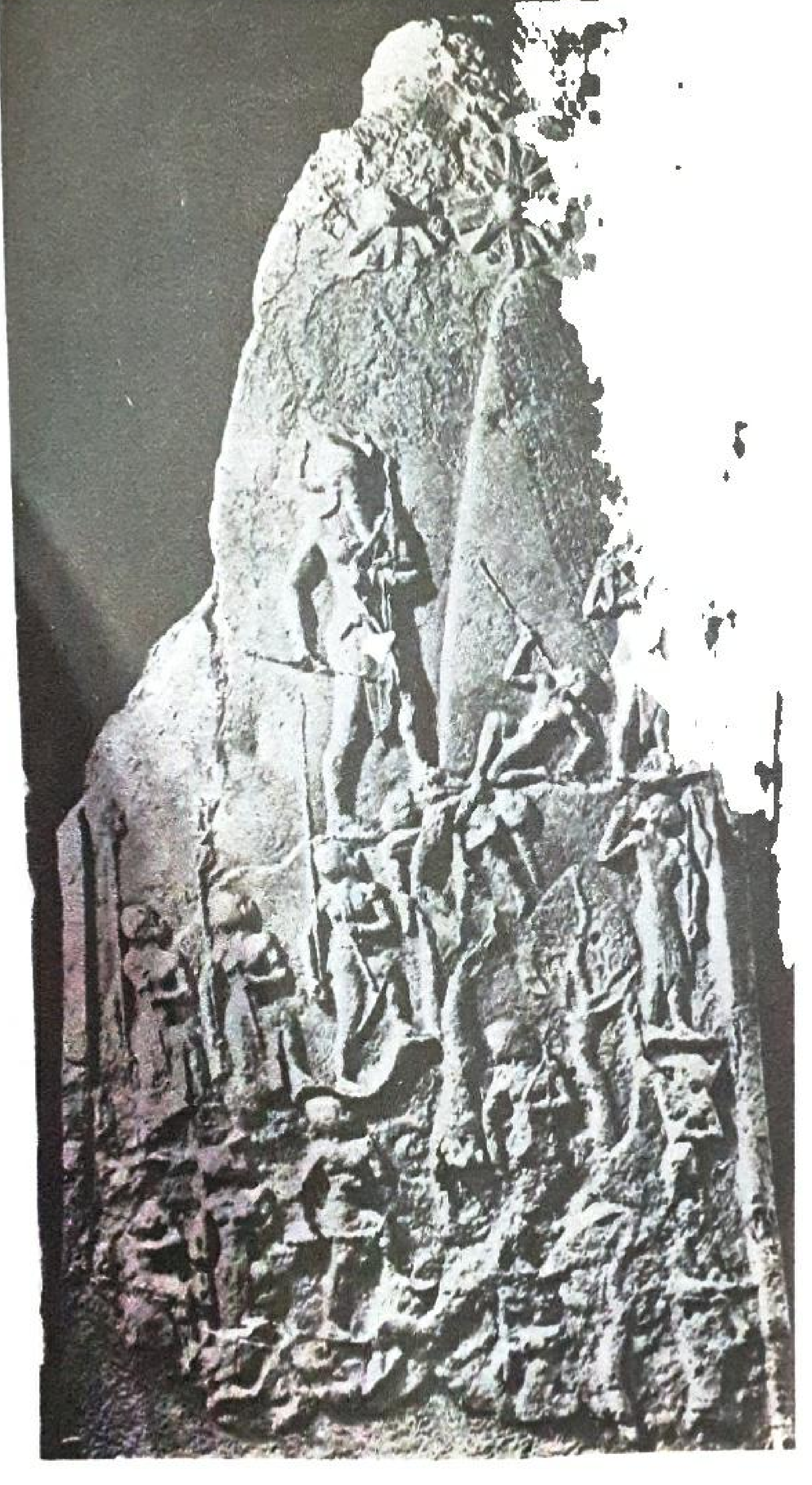
الرسم رقم ٨ حدود اول امبراطورية سامية يؤسسها زعيم عربي في وادى الرافدين — الدولة الاكدية (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق٠م٠) (انظر الفقرة ١٥) « اول امبراطورية سامية يؤسسها زعيم عربي في وادى الرافدين » ٠



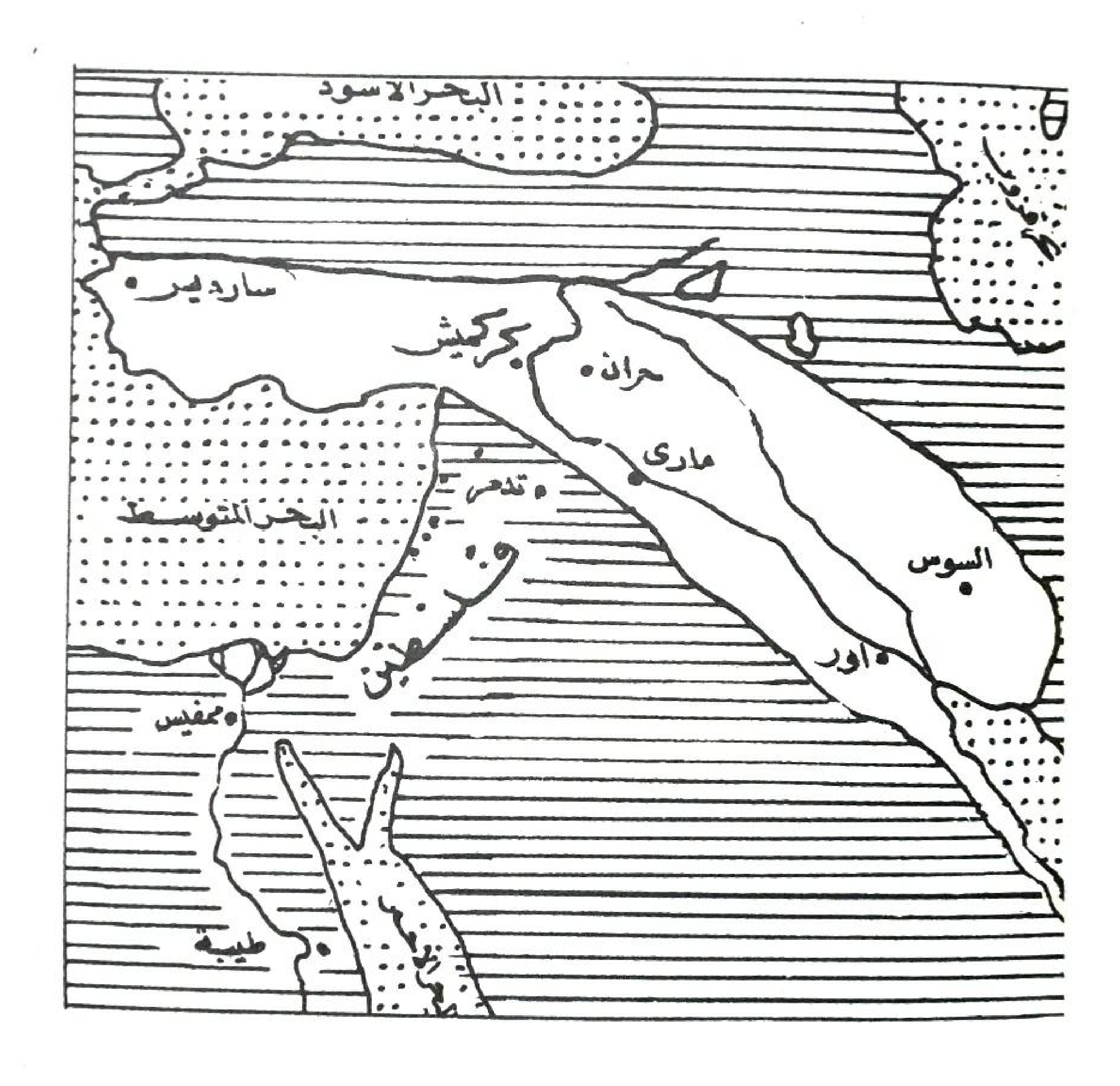
الرسم رقم ٩ تمثال نصفي يعتقد انه لسرجون الكبير مؤسس الامبراطورية الاكدية
(٢٣٤٠ ـ ٢٢٤٨ ق٠م٠) (انظر الفقرة ١٥) ٠



الرسم رقم ١٠ شعار الاكديين وهو يمثل الشمس المشرقة المتكونة من ثلاثة اشعاعات مثلثية مستطيلة وثمانية مجار مثلثة على شكل خطوط متموجة وفي الوسط عين الشمس وهي بؤرة النور المشعة (انظر الفقرة ١٥) .



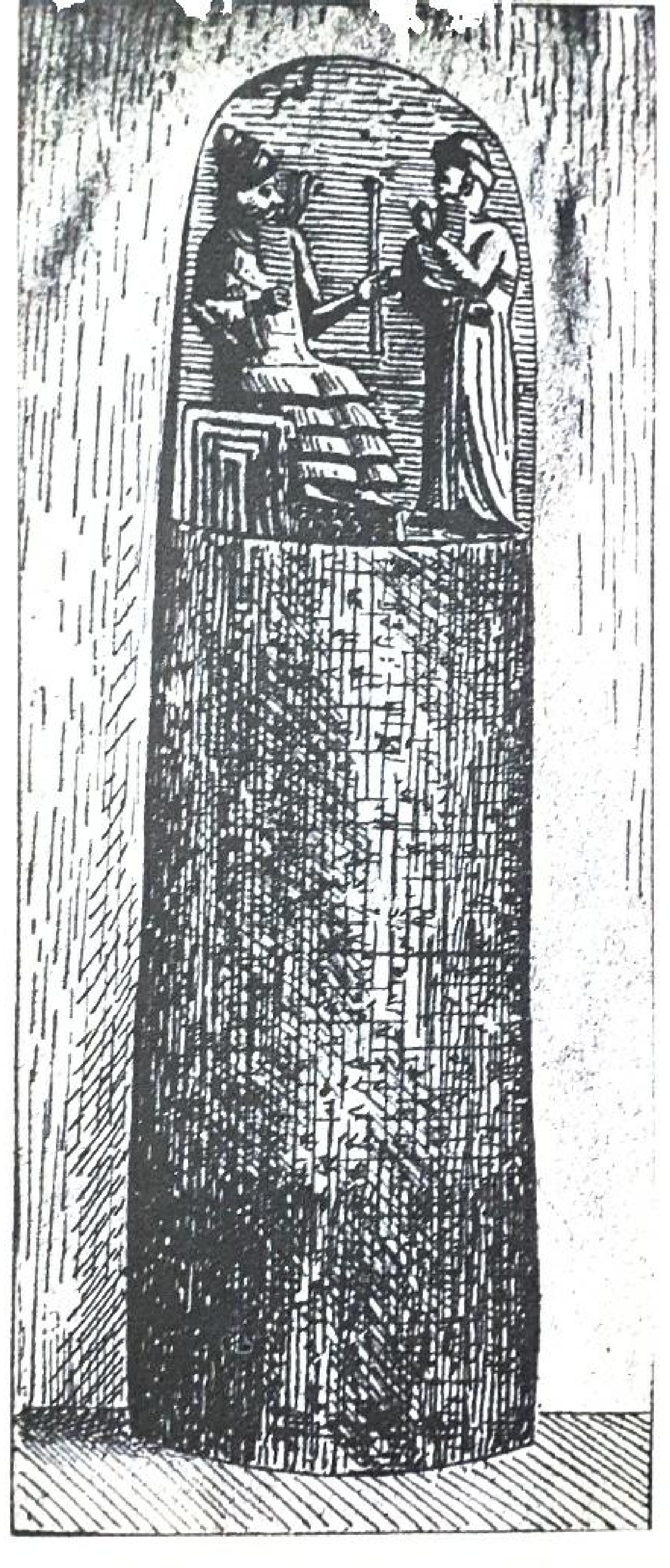
الرسم رقم ١١ لوح نرام سن (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ ق٠م٠) المعروف بلوح الظفر وهـو يمثل نرام سن متسلحا بالقوس والقسي واطئا بقدميه اجسام الملوك الجبارين ممن ظفر بهم من اعدائه ٠ لاحظ في الجانب الاعلى الشعـار الاكدي الذي يرمز الى الاله الشمس (انظر الفقرة ١٥) ٠



الرسم رقم ١٢ حدود المملكة السامية (البابليـة الاولى) (١٨٩٤ ــ ١٥٩٤ ق٠م٠)
(انظر الفقرة ١٦) ٠



الرسم رقم ١٣ تمثال نصفي للملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية واشهر ملوك الامبراطورية البابلية الاولى (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق٠م٠) (انظـــر الفقرة ١٦) ٠



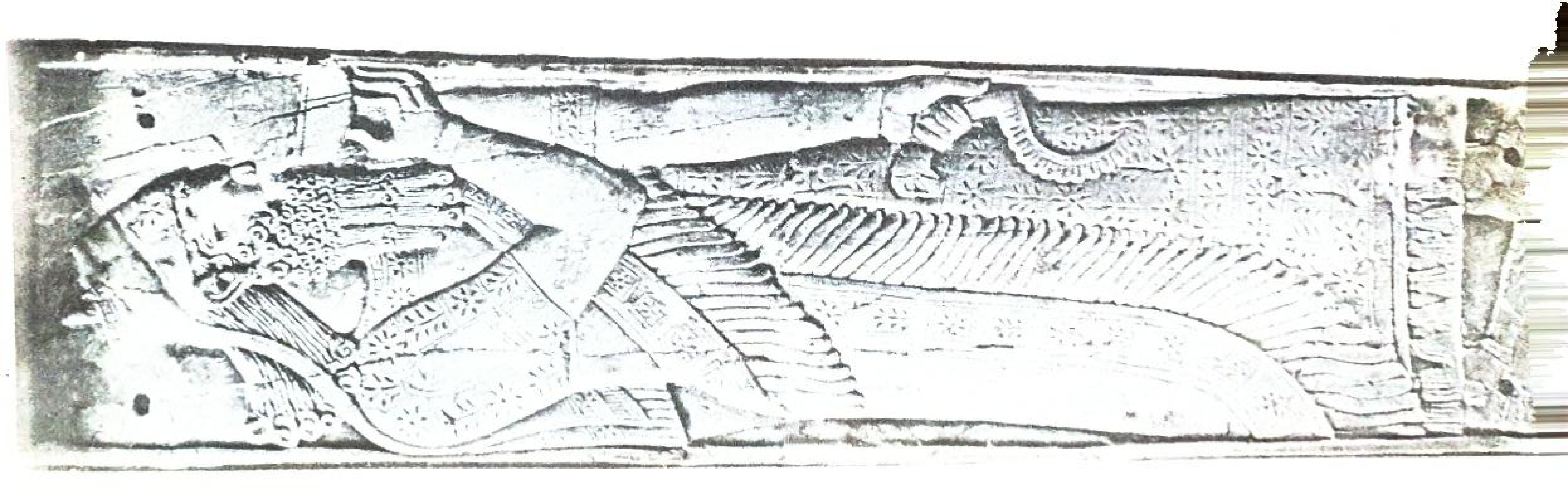
الرسم رقم ١٤ مسلة حمورابي وفيها قوانينه ويظهر في الاعلى الاله شمس يسلم العصا وشريط القياس للملك حمورابي . والمسلة من حجر الديوريت الاسود طولها ٢٢٥ سنتمترا وقطرها ٦٠ سنتمترا وهي اسطوانية الشكل ، وقد وجدت في مدينة السوس عاصمة العيلاميين وهي مكتوبة باللغة البابلية (السامية) والخط المسماري الاكدي . ويشاهد حمورابي مرتديا رداء الكهنة وعلى راسه العمامة وهو لباس الراس عند الساميين الغربيين الذي دخل العراق بدخول الاكديين (انظر الفقرة ١٦) .



الرسم رقم ١٥ حدود الامبراطورية الاشورية في عهد الملك اشوربانيبال (٦٦٩ ـ ٦٢٩ ق.م.) (انظر الفقرة ١٧ الامبراطورية الاشوريـــة ١٥٩٥ ـ ٦١٢ ق.م.) .



الرسم رقم ١٦ مسلة من الرخام كبيرة الحجم للملك الاشوري اداد نيراري الثالث (٨١١ - ٧٨٣ ق٠م٠) نقشت بصورة الملك وهو واقف والى جانبي راسه رموز بعض الالهة وفي القسم الاسفل من المسلة كتابة تذكر اسم الملك والقابه واعماله وفتوحاته ٠ وجدت في تل الرماح (انظر الفقرة ١٧) ٠

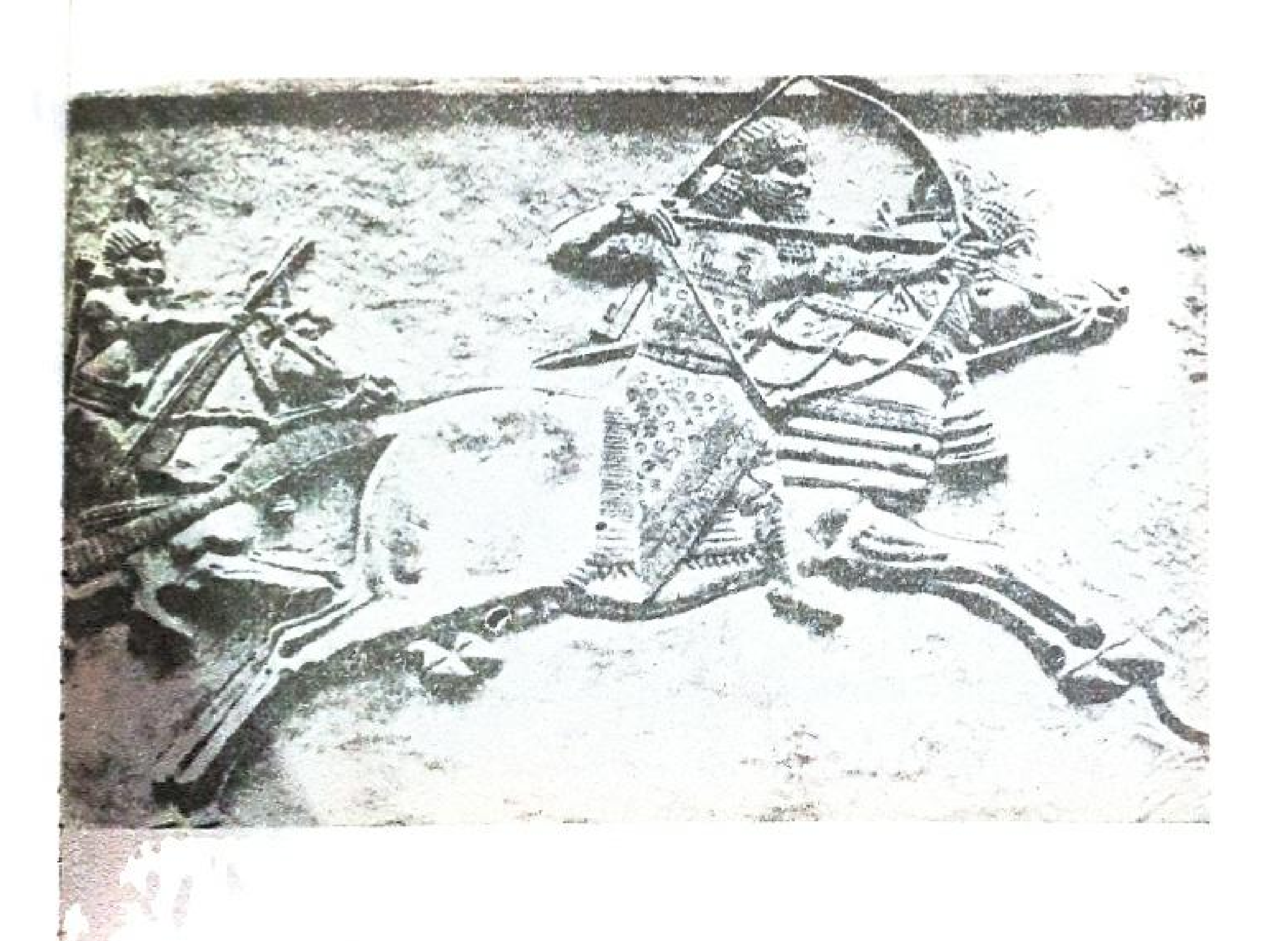


الرسم رقم ١٧ لوح مستطيل من العاج دقيق الصنع يمثل الملك الاشورى اشور ناصربال الثاني (٨٨٤ ـ ٨٥٨ ق.م.) (انظر الفقرة ١٧) .





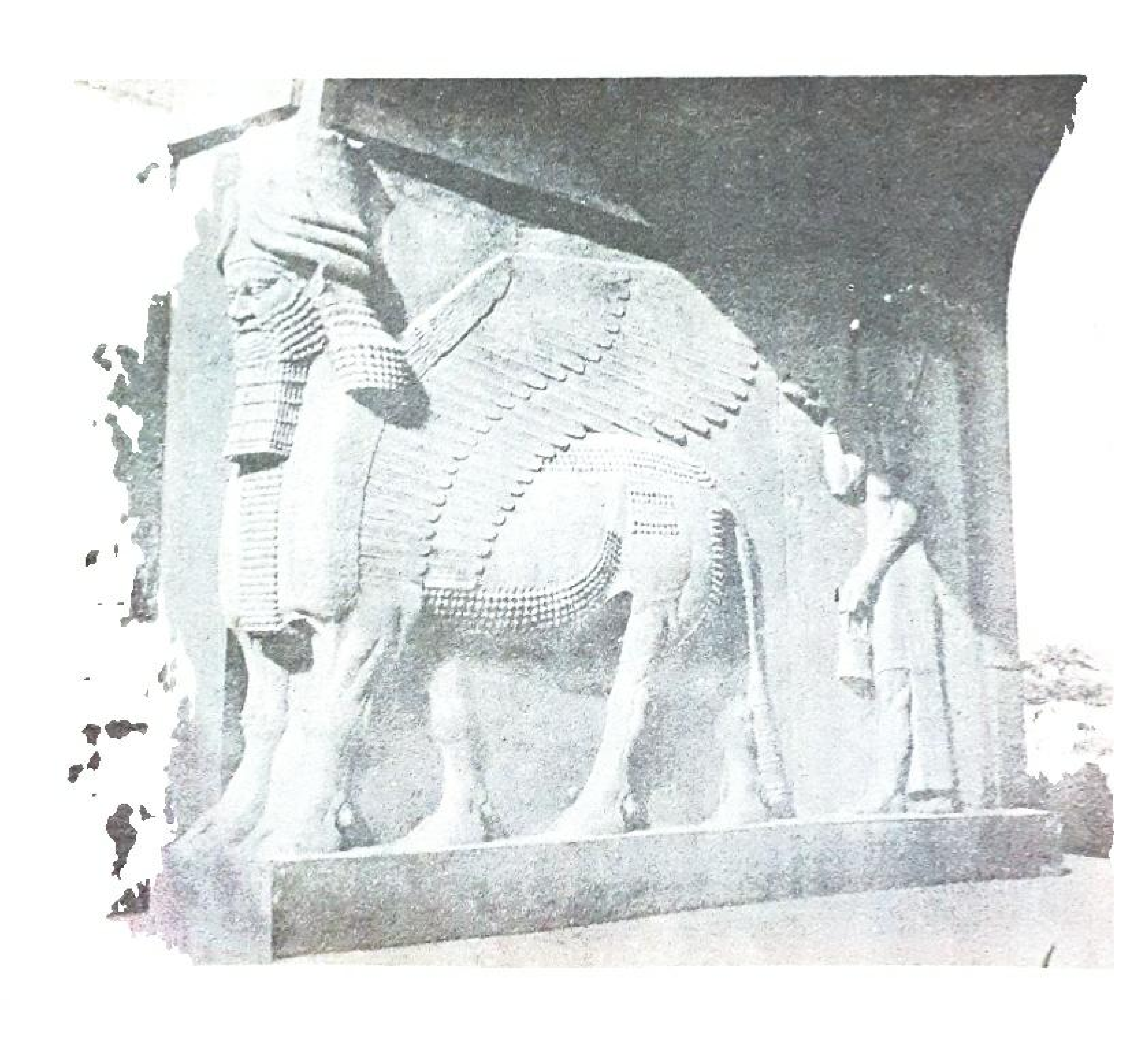
الرسم رقم ١٨ وجه فتاة من العاج دقيق الصنع عثر عليه في خرائب العاصمة الاشورية نمرود (كالح القديمة) (القرن الثامن قبل الميلاد) (انظر الفقـرة ١٧) .



الرسم رقم ١٩ نحت بارز من حجر الموصل الرملي يمثل منظرا من مناظر صيد الاسود في العهد الاشوري ويعود تاريخه الى القرن السابع قبل الميلاد وهو محفوظ في المتحف البريطاني (انظر الفقرة ١٧) .



الرسم رقم ٢٠ لوح من العاج يمثل نحتا بارزا مطعما بالذهب والعقيق واللازورد من نمرود ويرجع تاريخه الى حوالى ٧١٠ ق.م. محفوظ في المتحف العراقي وهو يمثل امراة نوبية تفترسها لبوة (انظرة الفقرة ١٧) .



الرسم رقم ٩١ تمثال ثور مجنح يزين في الوقت الحاضر باب المتحف العراقي ، وقد جلب من قصر سرجون الثاني في عاصمة خورساباد ويقدر زمنه بنحو ٧١٠ ق.م . (انظر الفقرة ١٧) .



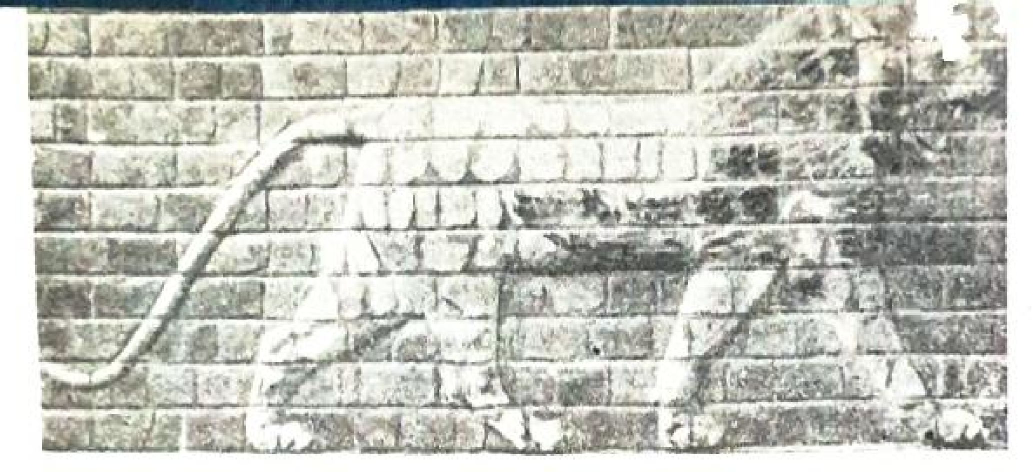
الرسم رقم ٢٢ حدود المملكة البابلية الثانية او الدولة الكلدانية (٦١٢ ـ ٥٣٨ ق.م.)
(انظر الفقرة ١٨) .



الرسم رقم ٢٣ منظر عام لخرائب مدينة بابل يظهر في الصورة بقايا باب عشتار والشارع المقدس (شارع المواكب ويرجع عهده الى نهاية القرن السابع ق٠م٠) (انظر الفقرة ١٨) .



الرسم رقم ٢٤ اسد بابل الشهير الذي وجد في القصر الرئيس لنبوخذ نصر الثانـي (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق٠م) وقد صنع هذا النصب العظيم من (البصلد) الرخام الاسود الصلب ، ويشاهد الاسد وهو واقف فوق رجل مطروح (انظر الفقرة ١٨) ٠



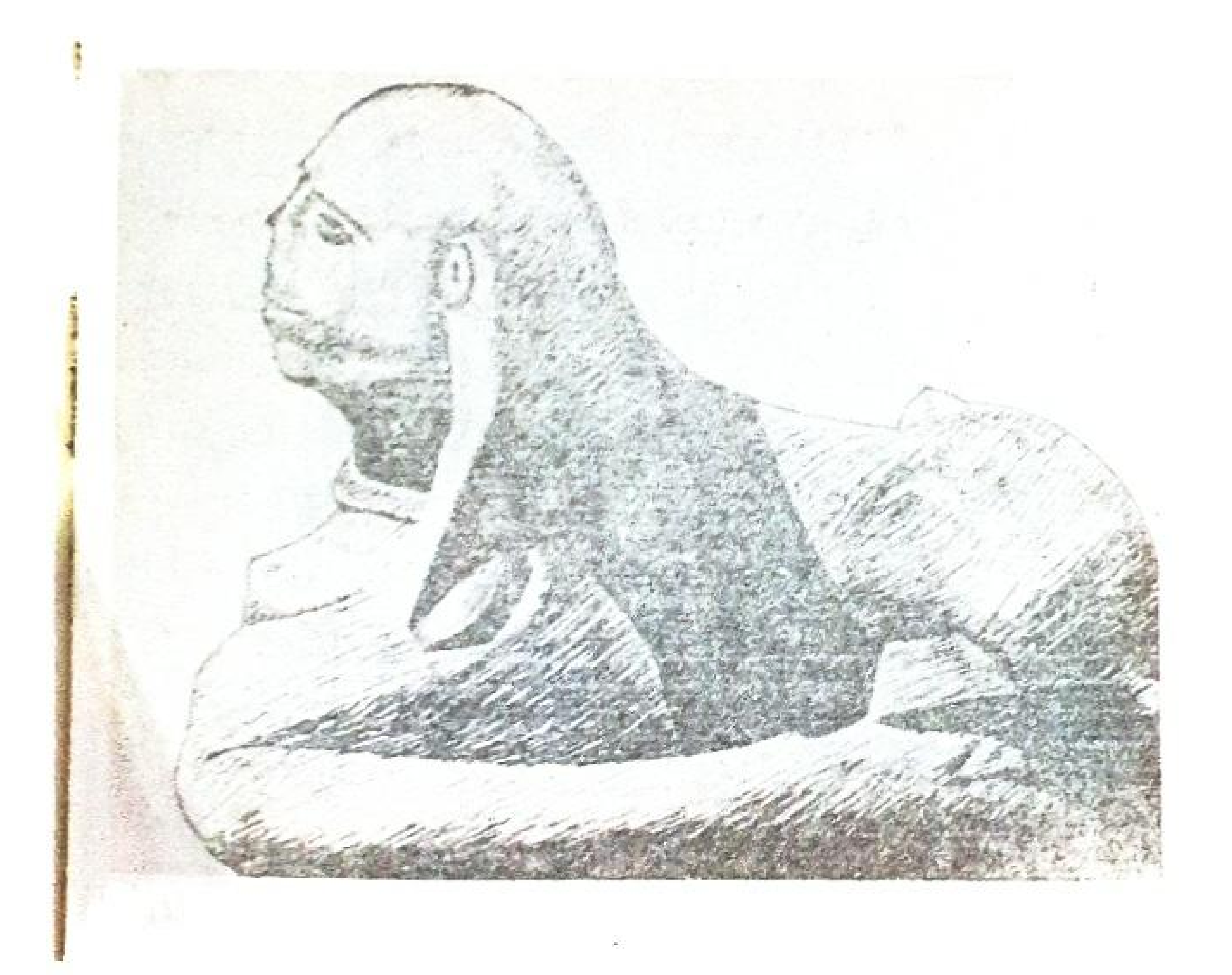
الرسم رقم ٢٥ نحت بارز من الاجر المطلي بالميناء يمثل اسدا وهو احد الاسود التي كانت تزين جانبي شارع المواكب في بابل (انظر الفقرة ١٨) .



الرسم رقم ٢٦ هذه صورة الجنائن المعلقة البابلية الشهيرة التي انشاها نبوخذ نصر في بابل لزوجته المادية ، نشرها هجنسون في كتابه « قصة الامم » (ص ١٦٣) فيشاهد في الطرف الايسر منها الجهاز الذي كان يستخدم لرفع المياه الى الجنائن .



الرسم رقم ٢٧ عثر على هذا التمثال في سيناء نقشت عليه كتابة كنعانية في شبه احرف تعد اقدم كتابة بالاحرف توصل بين الكتابة التصويرية (الهيروغليفية) والابجدية وقد حدد العلماء في احدث تحقيق تاريخها بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد (انظر الفقرة ٢١ أ) .

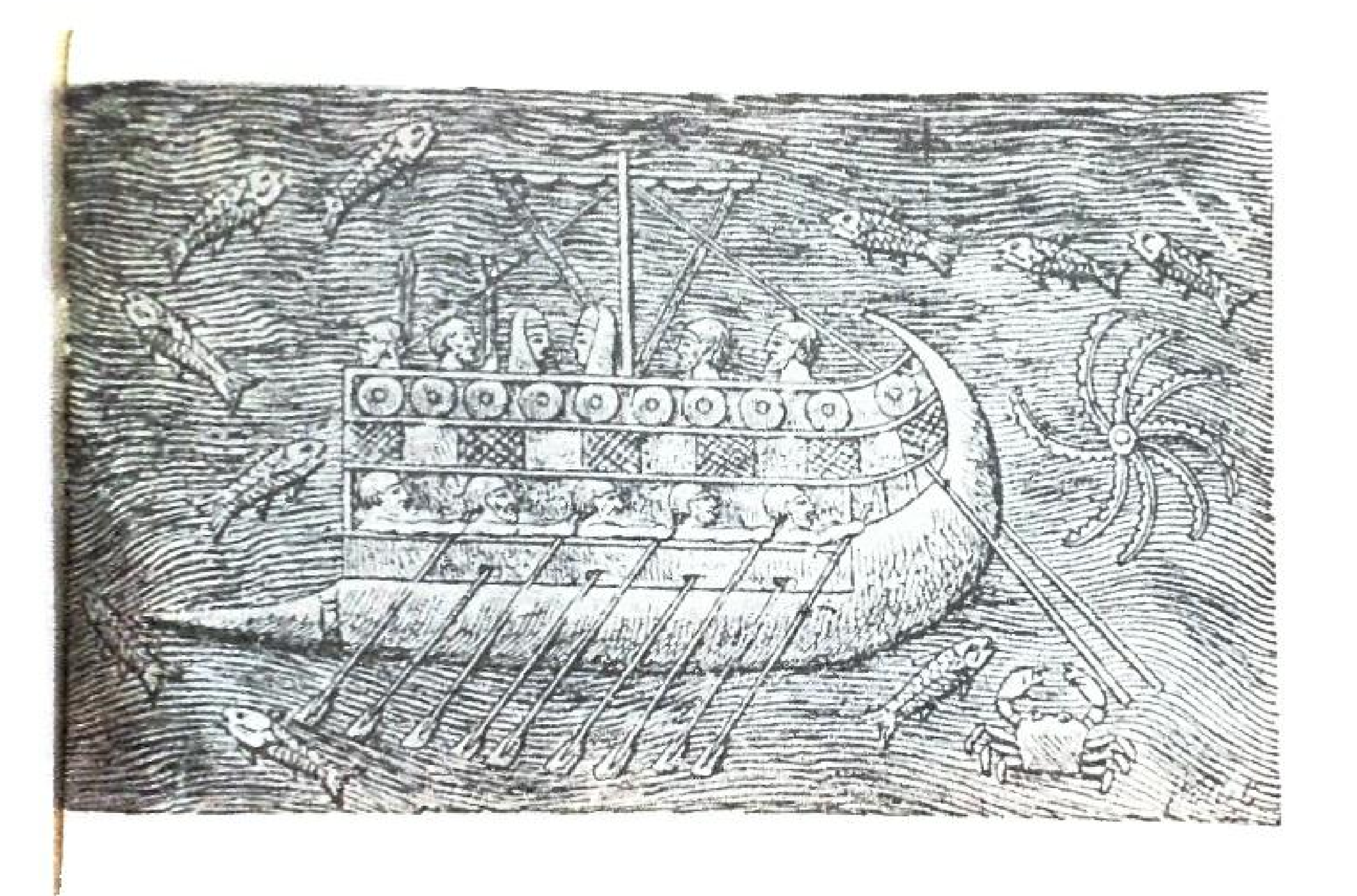


الرسم رقم ٢٨ « ابوالهول » عثر عليه في المعبد المصري عند سرابيط الخادم بجوار مناجم الذهب المصرية القديمة في سيناء عليه اقدم كتابة كنعانية بالحروف الابجدية وهي تمثل اسم الالهة « بعل ايث » الالهة حتحور السامية . وهذه الكتابة البسيطة غير المنتظمة تشكل حلقة الوصل بين الهيروغليفية والابجدية (انظر الفقرة ٢١ أ) .

سينائي	المعنى	عربي جنوبي	فينيقي	اوغاريتي	اغريقي	لاتيني	عبري
	رأس ثور				A	A	ء
	بيت				β	B	ب
					Γ	CG	ج
	باب				Δ	D	د
	شباك				E	E	هـ
	وتد				Y	FV	و
= (?)	(زين) سلاح				I	...	ز
	حيت (حائط)				Θ	H	ح
...			⊕		⊗	...	ط
	يد				ξ	I	ي
+	كف اليد				K	...	ك
	لمد (عصا)				LΛ	L	ل
	ماء				M	M	م
	افعى				N	N	ن
	سمكة				Ξ	X	...
	عين	o	o o		o	O	ع
	فم				Γ	P	ف
	صياد				...	...	ص
					ϙ	Q	ق
	رأس				P	R	ر
	قوس		w		Σ	S	س ش
+	صليب	×	×		T	T	ت

(انظر الفقرة ٢١ أ)

الرسم رقم ٢٩ جدول تطور الابجديات (انظر الفقرة ٢١ أ) .



الرسم رقم ٣٠ نموذج من السفن الكنعانية (الفينيقية) ذات المناقر وجدت منقوشـــة
على جدران قصر سنحاريب في نينوى وهو الذى استعان بالفينيقيين في
انشاء اسطوله اذ انفرد الفينيقيون في تصميمهم الخاص لسفنهم حيث
زودوا مقدمة سفنهم بمنقار معدني بارز الى الامام يساعدها على شــق
الماء وزيادة سرعتها (انظر الفقرة ٢١ أ) .



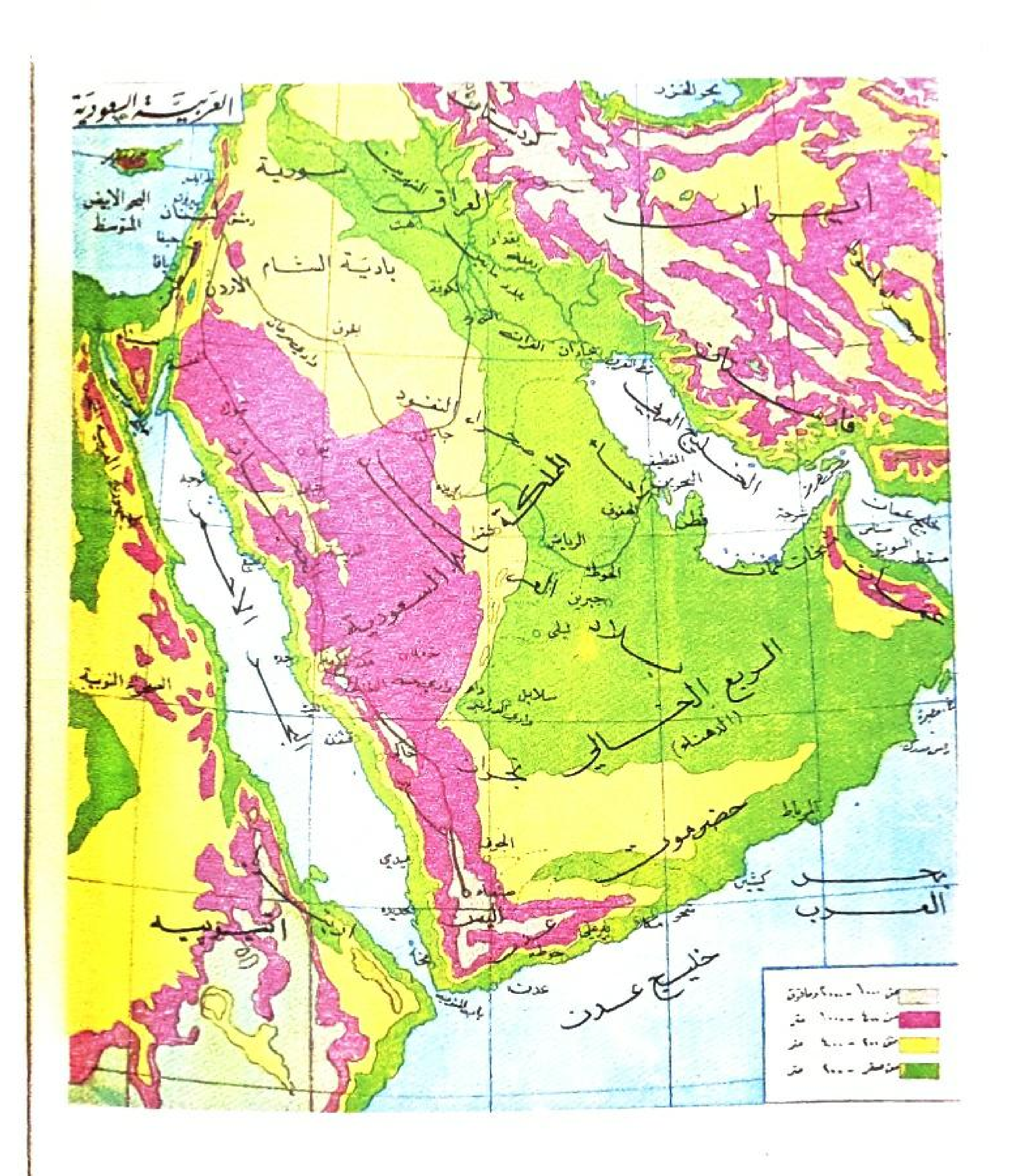
الرسم رقم ٣١ نقش لفتاة كنعانية من مجدو في كنعان (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)
(انظر الفقرة ٢١ أ)



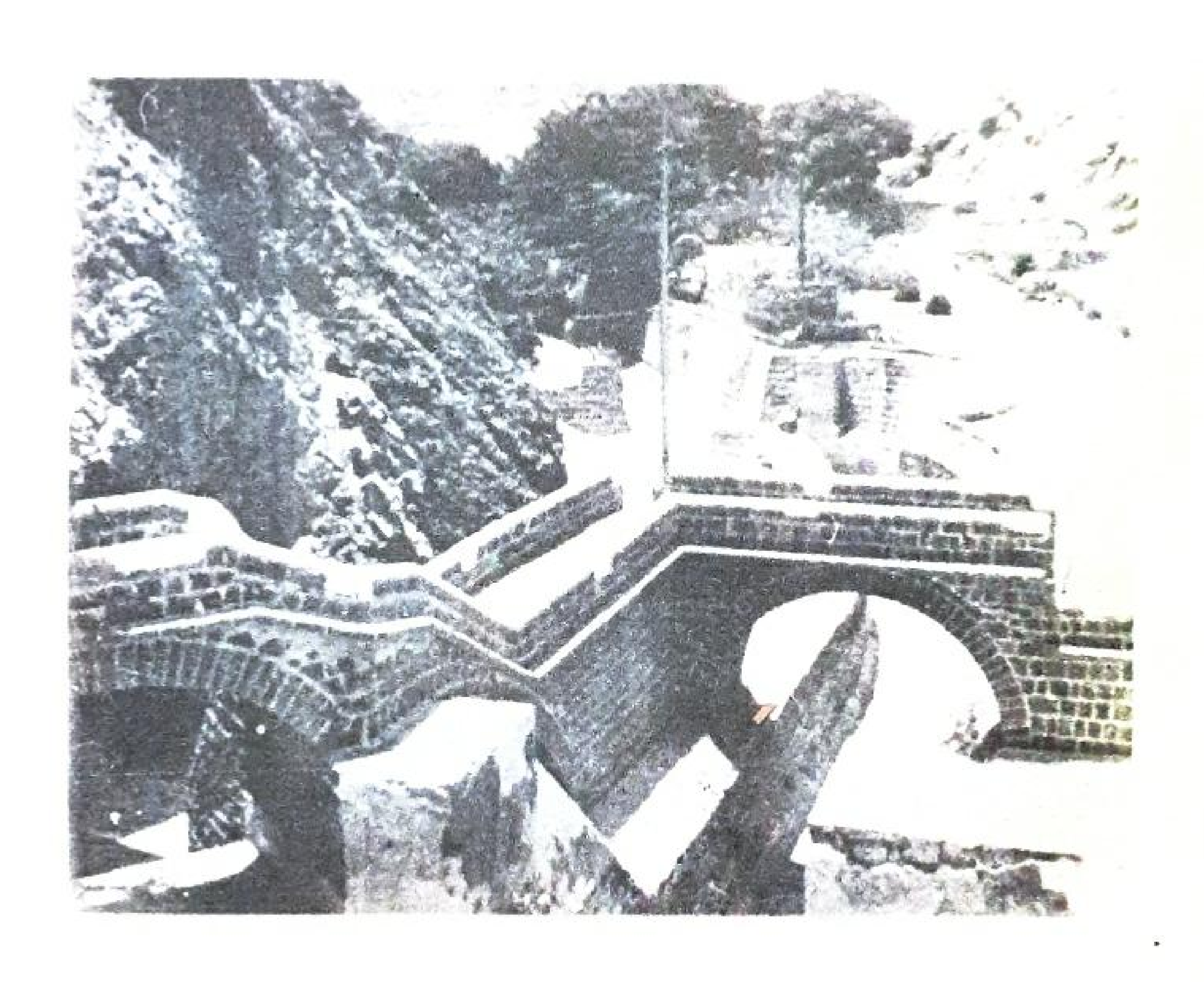
الرسم رقم ٣٢ تمثال من الطين المشوي يمثل فتاتين عربيتين تمتطيان جملا على الهودج تشاهد الفتاتان في هودجهما احداهما تنفخ بالارغول والثانية تضرب وهذا التمثال محفوظ في متحف اللوفر في فرنسا ويرجع زمنه الى عهد الرومان (انظر الفقرة ٢١ أ) .



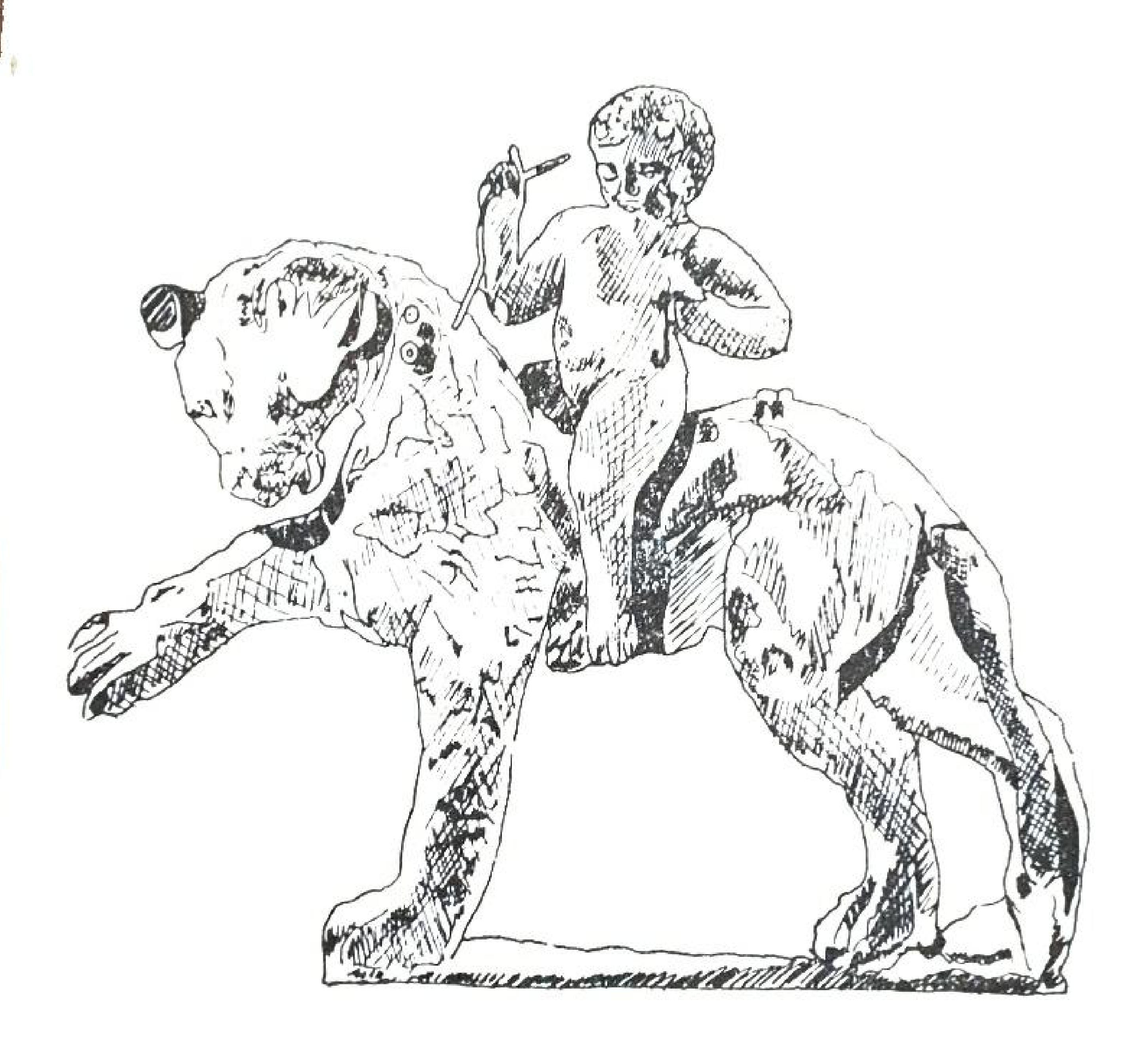
الرسم رقم ٣٣ الملك « معد ايل » سلحان (يصدق ايل) ملك اوسان (عن مارجوليوث) (انظر الفقرة ٢٢) .



الرسم رقم ٣٤ خارطة اليمن (انظر الفقرة ٢٣) .



الرسم رقم ٣٥ صهاريج عدن (انظر الفقرة ٢٣)



الرسم رقم ٢٦ احد التماثيل البرونزية المكتشفة في مقبرة في « تمنة » (تمنــع) في جنوبي الجزيرة العربية يعود تاريخه الى ٧٥ ـ ٥٠ ق.م. (انظــر الفقرة ٢٣)



الرسم رقم ٣٧ فلاح يمني يحرث الارض (انظر الفقرة ٢٣)

شمال

سلسلة جبال شعبان

قرية مأرب الحديثة

جبل بلق الأيسر

جبل بلق الأيمن

وادي ذنة

شعاب الميزاب الشرقي

سيل الحربة

باب الضيقة

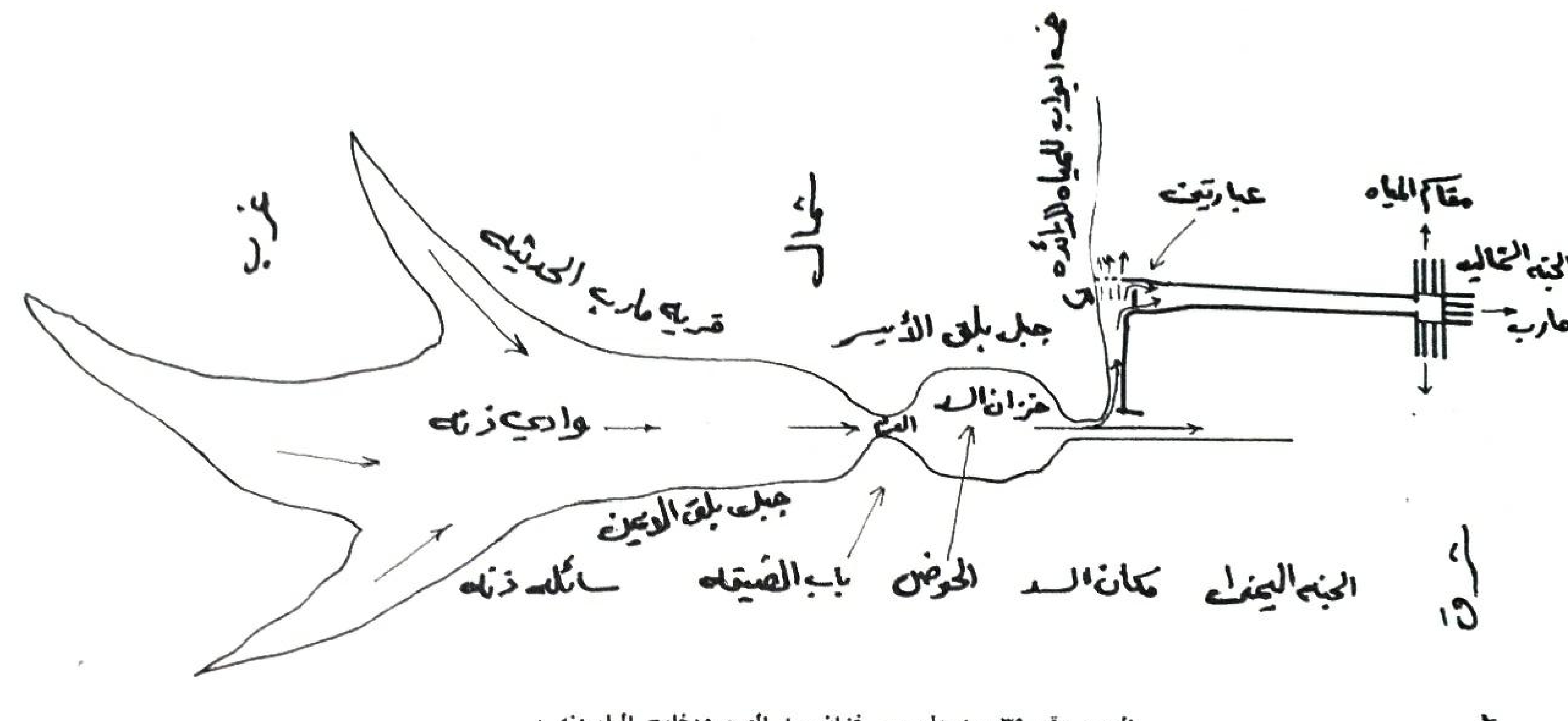
خزان سد العرم

سد العرم

الجنة اليسرى

شرق

الرسم رقم ٣٨ سد مارب ـ خارطة وادى ذنة وخزان سد العرم (انظر الفقرة ٣٣) .



الرسم رقم ٣٩ سد مارب – خزان سد العرم ومخارج المياه منه .

العبّارتان

هذه ابواب لخروج المياه الزائده

٢٦٥٠م

١١٦٥م

شمال

الرسم رقم ٤٠ سد مارب مخارج المياه من السد.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٤٥ لسنة ١٩٧٩

الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام
بغداد

هذا البحث

يتناول هذا البحث الوثائقي المقتضب قصة حضارة العرب ومراحل تطورها الثلاث عبر العصور ويبحث الدور الذي لعبته جزيرة العرب في تكوين الحضارات السامية في ضوء ما تركته من تراث أصيل يعد من أهم عناصر التقدم في مسيرة التمدن البشري

تصميم : وسام كمورة